دليل المذكرة :

1- الواجهة

2- الإهداء

3- المقدمة

4- الفصول الثلاثة

5- الملحق

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الدكتور يحيى فارس – المدية –

كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم اللغة والأدب العربي

الموضوع :

صورة الجزائر عند الرّحالة الفرنسيين

" سنة في السّهل " لـــ : " أوجين فرومنتان " . أنموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير

تخصص أدب مقارن

من إعداد الطالب

علي بريغيث

السنة الجامعية : 2011 / 2012

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الدكتور يحيى فارس – المدية –
كلية الآداب و اللغات و العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم اللغة والأدب العربي

الموضوع :

صورة الجزائر عند الرّحالة الفرنسيين

" سنة في السّهل " لـــ : " أوجين فرومنتان " . أنموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير

تخصص أدب مقارن

إعداد الطالب **تحت إشراف**

علي بريغيث **د. حميد ناصر خوجة**

أعضاء لجنة المناقشة

اسم الأستاذ	الرتبة	الصفة	الجامعة
د. مبارك تريكي	أستاذ محاضر صنف(أ)	رئيسا	جامعة المدية
د. حميد ناصر خوجة	أستاذ محاضر صنف(أ)	مشرفا ومقررا	جامعة الجلفة
د. ملواني حفيظ	أستاذ محاضر صنف(أ)	مناقشا	جامعة البليدة
د. محمد خليفة	أستاذ محاضر صنف(أ)	مناقشا	جامعة الأغواط

السنة الجامعية : 2011 / 2012

الإهـــداء

– إلى والديّ : أبي وأمّي العزيزين .

ورفيقة حياتي : زوجتي الكريمة .

وإخوتي وأخواتي وأبنائي ...

– إلى السادة : أساتذتي الأفاضل والرُّفقة الطيبة من أصدقائي المخلصين ...

إلى هؤلاء جميعا أهدي ما أنجزت بفضل الله وتوفيقه .

المقدَّمـــة

إن علاقة الإنسان بالإنسان منذ القِدم لأمر طبيعي قائم في الأساس على التفاعل والحوار المتبادل لبناء المجتمعات، انطلاقا من الصورة التي تجمع الأنا بالآخر في روح إنسانية متسامية .

وإذا كانت صورة الشعوب في آداب بعضها البعض قد اقترنت بالدراسات الأدبية المقارنة التي تسعى دوما إسهاما منها إلى بناء الحضارة الإنسانية الحديثة، فإنه لا يخفى على دارس آداب الشعوب أن الصورة كانت موجودة من ذي قبل في الانطباعات والإشارات التي ميزت سلوك الإنسان في مختلف الحضارات والأقطار، ومن بين الفنون الأدبية فقد قدر للرحلة أن أحدثت كشوفا لم يكن متوقعا منها تغيير نظرة الإنسان لذاته ولغيره، من خلال رصد الكثير من الصور لمظاهر متعددة للحياة اليومية عند بعض الشعوب، خاصة ما يتصل بالبيئة وصفات ساكنيها من ملبس ومأكل وطبائع وفي الأسواق والأماكن العامة وعادات الأفراح والتقاليد المصاحبة لها، قصد اكتساب معرفة الواحد بالآخر في ثنائية من شأنها أن تنهض على افتراض الغيرية التي يتألف منها الوجود الإنساني سعيا إلى إثبات الأنا .

لذا يعد علم الصورة من أحدث المجالات في الأدب المقارَن وأهمها على الإطلاق، الذي أثبت وجوده في أواخر القرن العشرين ليرى الشعب أيّ كان صورة نفسه وما بها من محاسن يثمنها وعيوب فيقوّمها ؛ وليس غريبا أن تأتي الصورة من متأثر أجنبي في رسم بيئة وشعب بأكمله في أعماله الأدبية من منظور الغالب وعزله للآخر في مجموع ما استقاه من معلومات واقعية وأخبار متخيلة على امتداد ظروف زمنية ومكانية متباينة .

إن هذه الدراسة تسعى إلى الكشف عن مضمون الصورة بكل أطياف ألوانها البيئية والاجتماعية التي تناولها الكاتب فرومنتان في كتابه « سنة في السهل »، تلك الصورة التي لم تكن أحيانا هي الصورة الحقيقة للجزائر بما يُلمس من إيجاز شديد غير منصف عند وصف الحياة الاجتماعية، يقابله إسهاب في ارتياح وتفصيل في وصف البيئة، كل ذلك كان وليد انطباع الأنا الغربي ونظرته للآخر، مما يؤكد أن فرومنتان لم يكن مبرأ من الظروف الرئيسية لواقعه الاجتماعي والسياسي والمعرفي الذي كان ينتمي إليه من جهة، وذاتيته كفرد رهين وطوع إشارة سلوكاته .

وعليه فإن هذا البحث يرصد علاقة الكاتب بكتابه والظروف التي أوحت إليه تأليفه، في ظل إقامة الكاتب بشمال الجزائر في رقعة محددة قرابة السنة راصدا عن كثب الحقائق التي يراها واقعية ؛ وإن كانت على كثير من الاستعلاء والوهم، كاشفا عن التناقض الحاصل هنا وهنالك سعيا منه للتقليل من شأن المنظور إليه، ممتنعا عن الاعتراف بالجوانب المشتركة بين الشرق والغرب، بل في اقتناعه أن الآخر لا محالة مندثر، حامل لبذور فنائه في كيانه، لعجزه العقلي والإرادي عن التطور والاندماج مع حملة العلم والمدنية والحضارة والفن والعمران ... ومن ثمّ رأى أنه من حق فرنسا استغلال هذه البلاد وفي طبع هذا الشعب بطابعها الخاص، فبدت تلك العلاقة لا تقوم على التفاهم والتعاون والحوار وإنما على قاعدة غالب ومغلوب، وعليه فإن التناقض في طرفي المعادلة لا يقود حتما إلى نتيجة صحيحة مما يؤكد بالضرورة اضمحلال الآخر تحت وطأة القوة المهيمنة عليه، وما ينسب إليه من صفات التقهقر التي جعلت منه مثالا للاحتقار في نظرة الآخرين إليه وفوق هذا كله لم تسعفه الظروف لدفع الضرر عن نفسه لإحساسه بالضعف المسيطر عليه لعدم مسايرته الركب الحضاري المتقدم مكتفيا بسرد آلامه والعيش في عزلة وانفراد عن بني جلدته ؛ كل ذلك من شأنه رفع معنويات الناظر في وصف المنظور إليه، بما جعل الغربي (فرنسا) مالك زمام الأمور طموحا إلى قيادة المشرقي (الجزائر) المستسلم لظروف الواقع، مهيأ لاستقبال كل المشاريع والتجارب التي تشعرهم بذلّتهم وتعظّم من قيد ماضيهم وحاضرهم بالجمود والعبودية .

- **اختيار الموضوع :**

وقد جاء اختيار هذا الموضوع تلبية لعدة مبررات موضوعية وذاتية، وهي :

1/ أهمية الموضوع وارتباطه بتاريخ الجزائر التي مرت بظروف صعبة عانى فيها الشعب الجزائري محنة الاستعمار وفظاعة جرائمه التي أتت على الأخضر واليابس .

2/ يقال : " أصل الإشاعة حقيقة "، مما استوجب البحث تكثيف الجهد في الاستقراء والمقارنة وإمعان النظر فيما أقره الكاتب وغيره ؛ وعرض ذلك على المنطق والفكر والمنهج التكاملي للوقوف على واقع الصورة ومدى صدقها أو زيفها .

3/ كون الصورة تصب في درس الأدب المقارن وما تتميز به من شمولية بالرغم من تعقيداتها وارتباطها بجوانب الحياة والإنسان .

4/ الكتابة لأول مرة في موضوع واسع ودراسة مدونة لم يتم التطرق إليها من قبل، مساهمة منا في إثراء المكتبة الوطنية بموضوع ذي صلة كبيرة بتاريخ الجزائر .

5/ الرغبة في التعلم على يد أساتذتنا واكتساب المهارة منهم في حقل المعرفة والبحث والتحقيق والتأليف .

- **وضعية البحث :**

كثيرة هي البحوث التي تناولت عناوين : " الأنـــا الذي يحكي الآخر "، " صورة الأنا والآخر "، " سميائية الشخصية المهاجرة "، كتابات بعض الأدباء الجزائريين والقواسم المشتركة بينها وبين كتابات الأدباء الفرنسيين، " الصراع بين الشرق والغرب "، " صورة الغربي في الكتابات العربية "، و" صورة العربي في المخيال الأوروبي " وغيرها كمذكرات في الأدب المقارن . ولقد انصب اهتمامنا على إبراز ما مدى وفاء الصورة للواقع

الحقيقي الذي ارتسم بين طيات مؤلَّف فاضل بين عالمين مما أصبح ضرورة أساسية في كشف هذه الرؤية وتحليل أحكامها المسبقة وعرضها على الفكر والمنطق .

- إشكالية البحث :

وتكمن في مجموعة أسئلة، هي على النحو التالي :

1. هل ما نقله الكاتب في كتابه هو تبرير لأعمال فرنسا بالجزائر في كونها خلّصت الجزائريين من حكم الأتراك وأنها أخذت بأيديهم إلى الاندماج والسير معها قُدُما نحو التقدم والتطور ؟ .
2. هل ما وصف به فرومنتان الجزائريين من وحشية وغرابة يمثل حقيقة أم مجرد أوهام ؟ .
3. ما الدوافع الخفية من وراء تصدير هذه الصور ؟ وما مقدار الجانب الذاتي فيها وتأثره بثقافته الأم ؟ .
4. إذا كان الذي قيل في حق الجزائر وشعبها موثقا بأدلة ما، فما مقدار قيمتها وواقعيتها، علما أن معظم الصور التي عرضها الكاتب في كتابه تعبر عن سلوكات فردية ونظم اجتماعية معينة قابلة للتغيير والتقويم مع مر الأيام ؟ .
5. إن كانت فعلا هذه التصرفات تمثل طبيعة الجزائر فما روافدها في نظر الكاتب التي أبقت ديمومتها أهو التعصب لوازع الدين أم الخضوع إلى سلطان التخلف والقبلية وحب الانعزال ؟ .
6. كيف كان ينظر الكاتب إلى نفسه من خلال صورة المجتمع الجزائري ؟ .

- **خطة البحث :**

تضم هذه الدراسة ثلاثة فصول يتقدمها تمهيد وفي نهايتها خاتمة وقائمة مصادر ومراجع وفهرس للموضوعات .

ربما كانت الفصول متقاربة نوعا ما في عدد الصفحات مع أنه لم يتم ادخار أي جهد في إيفائها حقها مما توفر من معلومات تخدم طبيعة الموضوع وما يتطلبه من تقديم وتأخير وتنقيح طيلة إعداد المذكرة .

– التمهيد :

ويتضمن نقطتين أساسيتين، هما :

*** مفهوم الصورة : لغة واصطلاحا، ودورها في التعريف بحياة الإنسان ومحيطه، بما تحمله من دلالات رمزية وثقافية وإيديولوجية وذلك لإعادة المعنى غير المرئي لها .**

*** كتّاب الصورة : بين ملتزم وليبرالي، محاولة في تهيئة الظروف للولوج إلى صلب موضوع البحث، وذلك بالوقوف على :**

– الفصل الأول :

تم تخصيصه للكاتب : « أوجين فرومنتان » الروائي : عصره، حياته، ورحلاته و« أوجين فرومنتان » الرسام ؛ وقد مثل بحق ثمرة مجتمعه للضغوط الاجتماعية والنفسية التي أثرت في تكوين شخصيته وامتثاله في عمله الأدبي والفني للتفكير الثقافي السائد في بلده، وذلك بعدم الخروج عن منهج من سبقه قيد أنملة بحثا عن التميز الذي ينشده منذ أن وطأت قدماه أرض الجزائر .

يلي ذلك إطلالة سريعة في كتاب « صيف في الصحراء » كونه وليد سفرة قام بها الكاتب في (03 جوان 1853) إلى الصحراء " الأغواط " في خضم رحلته الثالثة التي قضاها في شمال الجزائر (بين العاصمة والبليدة)، والتي أوحت له بتأليف كتابه الثاني : « سنة في السهل » ؛ ولتقريب أجزاء فقراته تمّ التعليق على مضمونه في إيجاز وتلخيصه قصد حصر تشعب أحداث فِقَره .

– الفصل الثاني :

اختص هذا الفصل بإعطاء مفاهيم عامة تتعلق بالمكان والزمان بشكل عام، ثم تم التطرق إلى تحديد أبرز الصور المتعلقة بهما في مدونة البحث .

– الفصل الثالث :

يدرس هذا الفصل صورة الإنسان، من خلال صورة المجتمع والفرد بالإضافة إلى علاقة الكاتب باللغة والأمثال، ونظرته إلى الطير والحيوان انتهاء إلى الحديث عن الجزائر والتواجد الأوروبي على ضوء ما تم رصده من أحكام واردة في الكتاب المدروس .

وتمَّ إنهاء البحث بخاتمة رصد فيها أهم النتائج المتوصل إليها بعد دراسة الموضوع .

- تحديد المنهجية :

قراءة الكتاب والتعمق في فهم معانيه ومبانيه تطلب الاستعانة بعدة مناهج منها المنهج التاريخي الذي تم الاعتماد عليه لتحديد الظروف والحوادث التاريخية المحيطة بالأثر المدروس ؛ كما شمل البحث على المنهج البنيوي التحليلي الذي يعتمد على تحليل المادة القصصية ودلالاتها السردية لاستقراء بنية الفضاء القصصي مكانيا وزمانيا ؛ كما تم استخدام المنهج السيميائي الذي وظيفته تفكيك الرموز وتحليل مدلول اللفظ والعبارة لمعرفة الصور وتوجهاتها

بالإضافة إلى المنهج النفسي في تأويل سلوكات الأشخاص وهنالك أيضا المنهج الإحصائي الذي وظيفته تحديد الصور ومعرفة مدى تواترها .

- أهم المصادر والمراجع :

01. Eugène Fromentin . une année dans le Sahel .

Deuxième édition . Paris . Michel Lévy frères . Libraires - éditeurs . 1859 .

02. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. ج6. ج8 .1830- 1954. دار البصائر الجزائر.

03. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه . ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007 .

04. زينات بيطار . الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي . سلسلة عالم المعرفة . الكويت

05. محمد غنيمي هلال . الأدب المقارن دار العودة . بيروت ؛ 1983 . ط 3 .

06. عيسى عطاشي. صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي « صيف في الصحراء » لفرومنتان نموذجا . مشروع لنيل شهادة ماجستير 2005 .

ولا تزال قائمة الكتب مفتوحة نهاية المذكرة في حدود ما تمّ الاطلاع عليه والتعامل معه من مصادر ومراجع تخدم محتوى البحث .

- الصعوبات :

تكمن في قلّة الموضوعات المتخصصة في عالم الصورة لحداثتها وتشعب مفاهيمها، وأيضا انفتاح الكتاب المدروس على الكثير من المواضيع الأساسية والثانوية التي تتجاذبها الذاتية وأحيانا الموضوعية والحقيقة والخيال، بين تذكر للماضي والحديث عن الحاضر في تقارير ميدانية وقصص مخترعة، كل ذلك مكتوبا بالفرنسية مما زاد في صعوبة التعامل مع

ترجمة النص الأصلي إلى اللغة العربية مخافة الحيد عن معاني أفكاره ودلالة قاموسه اللغوي وكذلك الاحتراس ما أمكن في الدراسة من التعابير اللغوية الأنيقة بالرغم من الصورة الأدبية الجمالية التي اصطبغ بها النص والتي تمثل امتدادا واضح المعالم للأدب الرومانسي في أرقى تجلياته ؛ بالإضافة إلى استشهاد الكاتب بالقصص المنقولة عن الآداب اللاتينية ؛ ضف إلى ذلك تعذر ترتيب موضوعات الكتاب بما يخدم البحث ويتوافق مع المنهجية المختارة له .

ومن باب الإقرار بالفضل لأهله، فقد تمَّ الاستفادة من تجربة الأستاذ : « عيسى عطاشي » في دراسته كتاب « صيف في الصحراء » لنفس الكاتب مما فسح الطريق أمامنا في الاجتهاد والالتزام بتصويب المعلومة بكل أمانة علمية ما أمكن ذلك .

كلمة شكر :

كما لا يفوتني أن أقدم شكـــري وامتناني لأستاذي الفاضل الدكتـــور : « حميد ناصر خوجة » الذي أشرف على هذا البحث في رحابة صدر، فوق ما لديه من مشاغـــل خاصة ؛ وتحية محبة أخوية وعرفان إلى زميلي « الذيب محمد » نظير عونه وتشجيعه لي طيلة إعداد هذه المذكرة . دون أن أنسى الأستاذة الكرام : « مبدوعة أحمد » و« بديرينة عبد النبي » و« بن حليمة لخضر » .

والحمد الله رب العالمين .


بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

– أولا : مفهوم الصورة :

الصورة * هي المرآة التي تُعرَّف بأنها سطح يعكس أصلا سابقا لها " فأيّ شيء يمتلك خاصية السطح العاكس فهو وهذا الذي يقوم أمام المرآة يعرف باسم الأصل، وأمّا الذي تعكسه فهو يعرف بالصورة أو الانعكاس، وتدور الصورة مع أصلها وجودا وعدما، فإن وجدت كان الأصل موجودا وإن انعدمت أو غابت كان الأصل منعدما أو غائبا " [1] .

والصورة رسالة بصرية، وهي تمثيل للمألوف والجديد والمتوقع والمبهم وما يصحبها من المشاعر والظروف المحيطة بالفرد والجماعة، إنها تمزج بين المكاني والزماني، وتختلف في تفسيرها ماضيا وحاضرا، وتجمع بين فضائين، خارجي يمثله الواقع وفضاء داخلي هو المتخيل الذي يمثله الكاتب ذاته . فالصورة في هذه الحالة تكون كما يبيّن جاك مارك مورا " قد خلقتها الحساسية الخاصة للأديب " [2] .

والكاتب هو القادر على رصد الصورة في عملية المقاربة بين ما هو حسي وعقلي وبين معنى ظاهر وأخر خفي، والتي من وظائفها الإقناع والتأثير لما فيها من واقعية ومبالغة وتحسين وتقبيح ووصف ومحاكاة، وهي كشف للمجهول واختزال للأحداث وحواجز الزمن المتعاقبة، نتيجة احتكاك الكاتب بالآخر، إمّا مباشرة عن طريق السفر وبناء العلاقة الشخصية مع الطرف الأجنبي، وإمّا باحتكاك غير مباشر يقوم على إلمام الكاتب بالمدوّن والمقروء والمسموع وحتى المرئي .

---

* الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته . (ابن منظور . لسان العرب . دار صادر بيروت . ط 4 ؛ 2005 . مجلد 8 . ص 304) .

والصورة : الشكل وأيضا الصفة، النوع، الوجه [فؤاد إفرام البستاني منجد الطلاب. دار المشرق. بيروت، 2000 . جذر (صور) ص : 416]

[1] . محمود رجب . فلسفة المرآة . دار المعارف مصر . ط 1 . 1994 . ص 15

[2] . J-M .Moura, L'Europe Littéraire et l 'ailleurs, Presses Universitaires de France 1998 . P 42 .

ولثقافة الكاتب تأثير على الصورة تحمله ذاتيته إلى الحكم على ثقافة الآخر الأجنبي من منظور قوميته لعدّة اعتبارات تاريخية وسياسية واجتماعية وثقافية، فالناظر والمنظور إليه* متمايزان عن بعضهما البعض، بما يرغب الأول إلى إظهار نقاط التمايز بينه وبين الثاني في عملية المقابلة بين الأنا والآخر، يقول هنري باجو : " أيّ صورة تصدر عن وعي (مهما كان ضئيلا) بـــ« الأنا » مقابل « الآخر »، بـــ« هنا » مقابل « هناك » تعدّ تعبيرا عن فارق دلالي بين واقعين ثقافيين مختلفين، سواء كان التعبير أدبيا أو لم يكن " [1] .**

ويلاحظ أنّ واقع الآخر الأجنبي حقيقة راسخة في ماضيه وحاضره، يحاول الكاتب الناظر الإلمام به وتحليله من خلال رؤى معينة تقتضيها ظروف الزمان والمكان والإنسان، يسعى إلى إعادة هذه العناصر وغيرها من جديد في جهد عقلي وفكري تعديلا لها والتي حتما ستتّسم بالصور والأوهام الموروثة عن الأنا، يقول هنري باجو في هذا الشأن : " الصورة المقارنة ليست نسخة عن الواقع، إنها تتشكل وتكتب بالاعتماد على مخططات وإجراءات توجد قبلها ضمن الثقافة الناظرة " [2] .

وأيّ حكم مسبق عن المجتمع المنظور إليه في سلوكه بالإيجاب أو السلب في إطار الاتصال والاحتكاك به في ظروف السلم أو الحرب يعدّ قصورا، مرده أن الكاتب يجهل حقيقة هذا المجتمع، وأنّه تتحكم فيه قيم ذاتية وموضوعية كثيرة، لعل أقلّها الكلمة . يشير

---

* " حيث تعمل ذات الآخر مرآة نرى فيها ذاتنا التي تعمل بدورها كمرآة تساعد الآخر على رؤية ذاته " (ميخائيل إبراهيم أسعد . شخصيتي كيف أعرفها دار الأفق الجديدة . لبنان ؛ ط 3 . 1987 . ص 72) .

** إن " الفضول المعرفي الأوروبي في هذه الفترة والرغبة في الاطلاع على اختلافات الآخرين أصبح انشغالا للدولة واهتماما جديا، لأن اختلاف الآخر عنصر يعضد ويحمي الهوية سياسيا واجتماعيا وثقافيا من جهة ويفرض على هذه الهوية أن تنظر جيدا إلى ذاتها من جهة ثانية ". (نورالدين أفاية، المتخيل والتواصل مفارقات العرب والغرب . المنتخب العربي . لبنان ؛ 1993 . ص 105)

[1] . دانييل هنري باجو " الأدب العام المقارن " ترجمة د. غسان السيد . من منشورات إتحاد الكتاب العرب 1997 ص 91 .

[2] . المرجع نفسه . ص 91 .

هنري أن " كل صورة هي بالتأكيد خاطئة فيما يتعلق بكونها تمثيلا لواقع ما، وتعبيرا عنه بواسطة الكلمات " [1] .

ففي نظرة الكاتب للآخر انغماس في الخيال في عملية اكتشاف جديدة للواقع لا تخلو من امتزاج الفكرة بالشعور الذاتي، وتصبح الصورة عندئذٍ كما يوضح عبد الجليل لهجومري " قدرة محرّفة " [2] .

يتواصل الكاتب مع الآخر الأجنبي أفرادا وجماعات في جميع الأحوال بحثا عن صورة الهوية والغيرية، من نقل الواقع حرفيا وبشكل بسيط للغاية من قول أو فعل أو إشارة، ومن خلال تلك الممارسة تنشأ لديه نظرة انتقائية، " حيث طبيعة الآخر ومكوناته الفيزيولوجية وانتماؤه العرقي واللّوني هي التي تفسر ثقافته من ثمّ يحكم عليه بالدّونية أو التفوق " [3] .

إن الصورة وأصلها لا تعني تمام المثلية، فهي " لا تطابق الواقع الحقيقي، وليست شديدة القرب منه، ولكنها ليست مختلفة عنه تمام الاختلاف، إنها رؤية معقولة لشعب عن شعب آخر، تعتمد على عوامل عقلية وأخرى مادية * موضوعية وذاتية ." [4]

فبالرغم مما تسعى إليه الصورة من أمانة ودقة وصفاء إلا أن تمثيلها للواقع ومطابقتها له مطابقة كلية أمر لا يمكن حدوثه، ذلك " أن الصورة غير ثابتة فالشخص يتغير دائما، يتغير في شكله كما يتغير في باطنه، يتغير في شكله لأنه يتطور مع نمط الحياة، فهو يغير ملابسه وطريقته في الحياة اليومية، ويتغير كذلك في باطنه، فيتخلى عن بعض الأفكار، ويؤمن بأفكار أخرى

---

[1] . المرجع السابق ص 60 .

[2] . Abdeljlil Lahjomri, L'image du Maroc dans la littérature française . P 21

[3] . دانييل هنري باجو . الأدب العام المقارن . ص 96 .

* من بين العوامل التي تدخل كعناصر مكونة لكل صورة فردية أو جماعية : الأنماط البشرية، الأحكام المسبقة، الإشاعات، الطرائف، والآراء، والمشاهدات في إطار من السذاجة .. " وهذه الصور كلها تختلط فيها الحقائق بالمزاعم ودلالتها على مشاعر قائليها أحق بالتقويم " (د. محمد غنيمي هلال. الأدب المقارن دار العودة. بيروت ؛ 1983. ط 3. ص 426)

[4] . عبد المجيد حنون . صورة الفرنسي في الرواية المغربية . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر ؛ 1986 . ص 09 .

جديدة أو قديمة لم يكن يؤمن بها، إنّه يعيش وينمو ويتطور، فالإنسان غير جامد، وعدم الجمود يعني الحركة والتطور أي التغير، وقد يكون التغير سريعا وقد يكون بطيئا " [1]

يرى هنري باجو أن علاقة الصور – صور الأنا وصور الآخر – في حقيقتها ما هي إلا شكل من أشكال الحوار بين الثقافات، الذي ينتج أساسا من ثلاث وضعيات، هي : الهوس والرّهاب والتآلف [2] .

أ – الهـــوس : الولع الشديد بالثقافة الأجنبية وتفضيلها على الثقافة الأصلية ورفض الذات وإنكار محاسنها .

ب – الرّهاب : السعي إلى تحقير الأجنبي وتضييق الخناق عليه، بذكر عيوبه وإحكام السيطرة عليه، والتباهي بالثقافة القومية والإعجاب بالذات المتسامية .

ج – التآلف : وذلك بالحكم على صورة الأنا وصورة الآخر بنظرة إيجابية، تقوم على التعايش والتواصل الحقيقي للفكر والثقافة تبادلا ثنائيا تامّا .

يلاحظ أن الوضعية الأخيرة تعدّ المجال الحقيقي لنمو الثقافة الهادفة بين الناظر والمنظور إليه في تكامل ثنائي، إنها تعطي صورة عن الآخر في محاولة إلى التعريف بجوهر هذا المجتمع والتفاعل إيجابيا مع عناصر تركيبته بشكل دائم ومطّرد، بما يوفر فرص الحوار والتفاهم والتفاعل البناء لصالحهما .

---

[1] . المرجع السابق . ص 82 .

[2] . دانييل هنري باجو . الأدب العام المقارن . ص 107، 108 .

– ثانيا : كتّاب الصورة :

والواضح أن الأمر يتعلق لا بثلاث وضعيات تفصل بينها حدود واضحة، بل ثلاثة أصناف من المواقف يضم كل صنف منها اتجاهات متعددة تتلون في الغالب بلون الإيديولوجيات السائدة، وهكذا نجد من بين الكتّاب من يحملون إيديولوجيات ذات مضامين ليبرالية وآخرين يلتزمون بتبليغ رسالة فكرية مفعمة بالقيم الإنسانية ونجد في جانب آخر صنفا على قلّته يمدح الأجنبي ويستهتر بمقوماته الحضارية الغربية، ممن رافق الجيش الفرنسي في احتلاله الجزائر وما خلّدوه من تسجيلات تاريخية واجتماعية وبيئية تمكنوا من العثور عليها هنا، كلّ حسب مهمته وذلك عن طريق الجواسيس والتجار والمبشرين والفنانين والمؤرخين والبحارة والأثرياء والمعمرين والمغامرين والرّحالة والدبلوماسيين والبعثات العلمية ... بحثا عن الذات في فترة اتسمت بالجمود مما استدعى بعثها من جديد في فضاء الجزائر الشرقية ؛ " فكانت الصحف توالي نشر أخبار الجزائر وأوصافها، وكانت الحكومة الفرنسية تشجّع الفنانين والأدباء على زيارة الجزائر والكتابة عنها ليعرف العام الفرنسي والأوروبي عنها، وهكذا جاء دو لاكروا، وفيرنيه، وفرومنتان، وثيوفيل، وغوتييه، وألفونس أوديه، والأخوان غونكور، والاسكندر دوماس، وشاصيرو، وآخرون " [1] من أمثال غوستاف فلوبير، وأندري جيد ... وممن تليهم من أمثال إتيان ديني وموبسان جيي وإيزابيل أيبرهارد وسيناك جون وممن سار على دربهم .

إن هؤلاء الفنانين والأدباء وغيرهم قد عرفوا حبّ المغامرة من ركبوهم البحر، وهذا ما كشفه أحد الكتّاب الفرنسيين بقوله : " إن الرحلات تشكل أكثر المدارس تثقيفا للإنسان " [2] ؛ فدولتهم تملك الأساطيل القوية التي مكنتها من فرض السيطرة على البحر وغزو اليابسة، وصادف أنها عرفت الرومانتكية التي ظهرت في انجلترا وألمانيا أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، فكان لتيارها الأثر الكبير في حياة

---

[1] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي. 1830 – 1954. ج 8 . دار البصائر الجزائر . ص 376 .

[2] . د. حسين محمد فهيم . أدب الرحلات سلسلة عالم المعرفة . تحت الرقم 138 الكويت، يونيو 1989. ص 17 .

الفرنسيين في زمن الاستخفاف بالقيم والأخلاق والتحوّل الاجتماعي والسياسي والفكري، الذي أدى إلى الإقرار بمبدأ « الحرية العامة »، " وكان الرومانتكيون يبحثون عن المجهول وعن البدائية وعن كل ما هو غريب هروبا من المجتمع الواقعي – الكلاسيكي الذي رأوا فيه الجحيم بعينه ." [1] من هنا وجد رجال الفن والأدب الفرنسيون عالما مفعما بالجمال مخالفا لبيئتهم المليئة بالتناقضات والأزمات الطاحنة، إنّه مبعث تجانس الروح مع الطبيعة والحياة، وفرصة الإبداع في أرض الجزائر خاصة والمشرق عامة .

ولا يخفى عن الدّارس أن بوادر الاستشراق قد ظهرت على يد علماء الدين المسيحيين في أوروبا لمعرفة تفاصيل أرض وموطن السيّد المسيح عليه السلام، فقد شغف الكثير منهم بقصص الشرق وأساطيره ؛ وعلى مرّ الأيام تحوّل الاستشراق إلى هدف استعماري، فنتج عن ذلك ظهور دراسات علمية حديثة وأبحاث وأقوال مختلفة جعلت من الشرقي وبيئته صورة لإنسان بدائي على خلاف ما وصل إليه الغربي إلى حدّ القرن التاسع عشر من حضارة مزدهرة، معتزا بثقافته وتاريخه ودينه وذاتيته الرافضة لكل نقيض لرغبته المفعمة بالمدّ الاستعماري والساعية إلى التوسع والاستيلاء إلى ما وراء حدود أوروبا خاصة العالم الإسلامي في مشرقه ومغربه العربيين، والذي خضع لمطامع فرنسا وبريطانيا بالرغم من تصادم مصالحهما، ومع ذلك ترجم الفرنسيون جلّ ما دوّنته دول أوروبا وأمريكا عن الجزائر، واستثمروا جهودهم الخاصة، مثلما قام به سيلفستر دي ساسي" Silvester de Sacy " (1757 - 1838) مع حكومته الفرنسية، حيث ترجم البيانات التي نشرت عند احتلال الجزائر وقبلها عند احتلال مصر من قَبل حملة نابليون (1797)، " فبعد الاحتلال شجع دي ساسي – المعروف في أوروبا بأبي الاستشراق – إنشاء الدراسات العربية في الجزائر بإشراف تلاميذه – بالرغم أنه لم يزرها – " [2] ؛ فكانت الحملة الفرنسية الممثلة في المكاتب العربية والمهتمين بالترجمة وفن الرّسم والكتابة والرحلة تشق طريقها الاستشراقي إلى التعريف

---

[1] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 8 . ص 374 .

[2] . المرجع نفسه . ج 6 . ص 10 .

بالجزائر الفرنسية خاصة ومن خلالها بالمشرق عامة ؛ حيث سعت الإدارة العسكرية إلى " التعريف بالشعب المحتل في مختلف عصوره ومظاهره " [1] ؛ وباقتراح من دي ساسي قبل وفاته، تقلّد لويس جاك برينييه منصب رئيس حلقة اللغة العربية في الجزائر الذي " ... تخرج على يده عشرات المترجمين والباحثين وسعى إلى ربط الصلة مع الأهالي* لكي يتعودوا على اعتبار الفرنسيين غير غزاة ولكن حماة لمصالحهم " [2] .

وفي قسنطينة (1853) تولى شيربونو حلقة مماثلة لحلقة برينييه، وكان من انشغالاته بعد درس التعليم البحث عن الآثار ودراسة المعتقدات والأخلاق والعادات في الشمال الإفريقي " فقد اهتم بتاريخ الجزائر العربية الإسلامية من مختلف الوجوه، ولا سيما الآثار والتاريخ والتراجم واللغة " [3] وفي وهران برز المستشرق كومبريل هوداس " وكان مهتما بإخراج الكتب الموجهة بالتعليم المدرسي " [4] وترجمة التراث الأدبي لمنطقة المغرب العربي ؛ كما فسحت فرنسا المجال لاستقطاب أبناء الجزائر لتعلّمهم في مدارسها سعيا منها إلى توظيفهم في الجزائر لنشر أفكارها وتمهيد الطريق إلى سياسة إدماج الجزائر بفرنسا بعد انهزام الأمير عبد القادر وقيام الثورة الفرنسية الثالثة (1848) .

وقد اتّسم الاستشراق الفرنسي باحتلال الجزائر على حدّ رأي الدكتور أبي القاسم سعد الله بمرحلتين (1830 – 1880) و(1880 – 1930)، قرن كامل كان فيه الاهتمام بالجزائر قلبا وقالبا " فمن البديهي أن يهتم المستشرقون الفرنسيون بالشعب المستعمَر دينا ولغة وعادات وآثارا وتاريخا، كما أنّه من البديهي أن يتطور هذا الاهتمام حسب حاجة

---

[1] . المرجع السابق : ص 12 .

* الأهالي (م . أهلي) : هو الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على المسلمين الجزائريين إشعارا لهم بأنهم دون الفرنسيين (والأوروبيين عموما)، هم المسلمون الجزائريون الذين فضلوا البقاء على حكم الشريعة الإسلامية بدل الدخول تحت طائلة القوانين الفرنسية .[ينظر : د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي .ج10. دار البصائر الجزائر . ص 08، 09]

[2] . المرجع نفسه. ص 19 .

[3] . المرجع نفسه. ص 22 .

[4] . المرجع نفسه. ص 24 .

الإدارة الاستعمارية وحاجة الدولة الفرنسية نفسها في العالم " [1] لتصل إليها التقارير الاستكشافية " في أعمال الفنانين الفرنسيين الذين حلّوا بالجزائر بصفة فردية أو على نفقة الحكومة الفرنسية " [2] فكانت الصورة تلتقط عن حياة الجزائر الشرقية مهما كانت قيمتها فيما يخص الإنسان ماضيا وحاضرا وبيئته الفطرية الخلابة .

وفي مجال البحث العلمي تأسست في فرنسا سنة (1837) « لجنة اكتشاف الجزائر العلمي » تحت رئاسة العقيد بوري دي سان فانسان، والتي باشرت عملها في الجزائر (1840) وذلك بجمع المعلومات والبحث في عالم الجيولوجيا والنبات والآثار والجغرافية والهندسة المعمارية والرسم ونحو ذلك، والتي كانت في العموم العدة الأساسية لكل باحث وفنان، والمنهج الحديث للتعريف بالآخر الأجنبي ؛ وبين هذا وذاك طغت النزعة الصليبية المعادية للعرب والإسلام وتظاهر رجال المسيحية أمام سكان الجزائر في التّل والصحراء بتقديم المعونة والعلاج والإحسان إليهم ماديا ومعنويا قصد تنصيرهم " وكانت الدعاية الفرنسية تعمل بطريق جريدة « المبشر » وغيرها على جلب الأطفال العرب للمدارس الفرنسية – العربية مطمئنة الأهالي بأنّه لا خوف على أولادهم من التنصير " [3] وأن الاحتلال « نعمة » وتحضر، وأنّه ما لم يؤخذ من الأهالي طوعا حتما ستعمد الأجهزة العسكرية إلى أخذه بالقوة وذلك عن طريق الإقصاء والتصفية الجسدية إن كان محايدا أو معارضا، فلا أحد في اعتقادهم يجرؤ إلى الوقوف في وجه فرنسا وطموحها الجامح أو العبث بمصالحها في أرض الجزائر التي أصبحت ملكا مشاعا لها ؛ وبصرف النظر عن أعمال الإدارة العسكرية وجد الأدباء والفنانون والمؤرخون الفرنسيون فسحة للتّعبير عن موضوع الجزائر " ولكن من وجهة نظر الغالب عن المغلوب والمنتقم عن خصمه " [4] فبرز ايميل ماسكري الذي يماثل فرومنتان في طريقة الكتابة بحسب رأي الطبقة المثقفة في فرنسا ومما ألفه عن الجزائر كتابه

---

[1] . المرجع السابق . ص 41 .

[2] . المرجع نفسه. ص 50 .

[3] . المرجع نفسه. ص 120 .

[4] . المرجع نفسه. ص 380 .

« ذكريات ورؤى إفريقية » والذي تناول فيه مظاهر الحياة في مناطق " الأغواط، والقصبة، والجلفة، وعين ماضي، وسوف، والصحراء عموما " [1] مسجلا فيه انطباعاته عن الإنسان الجزائري في البدو والحضر وغلظته وتجانسه مع الطبيعة ليتحول هذا الإعجاب إلى معاداة له لعدم مسايرته حضارة الإنسان الأوروبي المتطور ؛ وعن الشعراء يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله : " من الشعراء المعاصرين للحملة الفرنسية نذكر فيكتور هيجو ولامارتين وفينيه، وقد ظلوا صامتين عن أعمال الجيش في الجزائر والاستعمار ؛ لأن فظائع الحملة كانت غير معروفة كثيرا للرأي العام الفرنسي " [2] وعلى الجملة فإن الأدباء والمؤرخين ساروا على خطى ما حققته الحملة الفرنسية في الجزائر وفي دكّها حصون الأتراك وفتح أبواب الأسوار عن مدن سواحل شمال إفريقيا والحديث عن نشوة الانتصار في وسائل الإعلام التي كثفت جهدها في تعبئة الرأي العام الفرنسي بالمعرفة والأخبار عن أوضاع الجزائر، وما تمّ إحرازه من تقدم في محاصرة المقاومة وإخماد نارها كالقضاء على زمالة * الأمير (**1843**) ؛ لاجتياز محنة خيبة الأمل في ظل الصراعات الداخلية في فرنسا على السّلطة وأزمة انكسار هيبتها أمام دول أوروبا ؛ فالواضح أن الجزائر كانت بمثابة معدن خام استخلِص في ألواح أدبية وفنية وتاريخية وعلمية ؛ و" أمّا الشعب الجزائري فقد كان غائبا في الكتابات الفرنسية، فهو موضوع ولكنه غير مخاطب بأيّ خطاب فكان الحديث عنه وليس له " [3] .

---

[1] . المرجع السابق . ص 383 .

[2] . المرجع نفسه. ص 384 .

* الزمالة : قبيلة ضمت مجموعة خيام متنقلة تمثل عاصمة الأمير في الغرب الجزائري .

[3] . المرجع نفسه. ص 387 .

وممن تجاوب مع الجزائر وأهلها الكاتبة إيزابيل أيبرهارد "Isabelle Iberharde" (1878 – 1904) التي " اعتنقت الإسلام في ظل الزاوية القادرية * "[1] بواد سوف ؛ ونظرا لتشبهها بالرجال في اللباس وركوب الخيل والسباحة واللهو والصيد وحضور الولائم والسفر في أرجاء الصحراء والتنقل بين الزوايا ... مما لا يوافق العرف السائد في هذه البيئة المحافظة ؛ تلقّت هذه المرأة ضربة سيف على رأسها كادت تقتلها من شخص استنكر تصرفاتها الطائشة بدعوى إهانتها الإسلام " وقد عولجت إيزابيل في المستشفى العسكري بالوادي حوالي شهر ونقل المعتدي إلى قسنطينة وحوكم أمام المجلس الحربي المنصوب دائما للجزائريين وحضرت إيزابيل المحكمة " [2] " ومع ذلك دافعت عنه في 18 جوان 1901 تفاديا لإثارة المشاكل، ومع ذلك فقد حكمت عليه المحكمة بالأشغال الشاقة وحكمت على إيزابيل بالنفي كشخص أجنبي " [3] وقد كانت ممن يكتبن بالفرنسية مبدية إعجابها واحترامها للجزائر والإسلام .**

لقد زارت إيزابيل الوادي واستقرت فيه في بداية القرن العشرين " وأخبرت أن أهل الوادي – أو بلاد الكثبان الرملية والنخيل الظليل كما تسميه – كلهم من العرب " [4] فكتبت عن أصلهم وعن القبائل التي تفد إلى أسواقهم من أعماق الصحراء وإفريقيا ؛ وجميع ما ألفته من رسائل ومقالات عن الإسلام

---

* تنتسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني من كبار الزهاد والمتصوفين في بغداد ... انتشرت طريقته القادرية ببلاد المغرب العربي ؛ ويعد أول من أسس فرعها في الجزائر الشيخ مصطفى بن محمد المختار الغريسي (1200 هـ - 1785 م) ولها زوايا وأضرحة وقباب ومساجد في شرق الجزائر وجنوبها – وكان للزاوية دور بارز في عهد المقاومة الشعبية الأولى في التشجيع على الجهاد ومقاومة الاستعمار – . (ينظر: د. إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر . ص 89)

[1] . د. إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر 1830 - 1962 . دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر 2007 . ص 101 .

** المعتدي من أتباع التيجانية المنافسة للقادرية يدعى عبد الله بن محمد بن الأخضر (ينظر : د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 6 . ص 389)

[2] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 6 . ص 389 .

[3] . د. إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر . ص 101 .

[4] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 6 . ص 390 .

نشرته إتباعا في جريدة « الأخبار الفرنسية » ليطلع عليها عامة المثقفين في فرنسا الذين أعجبوا بجرأتها في المغامرة وفي قيمة المواضيع المقدمة عن المنطقة الشرقية من صحراء الجزائر وأهلها والطرق الصوفية بها .

واللافت للانتباه أن شخصية إيزابيل ظلت غامضة ومحل ترقب واستخبار عن تحركاتها من الإدارة الفرنسية ودوائرها الاستعمارية بالجزائر " غير أن قلمها وأدبها لا غبار عليهما وأثر الجزائر فيها لا يختلف فيه اثنان، سيما الأجواء الدينية والاجتماعية في الواحات وظاهرة الاضطهاد تحت النير الفرنسي " [1] .

وممن تأثر بحياة الجزائر، الفرنسي ألفونس إتيان ديني (1861 – 1929) أو ناصر الدين ديني كما سمى نفسه بعد اعتناقه الدين الإسلامي (1913) ؛ فنان ومصوّر ورسام تشكيلي زار الجزائر (1883) وتعرف على منطقة بوسعادة * وواحاتها فسحرته الطبيعة الصحراوية في هذه المنطقة وطيبة أهلها، فمنحها معظم إبداعه رسما وتأليفا، لتصل عدد لوحاته إلى " حوالي مئة وخمسين لوحة . وقد لخص باحث فرنسي إنجازات ناصر الدين ديني فقال إنها تعمّقت في الحياة بتصوير الكثبان الرملية والجبال والنخيل والأطفال والرجال والنساء، والفوارس والراقصات، والفتيات الجميلات، والرجال وهم في حالة الصلاة، كما صور حالة اقتراب الموت ونبض الحياة في الواحات، ولا سيما بوسعادة " [2] وتجدر الإشارة إلى أن بعض لوحاته التي وقّعها باسمه الأصلي " كانت بذيئة جدا من حيث الذوق العام، رغم أنها كانت ترضي الذوق الفرنسي ولا تجرح الذوق الأوروبي، سيما (الرّقصة النائلية)، وكان ديني مثل الفنانين الفرنسيين الآخرين قد تبنوا الموضوعات الاستعمارية ومنها إظهار الإنسان الأهلي في صورة البدائي المتخلف، أو الوحشية الفطرية، كما سماها بعضهم، ولا ندري إن

---

[1] . المرجع السابق . ص 390 .

* مدينة واقعة في الجنوب الشرقي من الجزائر (حاليا تمثل دائرة من ولاية المسيلة تبعد عنها حوالي 68 كلم جنوبا)

[2] . المرجع نفسه . ج 8 . ص 418 .

كان ديني قد بقي على رأيه في مثل هذه الصور حتى بعد اعتناقه الإسلام، واقترابه من المشاعر العربية " [1] .

والمؤكد قبل وفاة ناصر الدين ديني أنه دافع عن الإسلام وحضارته بشهادة معاصريه* المسلمين الجزائريين، إذ أنّه استنكر نظرة الغرب إلى العرب التي تصوّر الشرق على أنّه واحة للتخلف، فاعتبروا ذلك منه انتصارا لهم ودفاعا عن الدين، وربما كان اهتمامه بالحياة العربية بخلاف تكوينه الشخصي مما قرّبه إلى نفوسهم مجردا من ذاتيته وعصبيته لقومه بعد أن حسُن إسلامه، وفوق ذلك كلّه أوصى بدفنه في بوسعادة بين قبور المسلمين وفي الأرض التي افتتن بطبيعتها يافعا ومسنا .

ومن أولئك الذين تأثروا بحياة الجزائر مع بداية الاحتلال، الفنان الرومانسي أوجين دو لاكروا الذي مكث بين ثلاثة إلى عشرة أيام بالجزائر " وادّعى أنه رأى حريما أو دارا من الداخل المحرم على أمثاله " [2] فاشتهر برسم مشهد فنّي خالد عنوانه « نساء الجزائر »، وعدّها الفن الفرنسي رائعة ووثيقة مطابقة لواقع الطبيعة والحياة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي .

" ولكن المرأة الجزائرية الحقيقية كانت كالمرجانة الصافية " [3] معززة مكرمة في بيتها، وما التقاط الصورة لها إلا حالة استثنائية من قبيل الصدفة التاريخية ؛ " هذا رائع إنهن كما في عصر هوميروس، إني أفضل صورة المرأة هذه على كل ما عداها " [4] حيث أرضى بها الفنان فضوله وإصراره في البحث وأدخلته خلسة إلى هذا الحصن المكين بحسب زعمه مظهرا أسراره ومحاسنه وطبيعته وعطوره، مفسحا المجال أمام من هم في فلك تخصصه إلى الاستفادة من تجربته الفريدة .

---

[1] . المرجع السابق . ص 417 .

* من بينهم صديقه الحاج سليمان بن إبراهيم وأحمد توفيق المدني

[2] . المرجع نفسه . ص 378 .

[3] . المرجع نفسه . ج 6 . ص 356 .

[4] . Delacroix E. Voyage au Maroc 1832 . Paris 1930 . p 24 .

ومن الفنانين الذين زاروا الجزائر وتتلمذوا على يد دو لاكروا وتأثروا بأعماله في كتاباتهم أوجين فرومنتان " سأذهب لرؤية ما إذا كانت شقة « حوّة » تشبه الصورة الرائعة لــ : دو لاكروا (نساء الجزائر) "[1]، ثم يضيف " وصولا أمام غرفة سيّدتها أدارت الخادمة السوداء رأسها إلى النصف من جانبي وعملت بالضبط الإشارة التي كانت بإمكانك رؤيتها في صورة دو لاكروا من أجل إزاحة الستار المتورّد " [2] . فهنا يلاحظ أن فرومنتان منبهر بهذا المشهد الفطري الشبيه بلوحة « نساء الجزائر » كما كان مهووسا إلى درجة الإفراط في ذكر طبيعة الجزائر وامتزاجه معها، تكريسا لثنائية الأنا والطبيعة خدمة للفن الذي ينشده ورغبة منه إلى ترشيد مجتمعه إلى القيم الجمالية الموجودة هنا والتي تفتقر إليها بلاده، إلا أنّه لم ينصف الإنسان، فعدّ ممن هم في وضع الرّهاب، ذلك أنه أقصى الآخر وبحث عن موته الرمزي، فلا وجود إلا لإفريقيا فرنسية " فالجزائر كانت عنده مجرد موضوع جميل، ريفها وصحراؤها وسماؤها ولذلك فهي موضوع للامتلاك والاستقلال وإذن فهي عنده فريسة يجب قنصها، وقطعة من الشرق يجب فرنستها . " [3]

لقد عرف فرومنتان الناس والظرف معا، فشكّلهما صورا فردية وجماعية ومكانية وحوارية ولونية، فكان بذلك دقيق الملاحظة في كتابه :« سنة في السّهل » مميزا مجتمعا عن مجتمع بمختلف أنماط سلوكاته وأوصافه وعلاقاته، فمن يكون هذا الكاتب ؟ وما طريقة تفكيره والعيش في الحياة ؟ وما العوامل النفسية والبيئية والاجتماعية والخلقية والثقافية والإيديولوجية التي كونت شخصيته ؟ وما هي الصورة والأحداث التي نقلها عن الجزائر ؟ وهل هي واقعية أم خيالية ؟ وما قيمة كتاباته بين الكتب الأُخَر ؟

---

[1] . Eugène Fromentin . Une année dans le Sahel . Michel Lévy Frères, Libraires - Editeurs . Paris 1859 . P 175 .

[2] . Ibid : P 177 .

[3] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 8 . ص 381 .

الفصل الأول

الكاتب وأعمالـــه

1- أوجين فرومنتان الروائي

1 - 1 عصره :

أ) فرنسا في عصر فرومنتان

ب) الجزائر في عصر فرومنتان

1 - 2 حياتـــه .

1 - 3 رحلاته إلى الجزائر .

2 - فرومنتان الرّسام .

3 - العمل المدروس « Une année dans le Sahel »

أ) نظرة وجيزة في كتاب فرومنتان : « صيف في الصّحراء »

ب) تلخيص وتعليق لكتاب فرومنتان « سنة في السهل »

ج) وجهة نظر في عنوان الكتاب .

د) تأثر فرومنتان بكتابات القنصل والتر شالير .

1- أوجين فرومنتان الرّوائي

1 - 1 عصـــره :

أ) فرنسا في عصر فرومنتان :

في خضم أحداث الثورة الفرنسية من عام 1789، تاقت نفوس الفرنسيين في ظل « مبادئ حقوق الإنسان » إلى مناشدة حكومتهم بمبدأين، المساواة في الحقوق والمطالبة بسيادة الشعب، فتحقق لهم الأخذ بالنظام الديمقراطي والجمهوري، " ويكون بذلك الساسة الفرنسيون قد امتثلوا لمطالب الطبقة الوسطى ؛ وبإلغاء شرط الملكية من دستور الثورة قامت الجمهورية الأولى في تاريخ فرنسا إلى 1799 "[1] ؛ وفي هذه المرحلة تمّ تعديل الدستور للمرّة الثالثة لتهيئة التوازن بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، إلا أنّ الصدام وقع بينهما مما أدى إلى وقوع فرنسا تحت سلطان حكمٍ عسكري خاض معارك عديدة مع دول أوروبا المجاورة لحدود فرنسا وعلى رأسها إنجلترا المتفوقة عليها بحريا، ولسوء العلاقة بينهما " سارعت فرنسا إلى تكليف نابليون بونابرت بقيادة الحملة الفرنسية على مصر لقطع طريق الهند أمام انجلترا، ومن جهة أخرى إبعاده عن مسرح الأحداث السياسة نظرا لرغبته في الحكم وللسّمعة التي يتمتع بها في عين الجيش والشعب "[2] ؛ وعندما فشل نابليون في تحقيقه مشروع إنشاء « إمبراطورية شرقية » عاد إلى فرنسا في أكتوبر 1799 مدركا رفض حكومة بلاده مشاركتها، " إلاّ أن الشعب الفرنسي طالب به للخروج من أزمته الحادة، ممهدا أمامه السبيل فأصبح بونابرت الحاكم الفعلي لفرنسا (1799 – 1804) "[3]، في هذه المرحلة سعى الحاكم الجديد إلى توفير الاستقرار ؛ ولما نجح في جمع سلطان فرنسا بين يديه، بدأ زحفه في تصفية الحساب مع الانجليز، وانبرى إلى إقامة معاهدات اتفاق وصلح ولو مؤقتة مع كل من النمسا

---

[1] . د. زينب عصمت راشد . تاريخ أوروبا الحديث في القرن التاسع عشر . دار الفكر العربي . القاهرة . ص 43، 44 .

[2] . المرجع نفسه . ص 163 .

[3] . المرجع نفسه . ص 175 .

وشمال إيطاليا وروسيا وإسبانيا، ليشق طريقه إلى بناء إمبراطوريته الأولى في أوروبا (1804 – 1814) ؛ إلا أن ذلك جنى عليه أعباء ثقيلة زعزعت مكانته داخليا وكلفته فقد جيشه في حربه مع روسيا، " الذي أنهكه الجوع والبرد والموت وتسبّب في نفي بونابرت إلى جزيرة « إلبا Elba » "[1] ؛ فأملى التحالف الأوروبي على فرنسا في مؤتمر فيينا (1815) إقامة معاهدات تسوية اقترنت باقتطاع أملاك كثيرة من فرنسا والتي رأت فيها قضاء على عزّة قوميتها ؛ وفي هذه الأثناء عادت أسرة البوربون إلى عرش فرنسا ولم يكن مرحبا بها من قبل الفرنسيين، فحكم لويس الثامن عشر بين (1814 – 1824) وبادر إلى وضع الميثاق في عهده لاجتناب البلاد جو الكراهية والبغضاء بسبب التنافس الشديد بين حزب الملكيين المتطرفين الذين رأوا من حقهم امتلاك زمام السلطة، وحزب الأحرار المتطرفين الرافضين الاعتراف بملكية لويس الثامن عشر الذي أمل إرجاع فرنسا إلى ما كانت عليه في العهد القديم، وتفويض رجال الدّين بالإشراف على التعليم والثقافة وفرض الرّقابة على الصّحافة، " وفي آخر أيام حكمه توترت أوضاع البلاد مما فسح الطّريق أمام شارل العاشر قيادة البلاد (1824 – 1830) "[2]، وكان حكمه على نهج أخيه لويس، مما أصبحت نفوس الفرنسيين تنتظر ثورة تقتضيها الأحوال المضطربة في البلاد، فسارعت الحكومة تكثيف جهدها إلى السياسة الخارجية، فأعادت غزو الضفة اليسرى لنهر « الرّاين » وأعدّت حملة بعثت بها إلى الجزائر قصد تحويل أنظار الشعب وأفكاره إلى الأعمال الحربية ؛ ومع ذلك وقعت ثورة يوليو 1830 داخل فرنسا فسقطت أسرة البوربون عن العرش، وحلّ محلّها في الحكم أعضاء من الشيوخ، سبق وأن عينهم الملك وأعضاء من مجلس تشريعي منتخب من قبل قلة من المواطنين، وتمّ الإعلان على أن يعتلي عرش فرنسا لويس فيليب دوق أورليان (1830 – 1848) بشرط أن يتعهد باحترام حقوق الشعب التي نصّ عليها الميثاق وخوّل نوابها الدّفاع عنها مما كرّس حكما ملكيا على أساس ديمقراطي سليم احتضنته أسرة

---

[1] . المرجع السابق . ص 225 .

[2] . المرجع نفسه . ص 266 .

الأورليان، مدعّم بالضمانات الدستورية التي احتوى عليها الميثاق، فبدت بذلك دعائم النظم الاجتماعية والسياسة بين الاضطراب والاستقرار قرابة ثمان عشرة سنة، ومردّ ذلك عجز لويس فليب في سياسته الخارجية في سبيل استرداد الكرامة لفرنسا مثلما كانت عليه من مجد في عهد نابليون، وفي مبالغته في عدم التدخل في الشأن الأوروبي والموقف من الدّولة العثمانية، لتصطدم مواقف الملك بتيارين سياسيين أحدهما استمد قوته من أنصار الحزب البونابرتي والثاني يستند إلى قوة الحزب الجمهوري الاشتراكي، " ونسجت الصّحافة خيوط طبقات الشعب المنادي بالإصلاح والحكم الجمهوري، وهكذا كانت الثورة في فبراير 1848 [1] بإعلان الحكم الجمهوري وانتخاب لويس بونابرت رئيسا للجمهورية والذي أصبح في ديسمبر 1851 إمبراطورا على فرنسا ودام بقاؤه على العرش إلى عام 1870 لتحل بعده الجمهورية الثالثة "[2] .

بحسب هذا القرن من تاريخ أوروبا فإن « الثورات الفرنسية » كان لها فضل إيقاظ العقول والقلوب للمطالبة بالحرية والانطلاق لبناء قواعد الحياة بمختلف أشكالها جلبا للمنفعة العامة .

" ولقد تميز القرن التاسع عشر في أوروبا عما سبقه من العصور، بالتقدم العلمي والاجتماعي الذي أخذ يجدّ على حياة الشعوب الأوروبية، ويمهد لهذه الصلات السياسية والعلمية والأدبية الواسعة ويخلق جوّا علميا أخذ العلماء يعكفون فيه على دراسة شتى الظواهر الاجتماعية والأدبية والعلمية ويردّونها إلى أسبابها ... والتي أخذت تنمو وتتطور وتقترب من شكلها العلمي الموثق تحت تأثير حركتين كانت لهما سيطرة كبيرة وآثار عميقة على حياة الأوروبيين الأدبية والعقلية في هذا العصر هما : الحركة الرومانسية والنهضة العلمية " [3] .

---

[1] . المرجع السابق . ص 297 .

[2] . المرجع نفسه . ص 304 .

[3] . د. إبراهيم عبد الرحمن محمد . النظرية والتطبيق في الأدب المقارن . دار العودة بيروت 1982 . ص 24 .

" إن القرن التاسع عشر في فرنسا يعتبر من القرون الأكثر ثراءً لا في مجال الأدب وحده بل في مجالات الفن والعلوم والفلسفة والصناعة والتجارة . وإذا كانت فرنسا خلال هذا القرن عرفت أكثر من سبعة أنظم سياسية مختلفة فإن كل تلك التقلبات السياسية قد انعكست أيضا على الأدب الذي كان دائما وما زال مرآة صادقة لما يمر به أي بلد من أحداث. إن المدارس الأدبية المختلفة التي توالى ظهورها خلال هذا القرن الحافل – وهي الرومانسية ثم الواقعية ثم الرمزية وإن كانت تبدو متعاقبة إلا أنها في الحقيقة أقرب منها إلى تيارات تتلاطم وتتداخل وتؤثر في بعضها البعض " [1] .

لقد عرف القرن الثامن عشر على أنه عصر الفلسفة والتنوير وفي منتصفه ظهرت بوادر الرومانسية والتي من روادها روسو الذي كان في منتهى الشاعرية في نثره المنظوم ومدام دي ستال التي نادت بتحرير الأدب من القيود الكلاسيكية والتوجه بالأدب إلى مصادر جديدة للوحي مثلما رأته في الأدب الألماني وعباقرته الكتّاب مثل جوتة وشيلر، كما عبّرت في إحدى رواياتها « كورين » عن سخط المرأة ضد القيود التي يفرضها عليها المجتمع وتبنت قضية تحرير الأدب .

أما الكاتب شاتوبريان فقد أحب الطبيعة والسفر والمغامرة وله كتاب رحلات بعنوان « الطريق من باريس إلى القدس » اصطحب فيه القرّاء إلى أماكن بديعة ومدن عريقة مستنطقا الطبيعة مؤديا رسالته اتجاه مجتمعه، فغدا في نظر النقاد والكتّاب رائد الرومانسية ووالدها الروحي فتأثر به فيكتور هيجو الذي جعله مثله الأعلى مما حفزه أن يكون على رأس الحركة الرومانسية الفرنسية ؛ والتي من خصائصها " الاندماج مع عناصر الطبيعة الموحشة، كما تعد الذاتية أو الفردية أهم خصائصها، فغالبا ما نجد الرومانسي دائرا في ذاته سواء أكان مطحونا تحت وطأة الحزن والكآبة والملل أم ثائرا عنيفا على ركود المجتمع، وهو في كلتا الحالتين إنسان غامض لا يثق بالمنهج العقلاني، يفضل الشعر على الفلسفة والعاطفة على

[1] . د. آمال فريد . الرومانسية في الأدب الفرنسي . دار المعارف . ص 04 .

المنطق، والمثالي على الواقعي والأمل على التلاؤم مع الواقع ؛ والطبيعة عند الرومانسي معبد يأوي إليه ليستجم عندما تقسو الحياة ..." [1]

وإذا كان الفن الرومانسي هو التّعبير الحقيقي عن الشعور الإنساني سواء بالكلمات أو الألوان أو الأنغام فما الذي جعل القرّاء ينصرفون عنها ؟

" كان التّقدم العلمي نفسه سببا من أسباب القضاء على الرومانتكية ذلك أن جمهور الكتّاب والنقاد أخذوا يعتقدون أن العلم سيحل كل مشاكل الإنسانية وأن مناهجه هي المناهج التي يجب أن يتبعها الأدب والنقد كي يسيرا في طريق مأمون ويصلا إلى نتائج سليمة (...) وبذلك ماتت الرومانتكية وقامت على أنقاضها « الواقعية » في القصة والمسرحية ثم « البرناسية » في الشّعر (...) وفي ذلك كلّه أثّر العلم في موضوعات الأدب وفي موضوعية النّقاد واتجاههم العلمي إلى الشرح والبحث عن أصول الأفكار . " [2]

" وقد دعت الفلسفة الوضعية التي أسسها « أوجست كونت » (1798 – 1873)، والفلسفة التجريبية بفضل « جون ستيوارت ميل » (1806 – 1873) إلى خروج الإنسان من حدود ذاته طلبا للمعرفة الصحيحة وأن العلم هو الذي يقود إلى هذه المعرفة لا القلب . " [3]

وموجز قضايا الفلسفة الوضعية (علم الاجتماع) والفلسفة التجريبية، " أن الوضعية ترضى بما هو قائم في واقع المجتمع وتحاول تنظيمه على أساس من الإدراك المنظم للعقل الباحث، أي بواسطة العلم ؛ بينما التجريبية تُخضع دراسة الظاهرة الاجتماعية للمنهج الإحصائي التحليلي الواقعي وتطبيق الاستقصاء والاستقراء " [4] وعلى هذا الأساس فإن علم

---

[1] . د. نسيب نشاوي . المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1984 . ص 158، 159 .

[2] . د. محمد غنيمي هلال . الأدب المقارن . دار العودة بيروت 1983 . ص 51 .

[3] . المرجع نفسه ص : 388 .

[4] . أ.د علي غربي . علم الاجتماع وثنائيات النظرية التقليدية – المحدثة . قسنطينة – الجزائر 2007 . ص 40 .

الاجتماع هو علم دراسة الإنسان والمجتمع دراسة علمية تعتمد على المنهج العلمي وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث ومرورا بأوجيست الذي يعد مؤسس السوسيولوجية ليشير بها إلى الدراسة العلمية للمجتمع " وقد كان لهذه الفلسفة أثر بالغ على العصر حيث تحدد بها إدراك النقاد للإنسان، فرأوا أن كل امرئ معاصر هو نتيجة تكوين له في مختلف العصور . وكثرت الكتب التي تبحث في أصول الأشياء والنظم الاجتماعية والأديان، متجهة إلى تفسير كل الظواهر تفسيرا علميا ماديا . " [1] وهذا ما يندرج في صميم بحثنا ؛ " وهو ما استفاده نقاد الأدب من علم الاجتماع في فهم طبيعة المجتمع والتغيرات الحاصلة فيه ومن علم الإنسان (الأنثروبولوجية) . في دراسة المجتمعات البدائية والسلوك الاجتماعي والطقوس الشعبية الموروثة والأساطير والمعتقدات ... " [2]، وقد شجّع هذا المناخ الإيجابي كثيرا من الأدباء والمثقفين على القيام برحلات داخل أوروبا وخارجها كما نشطت حركة الترجمة وأدّت الصحافة دورها في تعبئة النفوس وإيقاظ الضمائر في ترشيد المجتمع إلى سلوك الحكّام وفي الترويج للفكر الاستعماري ونشر مفاهيم القوة والتفوق السياسي والعلمي والأدبي ؛ وإلى جانب الرحلات واستكشافاتها الجغرافية والبحث عن الأسواق وتصريف التجارة والإنتاج الصناعي قامت أوروبا بإعداد وتنفيذ سياسة استعمارية تنافسية استهدفت أصقاع العالم الإستراتيجية " فمن 1815 إلى 1914 اتسع مجال السيطرة الأوروبية الاستعمارية المباشرة من حوالي 35 % من سطح الأرض إلى حوالي 85 % منه." [3]

كما اتجه الأوروبيون إلى دراسة الشرق وإقامة مؤسسة ضخمة لذلك هي مؤسسة الاستشراق " والتي تجلّت أعمالها في التدريس الجامعي وجمع المخطوطات وفهرستها وفي التحقيق والنشر والترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية والتأليف في شتى مجلات الدراسات العربية والإسلامية " [4] وإذا كان مفهوم الاستشراق هو الدّراسة الغربية المتعلقة بالشرق

---

[1] . د. محمد غنيمي هلال . الأدب المقارن . ص 52 .

[2] . أحمد حيدوش . الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1990 . ص 10 .

[3] . إدوارد سعيد . الاستشراق : المعرفة، السلطة، الإنشاء . ترجمة كما أبوديب . مؤسسة الأبحاث العربية 2001 . ص 72 .

[4] . د. محمود حمدي زقزوق . الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري . دار المعارف القاهرة 1997 . ص 73 .

الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام فإن له أهدافا معينة لعل من أبرزها الهدف الدّيني، ففي الانتشار السريع للإسلام في المشرق والمغرب وأجزاء كبيرة من إفريقيا وأوروبا قد لفت بقوة أنظار رجالات اللاّهوت المسيحي إلى هذا الدّين . وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن الاستشراق قد حرر نفسه من إسار الخلفية الدينية التي اشتق منها أصلا إلا بدرجة ضئيلة " [1]، وهكذا اتجه الاستشراق المتعاون مع الاستعمار إلى إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين وتشكيكهم في معتقداتهم وتراثهم، حتى يتمّ للاستعمار في النهاية إخضاعهم إخضاعًا تامًا للحضارة والثقافة الغربية . ومن هذا المنظور كان اتصال الغرب بالشرق * منذ حملة نابليون على مصر (1798 – 1801) فعكف علماء الغرب بالبحث في التراث الشّرقي ودراسته نفسيا واجتماعيا والتّعريف به في أوروبا مما فسح المجال إلى حملات التبشير بالدّيانة المسيحية مجددا، ومهما كانت أهداف الاستشراق الدينية والعلمية والاقتصادية والتجارية والسياسية والثقافية ** " فإن علوما كثيرة نمت حوله وتطورت مثل علم الأصول العرقية والتشريح المقارن وفقه اللغة والتاريخ إضافة إلى ما أنتجه الروائيون والشعراء والمترجمون والرّحالة " [2] .

" فبحلول عام 1850 أصبح لكل جامعة رئيسية في أوروبا منهج متكامل في أحد فروع الدراسات الشرقية، وذلك للدعم المادي لرحلات الاستشراق . " [3]

فبعد هذه النظرة العامة عن الوضع الداخلي في فرنسا، فقد أعدّت حملتها بغض النظر عن أزمتها السياسية التي تخبطت فيها منذ 1789 إلى غاية اعتلاء الملك شارل العاشر عرش فرنسا إلى غزو الجزائر " لمحاربة الأتراك وحماية الأهالي ومعاملة الجزائريين بنفس المعاملة التي

---

[1] . إدوارد سعيد . الاستشراق . ص 265 .

* حصل أول لقاء بين الأوروبيين والمسلمين في الحروب الصليبية التي وقعت في بلاد الشام كما احتكوا بهم مرة ثانية في بلاد الأندلس .

** التنفير من الدين الإسلامي والاستحواذ على منجزات حضارته ؛ والحاجة إلى الثروات الطبيعية والبحث عن الأسواق التجارية ؛ والسّعي إلى التوسع والاكتشاف الجغرافي، ونشر الثقافة الغربية انطلاقا من نظرة استعلائية .

[2] . المرجع نفسه . ص 70، 71 .

[3] . المرجع نفسه . ص 203 .

عاملوا بها المصريين " [1] ومن مبررات الغزو هو استرجاع شرف الأمة الفرنسية الذي أهانه الجزائريون بحادثة المروحة المشهورة، غير أن الحقيقة تجلت على لسان " الملك شارل العاشر نفسه وهو يعدّ العدة لغزو الجزائر معبرا عن نوازعه الصليبية حين قال في خطاب له بمناسبة ذكرى اعتلائه العرش : « إن العمل الذي سأقوم به ترضية للشرف الفرنسي، سيكون، بإعانة العلي القدير، لفائدة المسيحية كلّها » " [2]، وقد أضاف على لسان رئيس وزرائه " بأن احتلال الجزائر في حدّ ذاته يجب أن يباركه كل المسيحيين وكل العالم المتحضر " [3] ؛ وبعد قتال وخسائر كبيرة، دخل الفرنسيون الجزائر في 05 جويلية 1830 " وقد أبيحت مدينة الجزائر إلى الجنود خلال أكثر من أربعة أيام، وقد سجل المؤرخون الفرنسيون أنفسهم بخجل انتهاك الحرمات والفظائع التي أصبحت هي قانون المدينة " [4] .

لقد تباينت مواقف الدول الأوروبية الكبرى* آنذاك بين مؤيد ومعارض للاحتلال الفرنسي للجزائر كما " كان هنالك معارضون كثيرون لهذه الحرب من الشعب الفرنسي ولكن الذين أيدوا الاستعمار كانوا أهل النخبة الذين كانوا واعين لعظمة فرنسا " [5] . وفي هذا الشأن يقول الدكتور أحمد منّور : " كان لابد للاستعمار من جهة أخرى وفي مرحلة معينة من مراحل الاحتلال من خلق إيديولوجية تبرر وجوده ويستند إليها في استمرار احتلاله للبلد، وكان العمل في هذا الاتجاه يمضي نحو اتجاهين متعاكسين، الاتجاه الأول هو نسج أساطير تكون بمثابة مبررات تسبغ على وجوده نوعا من الشرعية، ويعطي له الحق في إعمار الأرض، والاتجاه الثاني يتمثل في العمل على نفي وجود الآخر (المستعمَر) وطمس تاريخه وتشويهه عندما يكون طمسه غير ممكن، وقد اشترك في هذه المهمة مؤرخون وباحثون في

---

[1] . د. أبو القاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . دار الغرب الإسلامي . ج 1 . ص 265 .

[2] . د. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه . ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007 . ص 27 .

[3] . د. أبو القاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . ج 1 . ص 260 .

[4] . المرجع نفسه . ص 262 .

* الدّول المعارضة : بريطانيا . الدّول المؤيدة : اسبانيا، روسيا . الدول المحايدة : بروسيا (ألمانيا)، النمسا .

[5] . المرجع نفسه . ص 263 .

الآثار، ومستشرقون وعلماء اجتماع وعلماء أجناس ولغويون وأدباء، وبالطبع اشترك في هذه المهمة عسكريون ورجال دين " [1] ويضيف " وقد عرفت الجزائر أعدادا هائلة من ضباط الشؤون الأهلية والرّحالين والمبشرين الذين اختصوا في دراسة عادات وتقاليد وأنماط المعيشة لدى سكان البلد بمختلف مناطقهم، وكانت تلك الدراسات والتحقيقات والتقارير والتصنيفات والخرائط والفهارس تهدف في الأول إلى أغراض إستراتيجية آنية، وهي مراقبة العدو لتصفيته جسديا ثم صارت فيما بعد تهدف لأغراض سياسية وهي معرفة هذا العدو من الداخل من أجل تحطيمه اقتصاديا وثقافيا . وقد قام بجزء من هذه المهمة المستشرقون وعلماء الأناسة، وحاولوا أن يقنعوا الأهالي المغلوبين على أمرهم بأن المستقبل مع المستعمِر وأنه لا مستقبل لهم بدونه . " [2]

وقد كان التقدم التقني والتجاري للفرنسيين قد أدى إلى التقدم في ميادين أخرى كالآداب والفنون والفلسفة، والتوسع البحري مما أدى إلى نمو الحس القومي، في حين أن " المجتمع الجزائري كان شبيها جدا بمجتمع جنوب أوروبا باستثناء فرنسا ربما . فقد كان هنالك الأرستقراطيون في القمّة والفلاحون في الحضيض وبين القمة والحضيض هنالك قلّة في الوسط، ولكن تأثيرها ضعيف أو لا يكاد يذكر، فتأثير الدين كان أقوي بكثير من أيّ تأثير آخر . فمجتمع الجزائر كان على غرار مجتمع فرنسا في العهد القديم، دون أفكار تنويرية "[3] .

ب) الجزائر في عصر فرومنتان :

---

[1] . د. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه . ص 76، 77 .

[2] . المرجع نفسه . ص 77، 78 .

[3] . د. أبو القاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. ج 1 . ص 247 .

لا يخفى عن دارس التاريخ أن بلاد المغرب العربي قد تعرضت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر إلى حركة استعمارية تبشيرية نفذها غزاة الأسبان والبرتغال، فكانت الحملة الصليبية شرسة على بلاد المسلمين مما دفع الجزائر آنذاك إلى الاستنجاد بالأتراك العثمانيين، فدام حكمهم أكثر من ثلاثة قرون (1518 – 1830) مع تناوب عدد من المسؤولين بيلربايات وباشوات وآغوات ودايات، " وباسم العقيدة الإسلامية والولاء للسلطان، دخل الجزائريون أيضا في الرابطة العثمانية " [1] وخاضوا مع العثمانيين حروب الجهاد في البر والبحر؛ وقد اتّسم الوجود العثماني في الجزائر بالمظهر العسكري فساد بذلك الاستبداد الذي نجم عنه العنف في الحكم .

وقد أثر العثمانيون في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية في الجزائر بما جلبوه من وسائل حضارية كانت خلاصة الحضارات العربية والفارسية والبيزنطية بالإضافة إلى تراثهم الخاص .

ويرى الدكتور أبو القاسم سعد الله " أن هنالك فرقًا شاسعا بين مجتمع المدينة ومجتمع الريف، فالنظام الإقطاعي الذي دعّمه العثمانيون قد جعل الفلاح محل استغلال الشيوخ والمرابطين والقوّاد والخلفاء والجنود وغيرهم من أصحاب الحكم والنفوذ الذين كانوا يتلقون مسؤولياتهم من البايات أو من ممثليهم في الأقاليم ."[2] وكانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية التي يقوم عليها كيان المجتمع في الريف الجزائري وقد استغلها العثمانيون في دعم سلطتهم حيث أمدوا شيوخ القبائل بالهدايا قصد استغلالهم في جمع الضرائب لصالحهم . فتقوقعت كلّ عشيرة على نفسها لتعيش مع ما جاورها من قبائل في عصبية وجو من الائتلاف والاختلاف بحسب المصالح المشتركة بينها، لتصل إلى حدّ الإغارة والأخذ بالثأر لأتفه الأسباب، وتجدر الإشارة إلى" أنه حتى عام 1930 لم يكن هنالك إلا 10 % من الجزائريين يسكنون

[1] . المرجع السابق . ص 140 .

[2] . المرجع نفسه . ص 157 .

المدن " [1]، مما يعني أن الأغلبية الساحقة كانت موزعة بين الريف والبادية. ولقد كانت الحياة الدينية والأدبية والفنية شأنا من شؤون المجتمع الذي سعى إلى تعليم أبنائه بما وفرته الحكومة من مؤسسات تعليمية كالكتاتيب والمساجد وتوفير الكتب والمدرّسين وعملت اللغة العربية والدين الإسلامي والتاريخ إلى توحيد الجزائريين، غير أن الأمة في ظل سياسة العثمانيين كانت تعيش عصر التخلف الفكري والتدهور السياسي ؛ يقول الدكتور سعد الله على لسان السّيد شو*وهو يتحدث عن حالة العلوم والفنون في الجزائر في وقته، " بأنها مازالت عند المسلمين « كما كانت منذ مدة في حالة دنيا ... فالفلسفة والحساب والطبيعيات والطب التي كانت ملكا لهم خلال عدة قرون قد أصبح الآن لا تكاد تعرف أو تدرس » وقد أرجع شو ذلك إلى عدم الاستقرار لدى العرب والمظالم التي كان يعانيها الحضر على يد الأتراك لأن الأمن والحرية والهدوء ضرورية للإنتاج الأدبي والفني الراقي " [2] فقد كان شغلهم الشاغل عن العلم هو التجارة والمال والميل إلى الحرب وجمع الغنائم والتنافس الشديد على الوظائف السامية في الحكم .

وفي ظل الحكم العثماني استمر الأهالي خاصة في الغرب الجزائري وتحت تأثير العقائد الصوفية في بناء المساجد والأضرحة والزوايا " وشاع في الجزائر التحالف بين العثمانيين والمرابطين حتى عرف الناس أن هناك سياسة عامة متبعة، فكثرت الأضرحة والقباب ودخلت الطرق الصوفية من المشرق ومن المغرب، وجاء الدعاة الحقيقيون والأدعياء المزيفون ينشرون أفكارهم وأورادهم بين الناس وأصبحنا لا نكاد نجد مدينة أو قرية بدون العديد من الزوايا والأضرحة والمشاهد . وعند كل بناية أناس يتبركون ويدعون ويزورون ويتقربون، يقيمون الحضرة ويقدمون الهدايا ويذبحون الذبائح، آتين من كل فجّ ... وهكذا غرقت الجزائر في هذا العهد في التصوف والدروشة فأصبح العلماء (الفقهاء) يتباهون بأخذ الطرق والأذكار

---

[1] . د. أحمد منور . أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية . هامش رقم 06 . ص 53 .

* كتب حوالي 1720، من أدق الملاحظين وكان يحسن لغة الشرق الأدنى والأوسط، له دراية كبيرة بالمجتمع الجزائري ومن مؤلفاته عدة كتب في الرحلة عُرفت باسمه .

[2] . د. أبو القاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . ج1 . ص 193 .

والخرقة والسبحة والمصافحة والأسودين (التمر والماء)، وأصبح الحكام يظهرون كل الاحترام والتبجيل لأهل التصوف الحقيقي والكاذب معا ؛ أمّا العامة فلا تسأل عن أحوالها وعقائدها ومستواها الخلقي والاجتماعي " [1]، فالواضح أن هذا العصر كان طابعه العام هو سيطرة التفكير الخرافي والإعراض عن كل نشاط فكري سليم، " حيث انقلب التصوف من تجربة وذوق ومشاهدة إلى شعوذة وتظليل، وقد استحوذ المتصوفة المشعوذون على العامة إلى درجة أصبحوا معها قوة يحسب لها حسابها في الميدان السياسي والديني " [2]، ومما زاد في تدهور أوضاع المجتمع الجزائري، هو ما أقدم عليه الغزاة الفرنسيون من تطبيق لاستراتجيات استعمارية، فقد عملوا " منذ أن وطئت أقدامهم هذه الأرض على محاربة الشعب الجزائري بكل ما أوتوا من قوة مادية، وعلى ضرب مقوماته الروحية التي تفقد كل وسائل المقاومة الأخرى بدونها أية أهمية أو فاعلية " [3] وهذه الإجراءات الوحشية عانى منها المجتمع الجزائري على تعاقب الأحداث في فرنسا وتغيّر قادتها، " (الذين انتهجوا سياسة استعمارية قائمة على هدفين : حرب إبادة مادية وتصفية جسدية تستهدف) :

– أولا : إفناء العنصر البشري للشعب الجزائري، وذلك بخوض حرب تستهدف الأبرياء العزل في القرى والبوادي والأرياف .

– ثانيا : الاستيلاء على الأرض وتعميرها بالعنصر البشري الأوروبي، لتحويل طابعها البشري من الطابع العربي الإسلامي إلى الطابع الأوروبي المسيحي .

والهدف الثاني : حرب معنوية (روحية) تقوم على :

– أولا : هدم البنيات الثقافية والروحية والأنظمة والتقاليد الاجتماعية التي كانت قائمة قبل الغزو .

---

[1] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 . ص 466، 467 .

[2] . ألفريد بيل . الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي . ترجمة عبد الرحمان بدوي . دار المغرب الإسلامي بيروت 1981 . ص 314 .

[3] . د. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه . ص 29 .

– ثانيا : إحلال بنيات أخرى محلّها تستمد مقوماتها من ثقافة المستعمر ونظمه الاجتماعية ."[1]

كل ذلك سعيا من فرنسا الاستعمارية إلى طمس الهوية الجزائرية، ولا دل على ذلك الاستحواذ على الخزينة العامة وتحويل المساجد إلى كنائس ودعم حملات التبشير وإحلال اللغة الفرنسية بديلا عن اللغة العربية، ممّا اضطر كثير من المثقفين إلى الهجرة خارج وطنه الأم، وفرض نظام الأهالي، وإثارة الفتن بين القبائل، وقمع المقاومة الشعبية التي لا سلاح لها أمام قوة فرنسا الحربية في الواقع إلا الصبر والإيمان، وإحراق القرى والواحات والمحاصيل لأغراض انتقامية، ونهب الأراضي الخصبة وإجبار أبناء الفلاحين إلى الانضمام إلى الجيش الفرنسي للقتال في الجبهات الأوروبية ؛ إلى جانب ذلك تفشي الأوبئة والمجاعات التي قضت على عدد كبير من الجزائريين، وإخضاع عدد للعمل في مزارع المعمرين . كل ذلك محوٌ للكيان الجزائري بكل مقوماته الحضارية قصد إلحاق الجزائر بفرنسا وتنفيذ مطامعها الاستعمارية في القارة الإفريقية .

والثابت تاريخيا أيضا أنه عندما احتلت فرنسا الجزائر سعت إلى الاستحواذ على الأرض بهدف توفير أمنها الغذائي من المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية ومواد الخام وغيرها وإتاحة الفرصة لاستثمار الأفراد والشركات الاقتصادية دعما لوجودها الاستعماري، كما قامت بمصادرة أراضي الجزائريين ومنحها إلى الوافدين الجدد من فرنسا وأوروبا لاستغلالها سعيا من الحكومة الفرنسية في القضاء على البطالة داخل فرنسا، وليس هذا على الأرض فحسب بل استثمرت أيضا في العنصر البشري مقتنعة بفكرة إدماج الجزائر بها، فسمحت لبعض الجزائريين إلى العيش في فرنسا رغبة منها لينقلوا عنها مظاهر الحضارة الغربية إلى ذويهم وبالمقابل طبقت قانون تجنيد أبناء الأهالي ومن يرغب في الانضمام إلى الجيش الفرنسي كعيون تترصد لأجل قمع الحركات الثورية داخل المدن الجزائرية .

[1] . المرجع السابق . ص 30 .

فعندما عُيِّن الجنرال « بيجو » حاكما فرنسيا في الجزائر 1841 عمل على تشجيع استعمار الأرض وتسليمها للمستوطنين، غير أن هؤلاء المعمرين كانوا متخوفين على ممتلكاتهم من المقاومة الشعبية ضد الاحتلال ؛ " لقد أدت السياسة الفرنسية في الجزائر في الأربعينيات من القرن التاسع عشر إلى زيادة عدد المستوطنين الفرنسيين بشكل ملحوظ فقد كان عدد المستوطنين 28 ألفا سنة 1840 وقفز هذا الرقم إلى 109 آلاف سنة 1848 ولم يقتصر الاستيلاء على الأرض على مجال معين بل شمل أراضي الدولة والأوقاف والمصادرة من الأهالي وتمّ ذلك بموجب مراسيم صدرت أهمها مرسوم 1845 الذي ينص على حق السلطات الفرنسية بمصادرة أراضي القبائل (العاصية) الثائرة ضد سياسة الاستيطان مثل تلك التي انضمت إلى قيادة قائد المقاومة الجزائرية عبد القادر الجزائري والتي قاومت الفرنسيين . وبهذه الطريقة تمّ الاستيلاء على معظم الأراضي الجزائرية الخصبة، إن العقاب الذي كان يتعرض له المواطن عندما يتمسك بأرضه وينضم إلى صفوف المقاومة هو انتزاع الأرض منه ."[1]

ففي فقْد الأهالي لأراضيهم الزراعية ومراعيهم تحت وطأة القوانين الفرنسية الجائرة يتسبب حتما في يأسهم الذي يتحول إلى سخط ثم مظاهرة مطالبة بحق امتلاك الأرض ومثل هذا الفعل في نظر فرنسا هو إعلاء صوت عليها واعتداء على مصالحها وثورة جهاد على وجودها تتخذها ذريعة لمصادرة الأراضي والاستيلاء عليها وتسلمها إلى " المستوطنين والذين يتزايدون في أعداد مضطردة حيث الجدول التالي :

السنوات	رجال	نساء	الأطفال	المجموع
1830	-	-	-	600

[1] . د. عبد المالك خلف التميمي . الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي . دراسة تاريخية مقارنة ؛ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، نوفمبر 1983 ؛ ص 21، 22 .

1832	-	-	-	4858
1833	4596	1545	1671	7812
1840	12028	9159	8017	27204
1850	51007	37212	37529	125748
1855	55255	43035	57317	155607

وكانت جنسيات المستوطنين في الجزائر سنة **1855** على النحو التالي :

الجنسية	العدد		الجنسية	العدد
فرنسيون	86969		بلجيكيون هولنديون	444
أسبان	42569		إنكليز وايرلنديون	434
إيطاليون	9082		بولونيون	290
مالطيون	6536		برتغاليون	285
ألمان	6040		إغريق	94
سويسريون	2105		أجناس مختلفة	(759)

ومما لاشك فيه هو أن هذه الأرقام تتحدث عن نفسها وتبين أعدادهم وأجناسهم في منتصف القرن التاسع عشر . " [1] في حين ذلك كان عدد سكان القطر الجزائري يتناقص بشكل مريع من جراء حرب الإبادة التي شنها الاحتلال ضد الشعب الجزائري بكل الطرق الفظيعة " فقد قدر الجنرال « بيجو » سكان الجزائر سنة 1844 بحوالي أربعة أو خمسة ملايين نسمة، ولكن عددهم تناقص في سنة 1872 إلى أقل من نصف هذا العدد أي إلى مليونين

[1] . د.إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر . ص 125، 126 .

ومائة وخمس وعشرين ألف نسمة ولا يرتفع العدد فيبلغ من جديد الأربعة ملايين إلا بعد أكثر من نصف قرن أي مع مطلع القرن العشرين " [1]

لقد رأت فرنسا بفرض سيطرتها على الأرض الجزائرية وتقسيمها على المستوطنين أنها المالكة الحقيقة والوريثة لتركة آل عثمان بالجزائر لتضع بذلك يدها على مدينة الجزائر (إسطنبول الصغرى)* وما جاورها في خطة للسيطرة على الشمال الإفريقي ثم الصحراء فالقارة الإفريقية .

هذا بشكل عام ما كان قبل عصر فرومنتان وأثنائه، من أحداث سياسية واجتماعية وأدبية، انعكست على الحياة في فرنسا والجزائر على الصعيدين التاريخي والفكري الواقعي ؛ وعن دراسة رحلته التي قادته إلى الجزائر يستوقفنا أمر الاطلاع على حياته الخاصة وكيف أسهمت الظروف السابقة في تكوين شخصيته لتحديد قيمة مواقفه ونظرته التي حكم بها في مؤلَفه على الجزائر أو الآخر الأجنبي .

1- 2 حياتـــه :

ولد أوجين فرومنتان " Eugène Fromentin " بمدينة لاروشيل " La Rochelle " بفرنسا في **24** أكتوبر **1820**، وهو ابن طبيب هوايته الرسم، وقد كانت أسرته تقضي أيام فصل الصيف من كل سنة بمنزل جبلي يوجد بمدخل قرية سان موريس"Saint Maurice" [2] بلده الأصلي والحقيقي [3] . وقد كان الطفل أوجين يعاني العزلة بين أربعة جدران في هذا المنزل الريفي، يعيش أحلامه ويرهف حسه لروائح الأشياء

---

[1] . د. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي . نشأته وتطوره وقضاياه . ص 44 .

* سميت بهذا الاسم لكثر أسواقها وتجارها ووفرة عمرانها وسكانها

[2] . Eugène Fromentin . Un été dans le Sahara . Présentation et Notes par Anne Marie Christine . Editions Le Sycomore . Paris . 1981 . P 259 .

[3] . Eugène Fromentin . Dominique . Introduction et Notes par Emile Henriot . Editions Garnier Frères . Paris . 1961 . P 111 .

القديمة [1] . تعلق منذ صغره بصديقة الطفولة جوني كارولين ليوكادي شاسي " Jenny Carolin Leocadie Chassé " ففي حوالي السن الرابعة عشر بدأ يحبها، أي عام **1834** إلى أن تجاوز العشرين من عمره، ولكن هذه العلاقة لم تستمر . فقد غادر لاروشيل نهائيا عام **1842** متجها نحو باريس [2]، وكانت جوني كارولين تكبره بحوالي أربع سنوات، وكانت تعيش مع أمها المطلقة في منزل حديقة تطل على منزل فرومنتان الأب [3]. تزوجت جوني كارولين برجل آخر وماتت في سن الشباب عام **1844**، فحزن عليها أوجين فرومنتان مرتين : مرة لفراقها ومرة لوفاتها، وبقي جرح هذا الحب مفتوحا في قلبه حتى وفاته [4] .

أمضى فرومنتان فترة دراسته بكوليج « روايال » بمدينة روشيل، وبعد مشوار علمي ناجح غادر بلده عام **1839** متجها إلى باريس لدراسة الحقوق، وتحصل عام **1843** على شهادة الليسانس [5] .

في هذه المرحلة التعليمية المتوسطة من حياته بدأت تظهر عليه علامات النبوغ والموهبة، حيث بدأ نظم الشعر منذ سن الخامسة عشر واستمر يكتب محاولاته الشعرية حتى سن الخامسة والعشرين[6] . وأنهى في شهر ماي **1841** بالاشتراك مع زميله بول باتايار " P. Bataillard " دراسة حول مؤلف للكاتب إدكار كيني[7] " Edgar Quinet " * الذي كان يحب أن يتابع دروسه[8] كما كان يميل إلى قراءة

---

1. Ibid . P : 6
2. Ibid . P : 292
3. Ibid . P : 23
4 . Ibid . P : 16 . Voir aussi Gillet Louis . Eugène Fromentin et Dominique. La Revue du Paris . P 21
5 . Eugène Fromentin . Un été dans le Sahara . P 259 .
6. Eugène Fromentin . Dominique . P 290 .
7 . Un été dans le Sahara. P 260 .

* إدكار كيني (1803 - 1875) فيلسوف ومؤرخ له اتجاهات وميول رومنتيكية، كان مدرسا للأدب الأجنبي في جامعة " ليون " وعين فيما بعد مدرسا في " الكوليج دي فرانس " عام 1842 لتدريس مادة " آداب جنوب أوروبا " وهو أول من استحدث مصطلح " الأدب المقارن ". انصرف في دراسته للآداب الأوروبية إلى شرح بعض الاتجاهات بينها وبين طبيعة الصلات بين مختلف الآداب، ينظر محمد غنيمي هلال " الأدب المقارن " . ص 54 .

8 . Dominique . P 294 .

دواوين لامارتين " Alphonse de Lamartine " * والناقد سانت بيف " Sainte Beuve " ** ويكتب عام **1842** بالاشتراك مع صديقه بيلتريميو " Beltermieux " دراسة عن قيستاف دورينو " Gustave Droune " [1]. وبعد أن يتحصل على الليسانس في الحقوق يصر أبوه أن يتفرغ لإعداد الشهادة الدكتوراه، ولكن فرومنتان يسلك اتجاها آخر حيث تابع دروسا في الرسم مستجيبا لموهبته الفنية وتخلى نهائيا عن دراسة الحقوق[2] . ولذا يمكن اعتبار عام **1843** تاريخ انطلاق فرومنتان في مشواره الفني، حيث اختار طوعيا أن يتفرغ لإثراء وتنمية موهبته في فن الرسم رغم تفوقه في دراسته، وما كان ينتظره من مستقبل مهني مضمون وزاهر، في هذا العام بدأ يتابع بجد دروسا في الرسم مما أدخله في خصام ونزاع مستمرين مع أبيه الذي لم يكن راضيا عن توجيهه الجديد، وبقيت هذه الخصومة قائمة بينهما ولم تنته إلا عام **1847** بانتصار نهائي لفرومنتان الابن حيث صرح " أبي اهتدى أخيرا، أنا حر وأنا رسام ومستقبلي بين يدي " [3] .

إنه بداية من هذا التاريخ بدأ حياة حقيقية قرر فيها مصيره المهني والفني وفق ذوقه الشخصي واختياره الحر . وقد بدأ نشاطه كرسام بباريس بتنظيم أول معرض له عام **1845** بجانب صالون أدبي عنوانه :

" لأيّ شيء يستخدم الشعراء الصغار A quoi Servent les petits Poètes " .

---

* آلفونس دو لامارتين شخصية أرستقراطية ولد بـــ: ماكون عام 1790 وهو من كبار شعراء الرومنتيكية الفرنسيين، صدر له أول ديوان بعنوان التأملات " Les méditations " عام 1820 الذي جعل منه أديبا مشهورا وفتح له الباب لتقلد مناصب دبلوماسية وسياسية هامة.زار الشرق، وبعد ثورة 1830 انتقل إلى الليبرالية وشكل على إثر نجاح ثورة 1848 معارضة شديدة وعين على رأس الحكومة الفرنسية المؤقتة وتوفي بباريس عام 1869 ينظر :

André Lagarde et Laurent Michard .Les Grands Auteurs du moyen Age Au XX e Siècle .Bordas Paris 1971 .P 462 . 463

** سانت بيف : من كبار النقاد الفرنسيين ولد 1804. درس الطب في بادئ أمره وسرعان ما تركه إلى الأدب والنقد حيث أسهم في حركة شعري الرومنتيكية ناشرا : " حياة Vie " و " أشعار وأفكار جوزيف دولوم Poésies et Pensées de Joseph Delorme " عام 1829 . توفي 1869 ينظر المرجع السابق . ص 570 .

1 . Un été dans le Sahara. P 259 .

2 . Ibid . P : 259 .

3 . Aicha Kassoul Prestations de Un été dans le Sahara. E N A G Alger 2001 . P : 09 .

1- 3 رحـــلاته إلى الجزائر :

لقد قام فرومنتان بثلاث رحلات إلى الجزائر، ففي عام 1846؛ وبدعوة من الرسام شارل لابي " Charles Labbé " سافر فرومنتان إلى الجزائر رفقة صديقه دي مينيل " Du Mesnil " فوصلا إليها في (12 مارس) وأقاما بالبليدة من (14 مارس حتى 01 أفريل)، وقاما بجولات سياحية إلى مضائق الشّفة ومليانة والقليعة والمدية [1] ولم تدم هذه الرحلة أكثر من أسبوعين .

وفي 03 أكتوبر 1847 زار الجزائر للمرة الثانية رفقة الرسامين شارل لابي وسالزمان " Salzemenn " . وقادته رحلته هذه إلى كل من الجزائر والبليدة وتيبازة . ثم سافر إلى سكيكدة ومنها إلى قسنطينة وعين مليلة وباتنة والقنطرة وبسكرة التي وصلها في 23 فيفري 1848 وأقام بها حتى (13 أفريل) ؛ زار خلال هذه الفترة بعض واحات الجنوب، مثل سيدي عقبة وطولقة ثم صعد عائدا باتجاه قسنطينة معرجا على بريكة والوطاية ؛ وقد أنهى رحلته هذه التي استغرقت حوالي ثمانية أشهر بالعودة إلى الجزائر في 19 ماي 1848 [2] .

وبعد أربع سنوات يعود إلى الجزائر في رحلة ثالثة رفقة زوجته * فيصلان إليها في 27 نوفمبر 1852 . وفي شهر ماي 1853 التحق بهما صديقه دي مينيل ورافقهما إلى مدينة البليدة حيث استقر مع زوجة فرومنتان هنالك . وواصل فرومنتان وحده رحلته إلى الأغواط التي وصلها في (03 جوان) بعد أن شاهد في طريقه المدية وقصر البخاري وعين وسارة والجلفة وسيدي مخلوف . وانطلاقا من الأغواط[3] زار قريتي تاجموت وعين ماضي** وكانت هذه أطول رحلة حيث دامت تسعة أشهر .

---

1 . Un été dans le Sahara. P 259 - 260 .

2 . Ibid . P : 260 .

* اسمها ماري كافالي دوبومون " Marier Cavallet de Beaumont " وتزوجها عام 1852 وهي ابنة أخي صديقه " دي مينيل " .

3 . Un été dans le Sahara. P 260 .

** قريتان تبعدان عن مدينة الأغواط بحوالي 70 كلم غربا .

لقد احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830 وأعلنتها جزءا من أرضها، إلا أن الثورات الشعبية اندلعت في كل مناطق الجزائر، فكانت " مقاومة الأمير عبد القادر في الغرب والوسط منذ بدء الاحتلال للتزامن مع مقاومة أحمد باي في الشرق (1837 – 1848) وتوالت بعدهما انتفاضة بومعزة في الظهرة 1845 والزعاطشة بقيادة الشيخ أحمد بوزيان 1848 وابن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله في الأغواط 1852 ولالّة فاطنة نسومر والشريف بوبغلة ببني إيرثن (1851 – 1857)" [1] وباقي الثورات التي لم تهدأ في وجه الاحتلال والتي سعت فرنسا إلى قمعها بوحشية إلى حدّ التنكيل الرهيب بكل شيء يقف عائقا ضد حملتها في استعمار الأرض .

والواضح أن فرومنتان كان يتردد على الجزائر والمقاومة الشعبية التلقائية في كل مكان، وكان يدرك جيدا " أن رحلته مغامرة محفوفة بالمخاطر والمفاجآت " [2] والتي جلبت له الموهبة الفنية وأكسبته شهرة كبيرة " وعلى إثر رحلته هذه عرض ثلاث لوحات في صالون عام 1847 أدخلته حقل الفنانين الطموحين للتجديد ... وللإشارة أن رحلته الثانية (1847) والثالثة (1852) قد تمتا برعاية مباشرة من السلطات الرسمية الفرنسية في الجزائر،ونشر فرومنتان بعد ذلك العديد من مقالته في مجلة « Revue de deux mondes » التي كانت بمثابة منبر مروج للسياسة الاستعمارية للجزائر " [3]، والتي هدف من ورائها البحث عن التّميّز الفني والمادي ؛ فقد أشار في إحدى مراسلاته وهو شاب أنه في إحدى الأمسيات الممتعة التي قضاها رفقة صديقه « بيلتريميو » على حافة منحدر قرب البحر كانا يتحدثان عن الأحلام والمشاريع المخبوءة . هو عن الأسفار والرّسم وصديقه عن الطموح الأدبي " [4] . في حين أنّه كان ملازما لبيئته مستأنسا بأحلامه في منزله الريفي

---

[1] . محمد الطيب العلوي . مظاهر المقاومة الجزائرية (1830 - 1954) دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة . الجزائر 1985 . ص 66 .

[2] . Un été dans le Sahara. P 70 .

[3] . د. زينات بيطار . الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي . سلسلة عالم المعرفة . الكويت . ص 305 - 306 .

[4] . Un été dans le Sahara . P 11

الذي لا يبرحه، ليعلن صراحة لأصدقائه نيّة الترحال والانقطاع عن محيط بلده بشكل مفاجئ حتى بالنسبة إليه، يقول لصديقه « باتايار » في عام 1842 " أنت تعرف بأنني قليل الحركة كما أنّك تعرف ميلي إلى رتابة الحياة " [1].

فما الذي حمله بعد عزلته وارتباطه بمحيطه إلى اجتياز البحر المتوسط قاصدا الشرق بدلا من روما بلد الفنون التشكيلية Les Arts Plastique * في أوروبا آنذاك ؟

لقد فرضت فرنسا سيطرتها على الشرق الإسلامي منذ حملة نابليون بونابرت على مصر (1798)، مما فسح المجال أمام الفنانين إلى نقل ما تزخر به البيئة الفطرية من صور بطولية وطبيعية وأثرية إرضاءً للذوق الفني السائد في فرنسا والذي بقي مستمرا طيلة القرن التاسع عشر وجذب إليه العديد من الفنانين المتأخرين وصرفت أنظارهم حتى عن فن النهضة الإيطالية المبكرة . فمع ارتباط مصالح فرنسا بالشرق " عاش الرومانسيون بين نافذتين مفتوحتين، إحداهما على الماضي والثانية على المستقبل، فتأرجحت العين الرومانسية بين ثنائي التاريخ والحلم " [2] وذلك " بالرحيل وارتياد الأماكن الغريبة والاندماج مع عناصر الطبيعة الموحشة والعودة إلى عصور الفروسية وطلب الحرية " [3] والتي سارت مع خط موازٍ مع الواقعية الطبيعية والتي من روادها غوستاف فلوبير " Gaustave Flaubert " (1821 – 1880) وإميل زولا " Emile Zola " (1840 – 1902) وجي دي موبوسان " Guy de Maupassant " (1850 – 1893) وغيرهم .

ومما شجع فرومنتان على السفر إلى « الشرق » أيضا أصدقاؤه وخاصة " أرموند دي مينيل الذي كان ينوي مرافقته " [4] ؛ والحاجة إلى الترفيه عن النفس بعد فقده لصديقته « ليوكادي » وسعيه إلى إرضاء عائلته في قراره الحازم على ممارسة فن الرسم الذي رأى فيه

---

[1] . Un été dans le Sahara. P 12 .

* كل الفنون التي أنتجت أو أعيد إنتاجها في أحجام أو أشكال كالنحت والتصوير والرسم وفن العمارة .

[2] . د. زينات بيطار . الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي . ص 101 .

[3] . د. نسيب نشاوي . المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر . ص 156 .

[4] . Un été dans le Sahara . P 12

تجسيد أحلامه وطموحاته من الجزائر، التي أكسبته على الأقل مهارة شخصية، وحفّزته مناظرها إلى أن يزورها متلهفا مرة أخرى، فيكتب قائلا : " غريب لأن تسافر وقد تركت كل شيء خلفك ثم تجد نفسك أمام الشعور الغامر كأنّك تنظر إليه لأول مرة، الشعور نفسه يغمرني فأعجز عن التعبير"[1] .

2- فرومنتان الرّسام :

عُرف فرومنتان في فرنسا كفنان وناقد وكاتب، ولم يكن ذلك من محض الصدفة، فالوسط الفني في بلده حفزه إلى حضور محاضرات أعلام الثقافة، ورغّبه الاطلاع على فن تصوير المناظر ودراسته، فضلا عن علاقته الحميمة بالفنان شارل لابي الذي ارتبط إبداعه بالاستشراق ؛ وتلبية لدعوة هذا الفنان، زار فرومنتان الجزائر على الرغم من معارضة أهله له بالتوجه نحو فن الرسم، إلا أنّه عدّ هذه الزيارة نجاحا في مشواره، فكتب إلى والده رسالة معبرا فيها عن انطباعه يقول فيها : " لا أدري وقد أكون مخطئا ؛ غير أن رحلتي هذه، وتوجه أفكاري الجديد، وذلك الدرس الرائع الذي تعلمته في بلاد الضوء الساطع، والألوان الصاخبة والأشكال الهائلة، يعتبر تقدّما في عملي سيغدو ملحوظا يوما عن يوم، كل هذه المعطيات تمنحني زخما جديدا، وتكسبني حماسا وقوة جديدين " [2] . وبعد رحلته هذه، عرض فرومنتان لوحاته في قاعة العرض بباريس فلقي بذلك القبول والاستحسان، مما ألهب شعوره إلى زيارة الجزائر مرة أخرى بحثا عن الشهرة والابتكار والتمييز، فكتب يقول : " أريد القيام برحلة طويلة الأمد، كي أتمكن ليس فقط من جميع المصادر، بل من العثور على شيء يمنحني القدرة على ابتكار عمل جديد لتصوير هذا البلد الأصيل ... إنني أصبو إلى تحقيق هدفين من هذه الرحلة : أمّا الأول فهو إتمام دراستي كفنان عبر علاقة تأملية طويلة ومباشرة مع الطبيعة، بعد

---

[1] . Ibid : P 13 .
[2] . Eugène Fromentin . Les Lettre de jeunesse . Paris . 1909 . P 182 .

أن اكتسبت في الرسم معارف وخبرات معينة . وأمّا الثاني فيتمثل في العثور على موضوعات جديدة في الطبيعة " [1] .

لقد وقعت الجزائر في دائرة اهتمامه منبهرا بسحر جمالها معبرا عنه بحد الريشة والقلم، موطّدا علاقته بإخلاص مع جمهوره الفرنسي الذي عدّه باعث الإبداع والحداثة [*]، ولثقل هذه المسؤولية كتب إلى أحد أصدقائه معلقا على رحلات سابقه، يقول : " إنني أشعر بما ينقص فنّاني بلدنا الرحالة، وأعني الصبر والإخلاص للطبيعة " [2]، فهو يحس بفقدانه موهبة الخيال الإبداعي وعدم القدرة على الابتكار والتناقض في شخصيته المتولّد من شكل الواقع الذي يريد تجسيده، فكتب إلى أهله معترفا بثغرات شخصيته الفنية " إنني أفتقر إلى موهبة التجريد، وذلك لأنني لا أتقن النظر الثاقب . ولهذا تشخص أمامي مهمة إضفاء أقصى حدّ من الفنية على تصوير الطبيعة " [3] . واعترافا منه على أن الطبيعة الجزائرية أيقظت فيه روح الإبداع بقوله : " إني أعيش خارج الزمان والمكان منذ أكثر من شهر ؛ حيث أهذي في اليقظة وأخشى أن أستيقظ " [4] . لقد أملت عليه الرغبة التوجه إلى الصّحراء لاختبارها، راصدا طبيعة الإنسان فيها وتعامله مع مناخها حيث درجة الحرارة المرتفعة والزوابع الرملية الهوجاء وكثبان الرمل والحيوان والزواحف والحشرات والنبات وواحات النخيل والسواقي ... إنها صورة الحياة والبيئة على أصالتها، مما جعلها عناصر قوية سخرها لإثراء فنه كمصور وكاتب، ولن تكون في نظره سخية كفاية ما لم تسمح به الفرصة التوغل في نسيج الشعب الجزائري، مبلغ هدفه في تسجيل تغيرات الطبيعة وطباع الناس بعمق، وفي تحقيق التميّز المعقول الذي لم

---

[1] . Ibid . P : 232 .

[*] ... إنها برنامج تحريري للثقافة والفن، أو إن شئت فقل إنها التصور الجديد للحياة ذاتها ... في ظل إيقاعات الزمن المتلاحقة، والتطور المذهل في النمو المعرفي، والمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والاستجابة الايجابية لمظاهر التغيير عند مختلف الشرائح الاجتماعية ... فتجلت في أعمال الكتاب والفنانين من خلال تلك الحركات الفنية المعروفة – آنذاك – . (مجلة عالم الفكر . الكويت ؛ 1988 . ص 07 . 08)

[2] . Ibid . P : 240 .

[3] . Ibid . P : 182 .

[4] . Ibid . P : 182 .

يظفر به أحد من قبله من الرحالة الفرنسيين مما استقاه من معارف أدبية وتاريخية وتصويرية عن مناطق الساحل والسهل والصحراء الجزائرية .

كان فرومنتان مخلصا لموهبته الإبداعية، ففي لوحاته التصويرية أظهر مدى التحام الإنسان مع البيئة، فما من حدث معبّر عن روح هذا الشعب وثقافته إلا خلّده في صور، مثمنا مواضيعها وأشكالها وقيمة ألوانها وما أحسّه من تفرّد فني لا يقع إلا هنا، يقول عن هذا : " لقد حلّ فيّ عالم الصحراء، والآن أشعر كما لم أشعر في أيّ وقت مضى بأنني فنان " [1].

لقد سعى فرومنتان إلى البحث عن الصورة الفطرية الموحية المبتدعة، وقد وجدها في مشاهد الصيد والرّعي والحيوان والآثار والغابة والمناخ والبحر والصحراء والتّل وفي الجبل والسّهل والوادي وإنسان الحاضرة والبادية ... وكانت نفسه تتوق دوما إلى التجوال في الريف والبراري وتلك عادة الرومانسيين، سعيا منه إلى توفير أسباب الراحة واقتناص الجديد والتفاعل مع متطلبات الحياة المعاصرة في تباين الألوان، وفيما يعبر حقا عن مشهد خصب مثال عن الجمال والفن الخالص.

ومن جملة ما أنجزه فرومنتان كرسّام مبدع على خلاف معاصره من وحي الصحراء والتل، ألواحه : صيد الغزلان – واحة النخيل – مخيم من جبال الأطلس [2] – هبوب الريح في الصحراء [3] – لصوص الليل [4] – بلاد العطش[5] – وغيرها من العناوين المرتبطة بهذه البيئة الفطرية الموحية .

---

[1] . Les Lettre de jeunesse . Paris . 1909 . P 255 .

[2] . فرومنتان . لوحة : " مخيم من جبال الأطلس " زيت، 1860 صالة الفن في بالتيمور .

[3] . فرومنتان . لوحة : " هبوب الريح في الصحراء " . 1864 مجموعة خاصة هيوستن .

[4] . فرومنتان . لوحة : " لصوص الليل " اسكينر . 1865 مجموعة كريستي لندن .

[5] . فرومنتان . لوحة : " بلاد العطش " . 1869 متحف أورسي، باريس .

وقد اعتمد فرومنتان في تجسيد هذه الألواح وغيرها على حاسة الرؤية في التعبير عما انتقاه من مشاهد أثناء إقامته في الصحراء، فكتب يقول : " إن « الشرق » هذه البلاد البيضاء المليئة بالغبار تملك مخزونا هائلا من التدرجات اللونية والأشكال الموجزة ... فامتداد هذه البلاد أفقيا أكثر من امتدادها عموديا، حيث لا وجود للضباب، ولتقلبات الطقس الحادة، وحيث ينعدم الهواء تقريبا " [1].

كان لفرومنتان قدرة فائقة على تمييز الألوان في الطبيعة الصحراوية التي منحته صفة الفنان المبدع، بعد محاولات المحاكاة إلى طور الابتكار والجدة، تنويعا للّون وتحديثا لتدرجاته ما يعكس ملمح اللوحة وتطابقه مع الفضاء الواقعي، وفي هذا الشأن يقول : " لقد شُكِّلَت تصورات خاطئة عن اللون، وقد اعتبروه دائما أصفر، بينما هو في الحقيقة أبيض في منتصف النهار، حيث لا يعرقل صفاءه غيوم أو ضباب، وفضلا عن كونه لا يمتلك القدر على التلوين، فهو يملك صفة جوهرية تتخطى ألوان الأشياء . إن هذه الخاصية الجوهرية تستطيع أن تلحظها فقط في الجنوب، ولذا أراني أتعذب سنة بأكملها لأعكس هذه الخاصية للضوء "[2] كما كان للّون الرمادي سحره وحضوره القوي في لوحاته، باعتبار أنه " انتصار لعظمة طبيعة الشرق بدءا من اللّون الرّمادي البارد للجدران وانتهاء باللّون الرّمادي الحاد للأرض " [3] .

وفي لوحته " مخيم في جبال الأطلس " رصد الفنان ملمحا لقبائل متنقلة استقرت في فصل الشتاء بالقرب من جبـــال الأطلس المغطاة قممها بالثلوج في مناخ غائم وتلال معشوشبة . ومما صوره أيضا عن الصحراء لوحته « العطش » وصراع الإنسان من أجل البقاء، ففي نظر فرومنتان أن الأمل موجود في العيش وإثبات الذات بالرغم ما يصادف المرء من مصاعب ؛ وفي الكفاح منح للعظمة وتخليد للأعمال المنجزة مدى الحياة .

---

[1] . أعلام الفن عن الفن . فرومنتان . ج 4 . ص 276 .

[2] . المرجع نفسه . ص 59 .

[3] . Un été dans le Sahara. P 71 .

ومن كثرة تجانسه مع الطبيعة الصحراوية، وتمثيلها في ألواح متباينة إنْ في الشكل أو اللّون أو الموضوع وما يتطلبه الرسم من أدوات ملازمة للرّسام في حلّه وترحاله، تحت ظروف المناخ القاسية، أملت الضرورة على فرومنتان المتبرّم من مهنة الرسم إلى مزاولة فن الكتابة ترويحا عن نفسه، وفي هذا الشأن يقول : " لقد توفر لديّ الموضوع لحسن الحظ ولم يبق إلا اختيار الشكل، ولم تكن أدواتي كافية، وبدا عجزي عن التعبير بالريشة، لأنصرف عنها إلى التعبير بالقلم " [1] ويضيف " ... لأكتشف أن قدرات الرسام لديّ أقلّ من قدرات الكاتب، فوعدت نفسي ألا أخطئ اختيار الأداة وأنا أغير مهنتي " [2] .

3- العمل المدروس : « Une année dans le Sahel » :

أ) نظرة وجيزة في كتاب فرومنتان « صيف في الصحراء »

أشار فرومنتان في كتابه " سنة في السهل " أنه زار مدينة الأغواط وخصّها بمؤلَف تحت عنوان " صيف في الصحراء " بقوله : " هذه الرحلة سجلت تقريبا يوما بعد يوم ومرحلة بعد مرحلة في صحيفة ظلّت مستقلة عن هذه (سنة في السهل)، جريدتي الصحراوية متوقفة في الأغواط ؛ على صرخة رجل عطشان مدّة ثلاثة أشهر ونحو ذلك من العطش المستمر ؛ لقد عدتّ مهزوما، أستطيع قول ذلك من خلال هذا الظمأ القاتل " [3] .

لقد تمكّنت القوات الفرنسية من الاستيلاء على مدينة الأغواط في **04** ديسمبر **1852**، بعد ارتكابها لجرائم فظيعة في حقّ ساكنيها، وقام فرومنتان في كتابه " صيف في الصحراء " باستعراض مظاهر قوّة فرنسا، حيث أنها بنت القلاع والأبراج والحصون والثكنات والأسوار لمحاصرة السكان وتضييق الخناق عليهم، ليصف بعدها التعزيزات الحربية والتدابير القمعية ممثلة في تشييد البناءات العسكرية في الغابات وقمم الجبال ووسط القرى

---

[1] . Ibid : P 58 .
[2] . Ibid : P 60 .
[3] . Une année dans le Sahel . P 235 .

" منزل القليعة ليس إلا قطعة عسكرية للحراسة ... جدرانها منخفضة بها فقط فتحات رمي مخصصة للرماة، وللمنزل باب سميك ملبس بالحديد " [1] . ومما دوّنه فرومنتان كشاهد أو مستمع أثناء إقامته بالأغواط للأحداث بشعة لم يكشف عن تسلسل زمانها، مفصحا أن فرنسا استطاعت التوغل في النظام القبلي المتباغض على الولاء والنسب وحتى في أمور الدّين، تلك المشاحنة التي تقع بين عامة الناس وفي كل مكان ليجعل منها الكاتب مادة للانحطاط وانحلال الجنس العربي " الجدار القائم بين الحيين مازال قائما إلى اليوم ... وهما دائما مستعدان للاقتتال من على جدرانهما المشتركة " [2] . كما استثمر الكاتب شخصية « المرابط » وقدرتها على التأثير في مجريات الأحداث بين الأهالي المتخلّفين الذين يعتقدون في خوارق الأولياء ويسلمون بسيطرتهم على الإنسان وسلوكه " وهاهي دعوته تتحقق فتحتل فرنسا الأغواط ويتخذ جيشها ضريح الولي مكانا لفرقة المدفعية ... " [3] .

لقد قدّم فرومنتان للوعي الفرنسي الدليل بأن الأغواطيين لم يستطيعوا إنقاذ أنفسهم من السقوط إلا بفضل تدخل أجنبي، وما هذا إلا خير لأهل المنطقة، التي أصبحت أرضهم ملكا للدولة الفرنسية التي دفعت مقابل ذلك الكثير من جنودها وخسائر مادية معتبرة ... مثلما صرّح به في البليدة، وهو يردّ على أسئلة طرحها عليه " بن حميدة " صاحب الثقافة الفرنسية في فضول، وقد وجده رجلا واعيا سياسيا تهمه أوضاع بلده، بقوله : " أعطيته الضمان على أن الأغواط أصبح في أيدينا، مركز حدودي صلب، وقد حُفظ بإحكام، وأن البلد أصبح سالما، صالحا للسكن بعد أن أُخذ رغما عن العرب، نحن نعلم فعلا صونه من سخط المناخ " [4]، وفي مناسبة أخرى، قوله : " هذه الأرض هي ملك لنا، لقد دفعنا ثمنها غاليا " [5] .

---

1 . Un été dans le Sahara. P 77 - 78 .
2 . Ibid . P : 147 .
3 . Ibid . P : 148 .
4 . Une année dans le Sahel . P 235 .
5 . Un été dans le Sahara . P 42 .

إضافة إلى ذلك تحدث عن " الصحراء بلد الشمس الأبدية " [1] على أنها آيات خالصة من الكتاب المقدس، ولم يفته أيضا رصد الشمس الساطعة من الشروق إلى الغروب، ولم يكتف بهذا الحدّ، بل تحدث عن سلوك ومظهر أهل الأغواط بمختلف فئاتهم من بدو وحضر وحتى من جاورهم من سكان الصحراء مبديا انطباعات ذاتية في أغلبها تحكم عليهم بالدونية، كوصف التقاليد التي ترافق تحضير الطعام وتناوله " يرمي لقمة وراء لقمة في فمه المفتوح، فهو لا يأكل أبدا وكأنه يشرب "[2] وأن الناس يميلون إلى الكسل بسبب مناخ البيئة، إلى جانب تردّي أخلاق النساء، وكثرة الترف والمجون وانتشار الفقر والمرض والجهل والخوف التي تهدد حياتهم .

من مدينة الأغواط، شرع فرومنتان في تدوين كتابه « صيف في الصحراء » (1857) بنظرة رسام لا كاتب على حدّ قوله : " أنا أشعر بكل نقص فيما ألّفت ولكنّني لا أستطيع فعل شيء الآن ... تبدو كتاباتي مفصولة بعضها عن بعض، كأنها لوحات تحتاج إلى أن أربط بينها، لم أشأ أن أخدع نفسي، أجدني أتصرف كرسام على الرغم مني، بيد أنني لا أشك في وجود جو عامر يلمّ شعثها ولا سيما جوّ من الحرارة والقوة " [3]. وهذا ما انعكس حقيقة في الموضوعات التي عالجها الكاتب في كتابه « سنة في السهل » الذي وصفه على أنّه " تقرير Bulletin لهذا السفر القصير " [4] وتارة صحيفة Journal عند قوله " ربما نسميه فيما بعد (صحيفة سفر) . لنكن اليوم متواضعين، ونسميه بكل بساطة (صحيفة غائب) " [5] ؛ وفي موضع آخر من كتابه يقول : " رتبت وثائق صحيفتي ورسوماتي من الطريق، قليلا بحزن، لأنه مقارنة بما رأيته هنالك بدا لي تافها كل هذا الذي لم يكن جميلا ... " [6]

---

1 . Ibid . P : 73 .
2 . Ibid . P : 243 .
3 . Ibid . P 33
4 . Une année dans le Sahel . P 03 .
5 . Ibid : P 133 .
6 . Ibid : P 242 .

وعلى مرّ الأيام تمكن فرومنتان من أداة الكتابة والإفصاح عما في نفسه من أفكار ومشاعر بطريقة لغوية راقية، كشفت عن مواهبه وميوله و" كان ناضجا في ملاحظاته ويتتبع كل التفاصيل " [1] وكانت له القدرة على إجراء الحوار واستحضار الشخوص وإبداء الانفعال لما هو جميل أو قبيح، مما يؤكد توازنه الكامل أمام "العالم الشرقي" وهو يعبر عنه، وهنا يقول : " بدا لي وأنا أنجز الكتابين، أن أقارن بين طريقتين للتعبير بدتا متشابهتين قليلا على عكس ما يفترضه البعض، كان علي أن أعرف إذا كانت آليتهما هي نفسها أو تختلف من واحدة إلى أخرى، وأن أعرف مصير أفكاري وأن أنقلها من عالم الأشكال والألوان إلى عالم الكلمات، هذه الفرصة لا تسنح إلا نادرا " [2] .

أمّا عن أسلوبه في تسجيل الحقائق فقد ارتبط بحواسه كرسّام مرهف الحس، يقول : " أنا أحسّ أن أسعد أيّامي، ذلك اليوم الذي أغادر فيه المكان دون أن أترك شيئا يذكر بعد أن أنال مبتغاي " [3]، ففي ميله إلى فن التصوير ورسم ملامح الطبيعة الساحرة، جعله في أحيان كثيرة لا يهتم حقيقةً بحياة الناس ؛ فمن منظور الرومانسيين أنهم يحكّمون العاطفة، " لأنها مجلى الجمال النابع من الضمير ... (حيث) يريدون أن يثوروا به على شرور المجتمع من حولهم " [4] ؛ وقد كان المجتمع الجزائري يعيش حالة ضعف عامٍ قبل الاحتلال الفرنسي وفي أثنائه، ففرنسا ترى في نفسها أنها تحمل لواء القوة والحضارة، في حين " كتب بعض الأوروبيين في القرن الثامن عشر نقدا لاذعا للحالة العقلية التي كان عليها المجتمع الجزائري في وقته، وأن يكتب آخر في أوائل القرن التاسع عشر نقدا ألذع من نقد صحبه، بعد أن لم يجد في المجتمع الجزائري ما كان يطمح إليه من أفكار وتجديد ونشاط عقلي قائلا : " إن الأفكار تموت إذا لم تجد مجالا للتجديد المستمر " [5]، والكاتب في كتابه : « سنة في السّهل »

---

[1] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 8 . ص 381 .

[2] . Un été dans le Sahara . P 59 .

[3] . Ibid . P 20

[4] . د. محمد غنيمي هلال . الأدب المقارن . ص 39 .

[5] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي. ج 1 . ص 165 - 166

يرى الرأي نفسه : " ... القوة لا تعجبهم أبدا ومثل الأطفال يتقبّلون الطاعة، عدا الامتناع أحيانا، هذا الذي يكرهونه، إنّه جيرتُنا، وهذا يعني أنفسنا " [1] ويضيف " هذه هي الحاضرة الغربية حيث أعيش، أين ينطفئ مع ذلك شعب لا يمكن أن يكون أبدا أيضا كبيرا مثلما نعتقده " [2] .

وقد كتب إلى صديقه دي مينيل قائلا : " هنالك أناس وأنا من بينهم، حياتهم أحاسيس فإذا كانت أحاسيس صادقة، وأمكنني المحافظة على حيويتها الأولى فلربما وجدت فيها إشراق السماء وهدوء الآفاق التي أنظر إليها وأنا أكتب إليك "[3] ؛ فالظاهر أن الصورة التي نقلها فرومنتان في كتابيْه، ما هي إلا ذكرى وتخيل وانفعال وكلّها عناصر فاقت درجة الحقيقة والموضوعية، وأن ما أورده من موضوعات وأفكار وقصص عن حياة الجزائر، تعدّ إلا مادة استهلاكية للقارئ الفرنسي، الذي استحسن طريقته في التعريف بالآخر الأجنبي، ليعبّر عن ذلك بقوله : " لقد حظي كتاباي باستقبال جيّد فاق حدّ التّصوّر، حيث تلقيت رسائل من كل جهة، منها ما لم أكن انتظره، ومنها ما لم أكن أحلم به ؛ وفاجأني ذلك وأثّر فيّ أيّما تأثير، بل لقد أسعدني وزادني ثقة في نفسي " [4] ؛ الأمر الذي شرّفه أن يحظى بدعوة من « نابليون الأول » للمشاركة في حفل افتتاح قناة السويس في مصر عام **1869** ؛ وفي فترة إقامته بها، خصّها بكتاب عنوانه " ملاحظات رحلة إلى مصر " والذي لم يخرج في أسلوبه وطريقة عرضه عن سابقيه ؛ فما المنهجية التي انتهجها الكاتب في تصميم أفكاره فيما ألّف ؟ .

ب) تلخيص وتعليق لكتاب فرومنتان « سنة في السهل » :

ففي مؤلفه الثاني* « سنة في السّهل » تناول فرومنتان – بشكل عام – مواضيع متفرقة، حيث وصف في البداية مشقّة السفر عبر البحر ليصل إلى الجزائر في **27** من أكتوبر

---

[1] . Une année dans le Sahel . P 26 .
[2] . Ibid : P 32 .
[3] . Un été dans le Sahara . P 27
[4] . Ibid : P 61 .

* أي كتابه الثاني والأخير عن الجزائر (صيف في الصحراء 1857 – سنة في السهل 1858)

1852، ليستقر في بيته، ويبحث عن عنوان لصحائف سفره « مجلة الغائب » التي بعث أنباءها اتّباعا إلى أحد أصدقائه* بفرنسا ممن زار معه الجزائر سابقا، أين حدّثه عن بيته وحديقتيْه وعن طموحاته وجاره البولوني صاحب الدواجن، وعن بنية المجتمع الجزائري، والدّور الجميلة، والأسوار التركية المحطمة، وعن الأحياء والطرقات، وسعي فرنسا إلى تشييد بلدة نموذجية على الطراز الأوروبي الحديث، وإقامة التماثيل والحدائق وتطبيق القانون المدني، وتعزيز تواجدها وذلك عن طريق الاستعراضات العسكرية، وحظر التجوال ليلا ومراقبة شؤون العامة، حفاظا على النظام بخلاف حكم الأتراك المستبد ؛ وفي ملتقى الطرق أسواق مفتوحة تضمّ أناسا من بدو وحضر وكثير من السلع والحيوان والعربات والدكاكين ؛ وفي هذا الوسط برزت أسماء لامعة مثل « سليمان » صاحب عربة النقل و« إبراهيم التونسي » المطرّز و« نعمان » المدمن على تدخين الحشيش، و« سي عبد الله » وقصّة المرأة الغريبة التي زارته في دكانه محذرا الكاتب منها ؛ وبين هذا وذاك يتجلى الوصف بروح الرّسام الذي يرى الجمال في الطبيعة وفي أزياء النساء وارتدائهن « الحايك » وتسكع البعض منهن بين الحمام والمقابر ؛ وأشكال البيوت التي تبدو قبورا على ساكنيها شبه الأحياء، أولئك الموريسكيون الذين يعيشون حياة الترف ؛ لتسنح الفرصة من حين لآخر في تذكر حادثة معينة، كقصة التخييم قرب دوّار في ليلة مظلمة استعصى فيها النّوم بسبب برودة الجوّ ونباح الكلاب، أو قصة الذهاب إلى الصحراء وشمسها الساطعة، ليواصل كتابة رسائله معلقا عن المحكمة والعدول والقاضي والمفتي والحضور وجلساتها ؛ كما أظهر استياءه من الجوّ الماطر الذي حبسه طويلا في بيته ؛ وبعد تنزّهه في شاطئ البحر والعودة منه استوقفته رسالة من صديقه لويس فوندال « بو جعبة » دعاه فيها إلى زيارته في البليدة والإقامة معه وهنالك عرّف بمدينة الزهور التي أصبحت على الطراز الأوروبي وقد كثرت بها الثّكنات واندثرت معالمها العربية إلاّ في حي قديم مشرف على الزوال ؛ ومن سوق المدينة تمَّ حضور حفل مولود زنجي**

---

* آرموند دي مينيل " Armand Du Mesni "

** نهاية الفصل الأول من كتاب سنة في السّهل : مصطفى الجزائر من الصفحة 01 إلى 135 .

وقد حضرته المرأة الغريبة ؛ ومن خلال « حسّان » المزيّن تبيّن الكاتب وصاحبه سر هذه المرأة المدعوة « حوّة » ؛ أين تقام في محلّه للحلاقة جلسة سمر كل ليلة ينشطها المثقف « بن حميدة » ويحضرها « عمّار بن عريف » المدان من العدالة وآخرون، تُعرض فيها الأخبار العامّة والقصص البطولية والخرافية والتي يتجاوبون معها بين مسلّم بها ومعارض ؛ وفي مشهد فظيع من أحد الأيام تمَّ إعدام أربعة من الخارجين عن القانون، وفي آخر مبهج حيث عودة طائر اللقلق المبارك في نظر البليديين الذين أحسّوا الأمان في ظل سلطة فرنسا التي شيدت المطاحن وأسست المصانع ... ؛ وتلك مقبرة بوسطها قبة وليّ ضمّ ضريحه شموعا مشتعلة، بمثابة قبلة للزوار تحرسها عجوز مسنّة ... ؛ وفي ليلة بعد وليمة العشاء في بيتها على شرف الكاتب وصاحبه، قامت « حوّة » ورفيقتها « عيشونة » باستظهار أجود ما لديهن من زينة ولباس وحليّ ؛ بيد أن المطر الغزير أرغم « عيشونة » الذهاب إلى بيتها لتخلد « حوّة » إلى النوم في ملابسها الأنيقة بعد أن قبلت مبيت ضيفيها عندها، فشرع الاثنان في التّحدث عن الخرائط ورحلة السفر الممتعة بين نخيل « سيدي عقبة »... ومع توقف المطر فجرًا تمَّ مغادرة شقة « حوّة » لزيارة الجزائر قصد حضور حفل « عيد الفول » الخاص بالزنوج الذي يمثل لحظة ابتهاجهم الفريد في ذبح الثور ولباس الجديد ... ؛ وفي العودة إلى البليدة، فارق فوندال صاحبه بحثا عن الجديد، مما حثّ الكاتب الذهاب إلى الصحراء « الأغواط » ترفيها عن النفس*، وبعد رجوعه واستقراره بـــ« البخاري » تجدد اللقاء بينهما ليشدّا الرّحال معا إلى البليدة، هنالك اطّلع الكاتب على مذكرات القنصل الأمريكي بالجزائر (**1815 – 1825**) والتي أُعجب بها كثيرا مما فسح له مجال المناقشة مع « بو جعبة » عن مسألة عظماء الإنسانية وفن الرّسم ؛ كما كانت الفرصة متاحة لهما للخروج في نزهة صيد في السّهل تستغرق بضعة أيام، هنالك قام الكاتب بوصف البحيرة والطيور بأنواعها والأشجار والمنحدرات وقبر الرومية وآثار الحضارات المندثرة وما آلت إليه من إهمال وممن صادفوه في هذه البيئة الشبيهة بآي الكتاب المقدّس المفقود ؛ وكانت رحلة موفقة وصيدا ثمينا ؛ وفي « سوق السّبت » بما

* نهاية الفصل الثاني من كتاب سنة في السّهل : البليدة من الصفحة 136 إلى 234 .

تحمله هذه الكلمة من معنى، أقام أهل الحجوط مهرجانهم السنوي للفروسية، يرأسه قائدهم الذي وجّه دعوة إلى الكاتب وصاحبه وقد حضره حشد غفير من النّاس الذين رغبوا مشاهدة سباق الخيل المزينة ولمعان السروج والسيوف وسماع صوت البارود وزغاريد النسوة ؛ وهنا وقعت الفاجعة بموت « حوّة » التي دهسها « عمار بن عريف » عمدًا بحصانه وولى هاربا ؛ وفي حديث مقتضب، حدّد فوندال لصاحبه المناطق التي زارها في هذا الفضاء الرحيب من شمال إفريقيا والتي تعدّ ملكا لبلده وأنّه لن يفارق هذه الأرض مادام حيّا ؛ ولما افترقا امتطى الكاتب حصانه بعد أن شدّ له خادمه العربي الرّكاب، متوجها إلى البليدة فالجزائر قاصدا العودة إلى فرنسا وهو في ذلك يُودّع مراسله *.

ففي اشتمال الكتاب على الكثير من التقارير والمواضيع المتنوعة في حلّة أدبية وقوالب قصصية، تحت عنوان جدير بالاهتمام، ما يشجّع القراء إلى الاطلاع على مضمون الكتاب والتفاعل مع أفكار الكاتب وما أجلاه من صور معينة عن حياة الناس وطبعهم والبيئة التي سحرته .

والواضح أنه في القرن التاسع عشر الميلادي، زادت الحاجة إلى قراءة الكتب في ظل عنفوان الحركة الرومانتيكية في فرنسا وأوروبا عامة هروبا من الواقع الذي اكتسحته الصناعة والمال ؛ ونظرا لرواج النظريات الاجتماعية والأنثربولوجية والأثنولوجية ** والدينية، سعى الكتّاب والفنانون والمؤرخون منذ احتلال الجزائر في البحث عن الصورة المثيرة مما فسح المجال إلى ظهور كتب الانطباعات التي " تتناول السكان وأنماط حياتهم وملابسهم وعاداتهم

---

* نهاية الفصل الثالث من كتاب سنة في السّهل : السّهل من الصفحة 235 إلى 348 .

** فالرحالة الغربيون في دراستهم للشرق كانوا أنثربولوجيين وإثنولوجيين ؛ بمعنى أنهم يعنون بالدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم، والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى المجتمع الشرقي خلال فترة زمنية محددة، ثم يقومون بدراسة تحليلية والمقارنة للمادة الأنثربولوجية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية، أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية من حيث أصولها وتنوعها ... (جمال أمباركي . الغرب في الرواية العربية الحديثة بحث لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث . جامعة باتنة 2008 - 2009. ص 48)

وأخلاقهم، والأحياء السكنية، وتناقضات الطبيعة في نظر الكتّاب، وفتنة السماء والبحر واختلاف المناظر « الإفريقية » عن المناظر الأوروبية " [1]

ويبدو جليا أيضا باعتراف الكثير من الدارسين الفرنسيين أن فضل فرومنتان فيما استوحاه من موضوع الجزائر قد وردت آثاره في العديد من إبداعات بعض معاصريه ومن تليه من بعده مثل أندري جيد وإيميل ماسكري وإتيان ديني وغيرهم* .

ج) تأثر فرومنتان بكتابات القنصل الأمريكي والتر شالير :

والظاهر أن فرومنتان متأثر بمن سبقه في هذا الكشف الجغرافي، وما وقع له من اتصال بالشعب الجزائري، وفي اكتسابه المعرفة بالآخر فيما يتعلق باللغة والتقاليد والعادات ونحو ذلك حين قرأ وهو في البليدة من شهر أوت، كتابا نشر عن الجزائر في 1830 بعنوان : « نظرة إجمالية على الوضع في الجزائر l'Esquisse de l'État d'Alger » من تأليف القنصل الأمريكي « والتر شالير W . Shaler » ؛ والذي أعجب به إعجابا شديدا بوصفه " إنه الأكثر دقة، الأكثر إخلاصا وأفضل مزود بالمعلومات التي كتبت على وضعية الحكومة الجزائرية آنذاك الأكثر غرابة حيث هذه الحكومة من القراصنة دخلت أو بالأحرى أدخلت في صراع على السياسة الأوروبية ومرّت من اللّصوصية إلى الدبلوماسية . " [2]

وهنا نجد فرومنتان يروي ملمحا مما شاهده القنصل الأمريكي وهو في منزله بالجزائر العاصمة ؛ حيث رصد أسطولا حربيا انجليزيا يحاصر مدينة الجزائر ويهدد بقنبلتها " مسجلا

---

[1] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 6 . ص 381 .

* وذلك بحسب رأي أبي القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي . ج6 و ج8 . ص 382 و415 على الترتيب

** والتر شالير W . Shaler قنصل أمريكي بالجزائر (1815- 1825) شهد عهد " عمر باشا " (1815-1817) وبحسب رأي فرومنتان أنه كان يتلقى الأسرار من « الداي حسين » (1818 - 1830) ثم يعمد إلى تدوين تفاصيلها في كتابه القيم ضمن مواضيع وصف مظاهر الطبيعة ليجعلها صورا أكثر عفوية .

[2] . Une année dans le Sahel . P 244 . 245 .

بالضبط حركة الميناء ووصول المراكب، ... مشيرا إلى حالة السماء، ما الريح، ما درجة الحرارة، ... نوع من القصص شاملة الرؤى التي أصبحت حيّة بقوة الوضوح ومثيرة الإعجاب بسبب وجهات النظر " [1]

فمن خلال طريقة جمع المعلومات الهامة في مذكرة يومية مشفعة بالتواريخ والأوقات مع التنويه بجمال الطبيعة، فكرة مبتكرة حظيت باهتمام كبير من فرومنتان ممثلا ذلك بقوله على لسان المراقب الأمريكي : " ... في تاريخ **14** جوان **1825** : هذه الليلة كما لو كان على نقيض مع الجانب المظلم من الحرب والقلق الموجود طبيعيا في بلد مثل هذا . نحن استمتعنا بأكثر ظواهر الطبيعية جمالا، إلى غروب الشمس، « الصّبار ذو الزهر الكبير » بدأت تتفتح أزهاره في حديقة القنصلية يَزدهر شيئا فشيئا مجده الزائل في شعاع جميل ساطع من القمر إنه يعطّر الجو ... ؛ **15** جوان، بالنسبة لمعظم النهار، الأفق كان مغطى بضباب كثيف تقريبا خمس ساعات من المساء، الضباب اختفى في جزء منه، ونكتشف في امتلاء البحر (في عرضه) ستة عشر مركبا انجليزيا . الزهرة الجميلة التي ازدهرت الليلة الماضية كانت قد انغلقت في الصباح ؛ وفي المساء، كانت قد يبست على ساقها ... "[2]

فهنا إشارة إلى جمال الجزائر وعلى ضعف أهلها في الدفاع عنها وزوال قوتها البحرية التي عُرفت بها لتغدو كزهرة يبس ساقها آلت إلى الاضمحلال .

لقد رأى فرومنتان أن مثل هذا العمل يجعل الصورة أكثر محلية معترفا أنه يذكّر بالجزائر الطبيعية التي نسيها، غير أن التاريخ لم ولن يهمل اتزانها بمجرد موت نبتة في حقل معركة أو بسبب اضطراب في السياسة .

---

1 . Ibid : P 245 .
2 . Ibid : P 246 .

د) وجهة نظر في عنوان الكتاب :

وإذا كان القنصل الأمريكي والتر شالير قد خص كتابه بعنوان ذي ملمح سياسي محض بحكم وظيفته ؛ فإن الفنان والكاتب فرومنتان قد أصبغ عنوان كتابه بمسحة أدبية توحي من الوهلة الأولى أنه يعالج ترفا فكريا ضمنه آلام ذاته وأفراحها، ليتكشّف لقارئ الكتاب ودارسه من خلال تراكم أحداثه القصصية ولوحاته الفنية وما به من تحقيقات ووقائع ميدانية، عن منهج الكاتب ونظرته الممحصة لمظاهر حياة الإنسان الجزائري وبيئته .

وفي اختيار فرومنتان لــ : « صيف في الصحراء Un été dans le Sahara » و« سنة في السّهل Une année dans le Sahel » دلالة على خصوصية الصورة التي اكتشفها في حلّه وترحاله بين مدن الشمال الجزائري وجنوبه ؛ بدليل كلمتي : « Sahara » و« Sahel » اللتان كتبتا بحروف فرنسية بحسب نطقهما عربيا، بدلا من : « Désert » و« Plaine أو Prairie » بالفرنسية خطا ومعنى* .

إن لفظ « le Sahel » من عنوان مؤلَفه عن الجزائر موضوع بحثنا، إشارة إلى « السّهل » عوضا عما هو شائع في ترجمة هذه اللفظة إلى العربية « الساحل » بدليل أنه حوّل اللفظ من اسم المكان إلى اسم العلم، حيث نجد أن فرومنتان وفد إلى الجزائر واستقر بالعاصمة وسكن بيتا من دورها بناحية مصطفى باشا (أول مايو حاليا) ثم توجه إلى السكن في البليدة ومنها بدأ رحلته إلى اكتشاف سهلها الفسيح الذي قضى فيه رحلة صيد ممتعة على حد قوله، وحين ألف كتابه نسب تسميته كعادة الكتّاب إلى هذه المنطقة « la plaine » التي خصّها بفصل كامل من كتابه والتي عدّها واحدة من المدن التي زارها كالعاصمة والبليدة

---

* « Sahara » : لفظ مذكر، الصحراء الكبرى في شمال إفريقيا حيث نجد الجبال الضخمة والهضاب الواسعة من الحجارة والكثبان الرملية والماء فيها نادر والنبات قليل النمو، أحيانا بعض الثقافات الممكنة في الواحات وينابيع الماء محاطة بالاخضرار، إنه مكان يقطنه البدو من طوارق وموريسكيين الذين يتنقلون على الجمال . بينما « Désert » : المكان الذي يقطنه القليل من الناس بسبب صعوبة العيش فيه أو هو القفر والشغور . في حين أن « Plaine » : منظر طبيعي قليل الارتفاع، أحيانا يعبره نهر أو جدول ماء يصب في نهر . وأما « Prairie » : أرض أين تَرَكَ المُزارع العشب ينمو لتغذية مواشيه . (نقلا عن : " DICTIONNAIRE illustré . Editions du Cerf-Volant . 1999 ") .

وما جاورهما عدا الساحل ؛ بالإضافة إلى ذلك استخدامه للفظ « dans » أي « في » الذي يفيد الظرفية الزمانية والمكانية بخلاف « à » أو « au » مثلا التي تعني « إلى » أو « على »* بحسب سياق الكلام ؛ ثم أن الكاتب لم يكن يتردد على الشاطئ إلا نادرا على قبيل التنزّه أو يوم أن وطئت قدماه مرفأ الجزائر ؛ في حين أن معظم وقته قضاه بين البليدة والسّهل، أي ما يعادل الثلثين من حجم كتابه المذكور .

ثم أنه لا يخفى أن " الحركة الكشفية كانت فاتحة للحركة الاستعمارية الحديثة... فلقد اقتصر اهتمام الاستعمار على الأشرطة الساحلية للقارات، وبرزت الأسماء الجغرافية التي تعبّر عن طبيعة هذه المرحلة مثل : ساحل غانا، ساحل الذهب، ساحل العاج، ساحل الزنج، ساحل مالابار، ساحل كروماندل ... وظل طابع الاستعمار في هذه المناطق طابعا تجاريا هدفه الربح وليس استغلال الأرض "[1] ؛ ولكن هدف الاستعمار في زمن وجيز تجاوز الساحل إلى السهل، حيث انصرف الرحالة – على وجه التحديد – إلى جمع المعلومات وتسجيلها خدمة للكشوف الجغرافية، فسمّوا المناطق بأسمائها بحثا عن التأقلم في هذا الوسط الأجنبي، مما فسح المجال أمام الحملات العسكرية للتزود بالمعلومات البيئية الضرورية لمعرفة شكل سياج هذه الطبيعة وإحكام السيطرة عليها وبالتالي تنفيذ فكرة الاستلاء على الأرض واستغلال خيراتها .

وعلى ضوء ما سبق ذكره فإن في تداول العنوان « Une année dans le Sahel » على الألسن « سنة في السّاحل » على قبيل توافق كلمة « le Sahel » مع « الساحل »** عند النطق، فإنه يتأكد لقارئ الكتاب الملم بمضامين موضوعاته أن صواب ذلك « سنة في السّهل » عند ترجمة العنوان إلى العربية، وأن « le Sahel » تطابق

---

* - Voir : [à / dans] Le petit Larousse 2003. Larousse 21rue du Montparnasse 75283 Paris ; cedex 06 . P : 25 . 297 .

[1] . عبد العظيم رمضان . الغزو الاستعماري للعالم العربي وحركات المقاومة .دار المعارف . القاهرة ؛ 1985 . ص 12 .

** لم نعثر على لفظ « le Sahel » في معجم اللغة الفرنسية ؛ بينما الكلمات : (Bord . Côte . Littoraux ... Plage . Rive . Rivage) .. تعني بالعربية : الساحل والشاطئ والضفة والشط ونحو ذلك . والساحل هو المكان الذي تلامس عنده اليابسة البحر .

« السّهل » وتوافقه لفظا ومعنى ؛ كما عبّر عن ذلك بقوله : " لم نلبث أن مررنا بـــ « بئر مراد رايس » عندما كانت عربتنا تعبر بسرعة على سفوح الوديان . غير أن الجياد التعبة من الصعود والنزول عبر الطريق الحلزوني للسهل (du Sahel)* تتنفس الصعداء لثلاث دقائق عند العين العربية الجميلة بـــ« بئر خادم » ... لقد تنقلنا طويلا عبر طريق محفوف بالأخاديد، أين تتواجد مراكز تبديل الجياد، والقرى وبشكل متناثر وهنالك بعيدا بعض المزارع المأهولة إلى جانب تلك الامتدادات الواسعة والمهجورة حيث يعد عمل الإنسان أمرا ضئيلا للغاية وحيث تختفي كل تلك الأشجار الضخمة تحت خطوط وهمية كما في الآفاق المسطحة أين لا يمكننا إدراك سوى الحدود القصوى . على اليمين وفي عمق جبال مليانة، يختفي خط السهل (le Sahel) المنحدر تحت زرقة خفيفة . وعلى اليسار تقف مرتفعات الأطلس ذات الانحدار الشديد واللون الأخضر الداكن تعلو قممها الثلوج. كان الجو شديد الصفاء حول تلك القمم المتألقة بينما لمحنا بقايا ضباب منقشع كندف دخان أبيض يخرج من فوهة بندقية " [1]

والملاحظ على الكتاب أن فرومنتان قد تعمّد تدوين التواريخ بين فقر موضوعاته تأريخا للأحداث التي تعرض لها في رحلته والتي دامت سنة بأكملها مثمنا ساعاتها ليلا ونهارا ؛ وهو في ذلك يسجل كل ما يراه ويسمعه وحتى الذي يتذكره ماضيا أو ما يمليه عليه حدسه حاضرا، فالجزائر بالنسبة إليه أصبحت موضوعا للكتابة والإثارة والبحث المستمر فلا مكان هنا من وجهة نظره إلى الاسترخاء والفشل وإضاعة الوقت إلا لعارض كالمطر أو العطش " هل تعلم ما هو أكثر إيلاما للعقل ... المطر الذي يهطل، والأمواج التي تلّف، والزبد الذي تكشّف، والسحاب في التحرك ؟ ذلك لا للعثور على التوازن في أي مكان ." [2]

---

* كلمة : « Sahel » ذكرت خطا ومعنى في كتاب فرومنتان المدروس ضمن الصفحات التالية : 10 . 79 . 93 . 135 . 136 . 137 . 154 . 226 . 281 . 297 . 305 . وكلها تدل على المناطق الداخلية المحصورة بين الجزائر والبليدة أي « متيجة »

[1] . Une année dans le Sahel . P 135 . 136 .
[2] . Ibid : P 125 .

ضف إلى ذلك الإرهاق الناجم من مشقة السفر والإحساس بالظمأ " سافرت دون نزع اللجام ... لا نقضي أبدا الاستراحة ... نجد الينابيع ...، رواسب مُزْبَدةٌ مخضرة . مرهقة حصاني، تتعب نفسي أيضا ..." [1]

ففي تأكيد عجزه البدني والنفسي بسبب هذه العوائق رأى بإمكانه التصدي لها بإصرار وعزم لتأدية رسالته ولو تعلق الأمر المخاطرة بالنفس لما تشهده البلاد من حركات المقاومة ضد الاحتلال " إنه القائد (س) الذي يقود إلى الصيد ؛ رفاقنا من شيوخ أفارقة، ضبّاط من الفرسان الأهليين، معروفين كرماة من الدرجة الأولى، وهذا لا بأس من القول حتى أشرح لك مقدمًا الميزة العسكرية للرحلة الاستكشافية خاصتنا " [2] ليبدو الكاتب متكتما في حديثه عن تفاصيلها مظهرا استياءه من الحرب " أنا لا أحب الحرب " [3] وفي الوقت نفسه يلوح بأجواء السلامة هنا مع أخذ الحذر .

توفي أوجين فرومنتان في 27 أوت 1876 متأثرا بمرض الحمى، مخلّفا رسومات وكتب* منها « صيف في الصحراء » و« سنة في السّهل » وروايـــة بعنوان : دومينيـــك Dominique التي صدرت عام 1863 ؛ و" الذي تدور أحداثه في الريف الفرنسي بين الشّاب دومينيك والفتاة مادلين دونيفور Madlin de Nievers وهي سيرة شخصية رومانتيكية مارست حبّا فاشلا، ثمّ تزوجت وعاشت في الريف بعيدا عن حياة الناس غارقة في وحدتها، متسليّة بممارسة نشاطاتها المتواضعة لعلها تنسى أحزانها وخيبة أحلامها " [4] . والقصّة بأكملها سيرة ذاتية عن الكاتب رصد فيها ملامح بيئته الريفية مبديا مشاعر الحزن والألم متأثرا في ذلك بالمذهب الرومانسي ورواده .

---

[1] . Ibid : P 236 .
[2] . Ibid : P 274 . 275 .
[3] . Ibid : P 17 .

* - Visites artistiques (1852) -Simles Pèlerinages (1856)
- Un été dans le Sahara (1857) - Une année dans le Sahel (1858)
- Dominique (1863) - Les Maîtres d'autrefois (1876)

[4] . " Dominique " Introduction de Emile Henriot . P : 20 . P : 17 .

الفصل الثاني

صورة المكان والزمان في « سنة في السهل »

تمهيد

1- مفهوم المكان والزمان

2- أنواعـــــهما

3- أهمية دراستـــهما

4- صورة المكان :

4 - 1 الفضاء الساحر

4 - 2 منطقة السهل

4 - 3 الصحراء

4 - 4 صورة العمران

5- صورة الزمان :

5 - 1 الفترات القصيرة

5 - 2 الفترات الطويلة

تمهيد :

كل حدث يأخذ وجوده في مكان محدد وزمان معين .

1- مفهوم المكان والزمان :

أ) مفهوم المكان :

يمثل المكان مكونا أساسيا في بنية السرد، حيث لا يمكن تصور حكاية دون مكان، لذا فإن دراسة الحيز المكاني في الرواية " يقدم دائما حدا أدنى من الإشارات « الجغرافية » التي تشكل فقط نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القارئ، أو من أجل تحقيق استكشافات منهجية للأماكن . " [1]

ويلاحظ أن المكان في هذا النص الأدبي متصل بلحظات الوسط، والتي تتخللها مقاطع سرد أو حوار، وبتغير الأحداث وتطورها يتجلى بروز الأمكنة وتعددها اتساعا وتقلصا حسب طبيعة موضوع الرواية، وما يقدمه الكاتب من لقطات مختارة من زوايا موضع ما .

ومجموع هذه الأمكنة المجزأة هي التي تكون فضاء أشمل يعرف بفضاء الرواية " وهو الذي يلُفّها جميعا، إنه العالم الواسع الذي يشمل مجموع الأحداث الروائية، فالمقهى أو المنزل، أو الشارع، أو الساحة كل واحد منها يعتبر مكانا محددا، ولكن إذا كانت الرواية تشمل هذه الأشياء كلها، فإنها جميعا تشكل فضاء الرواية . " [2]

بالإضافة إلى ذلك، أنه عند الحديث عن مكان محدد في الرواية يلاحظ انقطاع الزمن عنه بخلاف الحديث عن الفضاء كونه أشمل من سابقه يستدعي حضور الزمن بين الأمكنة، نظرا لتحرر الحركة السردية .

---

[1] . حميد لحمداني . بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي . ط 2000 .المركز الثقافي العربي ؛ ص : 53 .

[2] . المرجع نفسه ؛ ص : 63 .

ب) مفهوم الزمان :

اهتمت الإنسانية منذ فجر وجودها بالزمن الذي يمثل الماضي والحاضر والمستقبل، تستقصي أشكاله ومفاهيمه، سعيا منها إلى تحديد ماهيته والدور الذي يشكله مع هذا الوجود بكل أبعاده المادية والروحية المحيطة بالإنسان .

وقد كانت تأثيرات الظواهر الطبيعية على الإنسان من أبرز العوامل التي دفعته إلى البحث والكشف عن طبيعة الزمن ؛ فبدأ بالتفكير في جميع المدركات من حوله ممحصا ومثمنا ومرتبا، وعن سر وجوده فوق الأرض وطبيعة حياته فيها .

استوقفه لمعان النجوم في السماء ليلا واختفاؤها نهارا مع تعاقبهما برفقة القمر والشمس " ووقف أمام التغيرات الطبيعية التي عرفها فيما بعد بالفصول الأربعة وكانت تلك التفسيرات التي كان يطلقها مستندة في معظمها إلى أصل أسطوري، يحاول بواسطتها أن يخفف من حالة القلق التي كان يعيشها وهو يواجه سر تلك المتغيرات "[1]

وفي تدبره لأمر الموت والفناء، بقي الإنسان عاجزا عن فك سر هذه الظاهرة التي تمثل نهاية المطاف لكل كائن حي وانقطاعه عن الزمان والمكان .

لقد تضافرت جهود البحوث الأدبية والفكرية والفيزيائية والفلكية في البحث عن مفهوم الزمن والتي ترى أنه لا يمكن تفسير جوهره دون ربطه بسلوك الأجسام المادية في ظواهر فيزيائية معينة، فالزمن يوجد متحدا مع هذه الموجودات ؛ كما أن الكون خاضع لنظام معين شجع العلماء إلى تحديد بعض قوانينه ومقاييسه لمعرفة كنهه ؛ وكذلك الإنسان فهو كون لا يقل دقة عن ذلك النظام الكوني لتميزه عن باقي الكائنات بالعقل .

---

[1] . بهيجة المصري إدلبي . الزمن رسالة الكائن إلى ذاته . دار عبد المنعم ناشرون – 2005 ؛ ص : 08 .

وعلى الجملة فإن الزمن عبارة عن نظام مرتبط بنظام الكون والإنسان ؛ ومفهومه مرتبط بأشكاله التي لا يمكن وصولها إلا عن طريق عملية التخيل، ومنه فإن علاقة الزمن بالأشياء هي التي تحدد أشكاله من خلال حركتها الخارجية أو الداخلية .

2- أنواع المكان والزمان :

أ) أشكال المكان :

تتحدد حرية حركة الإنسان بطبيعة المكان الذي يوجد فيه، فالإنسان في بيته يعيش بحرية لأنه يدرك أن هذا الحيز ملك له، وكلما اتسعت مساحة المكان ضعف سلطان الإنسان عليه وبدأ بالخضوع لسلطة المكان ؛ لذا " هذه المساحات دوائر متراكزة تتسع من حيز فردي يمارس فيه الفرد حياته اليومية، إلى حيز جماعي تنظمه الجماعة لتحافظ على تماسكها وتناغمها، إلى حيز قومي تحارب الدول لحمايته، إلى حيز كوني . " [1]

ويميز بين أربعة أنواع من الأماكن حسب السلطة التي تخضع لها، وهي :

– « عندي » : وهو المكان الذي أمارس فيه سلطتي، ويكون بالنسبة لي مكانا حميما وأليفا . إنه المكان الخاص .

– « عند الآخرين » : وهو مكان يشبه الأول ولكنه يختلف عنه من حيث أنني – بالضرورة – أخضع فيه لسلطة الغير، ومن حيث أنني لابد أن أعترف بهذه السلطة .

– « الأماكن العامة » : وهذه الأماكن ليست ملكا لأحد معين، ولكنها ملك للسلطة العامة (الدولة) النابعة من الجماعة ويمثلها الشرطي المتحكم فيها . ففي كل هذه الأماكن

[1] . محمد بوعزة . تحليل النص السردي، تقنيات ومفاهيم ؛ الدار الأمان . الرباط 2010 ؛ ص 107 .

هناك شخص يمارس سلطته، وينظم فيها السلوك، فالفرد ليس حرا، ولكنه « عند » أحد يتحكم فيه .

– « المكان اللامتناهي » : وهو المكان الذي لا يخضع لسلطة أحد، ويكون – بصفة عامة – خاليا من الناس، مثل الصحراء والبراري .

هذه الأماكن لا يملكها أحد، وتكون الدولة وسلطتها بعيدة بحيث لا تستطيع أن تمارس قهرها، ولذلك تصبح أسطورية نائية . وكثيرا ما تفتقر هذه الأماكن إلى الطرق والمؤسسات الحضارية، وإلى ممثلي السلطة . فهذه الأماكن تقع بعيدا عن المناطق الآهلة بالسكان .

ب) أشكال الزمان :

لقد استطاع الإنسان تحديد العلاقة بين الأجرام السماوية وأثرها على الأرض فاخترع الأدوات المختلفة لقياس الزمن، وأمكنه جهده من تحديد الزمن الميقاتي من خلال الساعات التي وضعها لقياسه، وبالتالي أتاح له حصر بدايته ونهايته على سطح كوكب الأرض " كل ذلك يحدد أشكالا مختلفة للزمن، فالليل والنهار زمنان ميقاتيان وكذلك الصيف والشتاء والربيع والخريف أي الفصول، وهذه الأشكال تحكمها ... الجاذبية الأرضية وجاذبية الكواكب الأخرى لأن الجاذبية هي الحقيقة التي تجعل من النظام الكوكبي أو النظام الزمني نظاما مستمرا أو محددا " [1] .

والجاذبية نظام وطيد العلاقة بالزمن، كما أنه لكل كوكب من المجموعة الشمسية جاذبيته وزمانه ؛ والعلاقة التي تربط بين أزمنتها تسمى بالزمن الكوكبي أو الكوني، كما هنالك الزمن الإنساني الذي هو تعبير عن تغيرات الجسم ووجوه نشاطه إبان الحياة ؛ والذي يتميز بنوعين :

[1] . المرجع السابق ؛ ص : 12 .

– زمن فيزيولوجي (النمائي) : يبدأ منذ تكوين الإنسان من نطفة ثم ولادته إلى غاية نهايته .

– زمن سيكولوجي (نفسي) : وهو الإحساس المتغير اتجاه الأشياء وما ينتاب المرء من اضطرابات نفسية في تعامله مع الآخرين .

وتعد الأحلام المنفذ الوحيد لحياة ما وراء الشعور خاصة عند الأطفال، للخروج من إطار سيطرة الزمن إلى تخيل الكثير من التصورات غير المحددة ؛ وهي بالنسبة للكبار – فوق المعتاد – غوص في المجهول وحالة مرضية فتاكة لروح الإبداع والابتكار .

ومن ناحية أخرى فإن الحرص على تأريخ الأحداث والانجذاب إلى الماضي لأمر ممقوت مضبط للعزائم، ونظام رتيب " يحكم حياة البشر ويسيرهم ضمن خط مستقيم من الماضي إلى المستقبل دون أن يتيح لهم مجالا للتنبؤ القادم أو العودة متى يشاؤون لذلك " [1].

3- أهمية دراسة المكان والزمان :

إن ذكر الأمكنة في الرواية هو الذي يجعل من أحداثها بالنسبة للقارئ شيئا محتمل الوقوع، " فالمكان هو الذي يؤسس الحكي لأنه يجعل القصة المتخيلة ذات مظهر مماثل لمظهر الحقيقة " [2] .

وفي وصف المكان يتم حصر الرواية في عصرها وبيئتها، ومن خلال سيرورة أحداثها يمكن معرفة عادات أبطالها أفرادا وجماعات وطرق عيشهم وتفكيرهم وما مقدار سعادتهم وبؤسهم في الحياة .

---

[1] . المرجع السابق ؛ ص : 19 .

[2] . حميد لحمداني . بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي . ص : 65 .

إنه كلما اتسع المكان فقد المرء الإحساس بوطأة الزمن، ويشعر بما يشبه الراحة ؛ والمكان الضيق يوحي بالاختناق الزمني والإحساس بالنهاية ؛ فهندسة المكان لها وقعها على العلاقة التي تجمع شخوص الرواية .

للزمن أهمية في الحكي، فهو يعمق الإحساس بالحدث وبالشخصيات لدى المتلقي ؛ وقد يميز الباحثون في الحكي بين مستويين للزمن، زمن القصة وزمن السرد " إن زمن القصة يخضع بالضرورة للتتابع المنطقي للأحداث بينما لا يتقيد زمن السرد بهذا التتابع المنطقي " [1] .

4 - صورة المكان :

4 - 1 جمال الفضاء :

فالكاتب هنا تستوقفه مثل هذه المواضيع وتسيطر على حواسه، كما أنه يمتلك القدرة على التفكير واستحضار المعلومات القبلية المنطبعة في ذهنه فيحسن الربط بينها والتعبير عنها مثلما هي عليها في بيئتها ويجتهد في تحديد عناصرها المميزة لها وإن كانت أمورا ثانوية . أمّا إذا تعلق الأمر بأشياء تخص حياته أو تمس مجال إبداعه في رسم المناظر الطبيعية أو وصفها بلسان القلم فإن لفرومنتان مقدرة على صناعة الأفكار الجديدة مما يشجع مواهبه في طرق شتى المسائل وإثرائها انطلاقا من موروثه الثقافي وتجربته الذاتية، فقد ربط رحلته الاستكشافية للجزائر والبحث عن الشهرة بأمجاده المغامرين البحارة الأوائل من اليونان واللاتين* الذين سلكوا البحر على متون السفن واستقروا قديما بشمال إفريقيا آذانا منه بالعودة إلى الوطن

---

[1] . المرجع السابق ، ص : 73 .

* كانت تقطن ايطاليا في فجر التاريخ أمم مختلفة من بينها الإغريق واللاتين . والرومان أمة من اللاتين ... وقد كان حد حكومة الرومان بالجزائر في القرن الأول للميلاد يمر شمال الأوراس ويجتاز سهول سطيف وبجاية إلى صور الغزلان ثم يتوسع قليلا فيمر بالبرواقية وساحل شلف ويجتاز وادي ميناس إلى ناحية غليزان ووادي سيف . وفي غربي وهران يقترب جدا من البحر وينتهي بمصب نهر ملوية ... (و) السبب الحقيقي لسقوط الحضارة اللاتينية بالجزائر هو عدم إقبال البربر عليها (نظرا) لـــ: ترفع الرومان وسياسة الضغط على البربر وذلك باستعبادهم وعدم العناية بهم. (مبارك بن محمد الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث . ج 1 . المؤسسة الوطنية للكتاب . ص 242 . 256 . 319) .

المفقود والارتماء في أحضان طبيعته الساحرة " وعليه إذا وا حسرتاه على كل الذكريات التي تركت في هذه الأماكن البطولية من قِبَلِ الملاحم اليونانية واللاتينية . " [1] وهنا يلاحظ أن فرومنتان قد افتتح كتابه بالحديث عن لحظات تاريخية أسطورية تعظيما للذات، كي يمنح لنفسه شرف الانتساب إلى الحضارة الإغريقية القديمة بصفتها مهد القوة والمغامرة والتحضر والإبداع والتي سيطرت على حوض البحر الأبيض المتوسط وجزء كبير من اليابسة خاصة ناحية الشرق من آسيا " هاهي أوروبا تحنّ إلى أصولها اليونانية والرومانية بصفتها مرتكزا ثقافيا وحضاريا وإنسانيا، بعدما حاولت روما أن تنهل من الشرق عناصر ثقافتها وميثولوجيتها ... ومن هنا نستشف من هذا أن فكرة الغرب الحديث المستعلي المتمركز على ذاته الذي يشعر بتضخم الذات لم تنشأ دفعة واحدة، وإنما هي وليدة تراكمات تكدست فوق بعضها البعض على مر العصور، يمتزج فيها الأسطوري بالديني والتاريخي بالسياسي والثقافي بالعرقي " [2] رغبة في التميز الثقافي وإخلاصا للهوية على حساب الشرق العربي المسلم وما يعانيه من دياجر التخلف والهوان .

وهكذا استعاد الرحالة " رغبة دفينة تراكمت عبر التاريخ لإظهار صورة محددة للشرق تطابق ما تشكل من صورة له في المخيال الغربي " [3]، فالكاتب رغم مشقة سفره وصل إلى شمال إفريقيا قادما إليها من فرنسا، إشارة منه إلى قرب طرفي اليابسة وذلك باجتياز البحر الشهير (المتوسط) في ظرف ست وأربعين ساعة . " جئت إلى الجزائر طالبا للقرب أكثر لأنه هكذا أتفهم الترحال . " [4]

لقد لجأ الكاتب إلى الوصف مجسدا به مظاهر الأشياء والأشخاص، فقام بتصوير الطبيعة تلك المرآة التي يمكن للرومانسيين أن يروا من خلالها معاني الوجود في أنقى صوره بحثا عن

---

[1] . Ibid : P 01 . 02 .

[2] . جمال مباركي . الغرب في الرواية العربية الحديثة . بحث لنيل درجة دكتوراه . جامعة باتنة ؛ السنة الجامعية 2008 - 2009 . ص 20 .

[3] . عبد الله إبراهيم . الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة . المركز الثقافي العربي المغرب . لبنان . ط 1 ؛ 1999 . ص 186

[4] . Une année dans le Sahel . P 04 .

الذات في المحيط الطبيعي وتمكين الخيال من الربط بينهما، ولعل أقرب الفنون إلى الأدب هو فن الرّسم الذي انعكست أشكاله وألوانه في أسلوب فرومنتان " ولم يكن أسلوبه في كتابة الحقيقة إلا انعكاسا لما يمتاز به كرسام يتقن ما تلتقطه العين وتسمعه الأذن ويلح على الدقة والتفصيل في رسم الأشكال والألوان ... " [1] .

أ) منظر البحر وروعة الشمس :

لقد درس فرومنتان مظاهر الطبيعة الجزائرية وقام بمراقبتها وكشف أسرارها بحثا عن عالمها الحقيقي ليسّجل عن طريق ملاحظته الواعية تفاصيل ما شاهده من أشياء موجودة في هذه البيئة ومناخها المبارك " ... الذي يقولون عنه أنه غير قابل للتلف سآخذ العادات التي توطّد العلاقات حصريا وتربطني مودة بالأماكن، سأغرس ذكرياتي كمن يغرس شجرة لأجل السكن بالقرب منها أو تتجذر على البعد في هذه الأرض المتبنية " [2] لذا نجده قد عاهد نفسه لأن يجعل من هذا الجمال الفاتن عامل تجديد لحياته " هنا كما في أماكن أخرى، حالة السماء معتدلة بطريقة معصومة ... ناولت بدني وروحي شفقة هذه الطبيعة الخارجية التي أحب، ... أنا سعيد لسماع الصدى القويم . أنا استنتج أن شبابي لم ينته بعد ... " [3] فرأى البحر معبر الناس والبضائع من البر وإلى البر " هو ما كان عليه يمكن القول أنه كل الخير وكل الشر محتمل فيه كما أنه لا يزال أكثر جمالا وزرقة وربما الأكثر غدرا من بحار العالم ." [4] كما أَلِفَ هدوءه وصخب أمواجه وتأوهاتها " البحر يهز المشاعر . إني أسمعه يزمجر في الرحب " [5] ؛ وفي هذا الشأن نجد كلمة « البحر » قد تكررت في الكتاب سبعا وخمسين مرة وذلك حسب الجدول الآتي :

---

[1] .عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا. مشروع لنيل شهادة ماجستير 2005. ص27

[2]. Une année dans le Sahel . . P 08 .
[3]. Ibid : P 73 .
[4] . Ibid : P 2 .
[5] . Ibid : P 121 .

الصفحة	02	03	04	05	06	10	13	22	42	44	46	51	57	76	77
عدد المرات	02	02	02	01	01	01	01	02	01	02	01	01	01	01	01

الصفحة	79	90	91	112	120	121	122	124	125	126	128	129	130	131	132
عدد المرات	01	01	01	01	01	01	01	01	02	02	01	01	02	01	02

الصفحة	152	154	169	217	218	220	224	226	246	264	295	298	305	345	346
عدد المرات	01	01	01	01	01	02	01	01	01	01	01	01	01	01	01

الصفحة	347
عدد المرات	02

وعن الشمس خزان توليد الحرارة والنور وصفها بأنها : " تخترق بهدوء الامتداد دون بقع " [1] مسجلا عنها انطباعه بقوله : " الشّمس كانت أكبر محسن في العالم بعد « الله » كما قلنا من خلال الميزة الوحيدة من ضوئها ؛ إنها تغيّر الندى إلى مطر من فضة . " [2]

ومما زاد انبهاره ضوء الشمس المتلاعب " إنه إسراف من ضوء شمسي يزداد من خلال الانتشار " [3] فالرسام فرومنتان يعارض كل من يدّعى أنه باستطاعته رسم الضوء في هذه البيئة، لما له من صعوبة في تطبيقه على ألواح الرّسم في حين أن الظل سهل المنال تستوعبه الألوان وتتقاطع معه في ألفة وانسجام فاتن .

---

1 . Ibid : P 76 .
2 . Ibid : P 281 .
3 . Ibid : P 267 .

والواضح أن فرومنتان ملم بتقلبات الطقس* من كثرة ترحاله سيرا على الأقدام أو على حصانه، عبر المدن والمناطق الريفية فهو يدرك أنه إذا زاد البخار في الهواء في الأوقات الدافئة حصل الندى والضباب والسحاب ثم كان المطر والثلج والبرد والصقيع " رطوبة الليل تلطف الأرض في انتظار المطر " [1] وتنبّؤه بهذه الظاهرة المناخية لم يكن وليد الصدفة بل عن تجربة وصدق شعور " كان هنالك ثمانية أيام والوقت يستعد إلى التغيير، الهواء أصبح جد مجلجلا للبقاء طويلا رائقا . والسماء ذات زرقة خاصة لا تسمح أبدا من الاعتقاد في فترة جميلة من اليوم، هذا هو التفرّد لكن نميّزه مع القليل من التعود، باطني أيضا أشعر قرب المطر عبر إحساس أولي الذي ليس له توهم ." [2] فبعد اشتداد هبوب الرّيح وتراكم السحب يترل المطر الذي هو أهم عناصر المناخ لأن الماء سر الحياة " جميل جدًّا المنظر الطبيعي غير وجهه وجميع الريف عاد أخضر ... بفضل الكمية الهائلة للأمطار المتهاطلة ... " [3] .

ب) النبات :

وبسبب المطر نما الغطاء النباتي الذي لم يغفل فرومنتان عن ذكره فتحدث عن العشب والسنابل والشجر المثمر وغير المثمر والخضروات والفواكه معرفا ببعض ما ارتبط بهذه البيئة كالنخلة " أنت تعرفها إنها هنا دائما الساق مسوّر في كومة من الجبس الذي ينقص من شأنها ويمنعها من الموت، أغصانها العريضة لا تتخضر أبدا، السوداء منها دخان تحوم حول رأسها العقيم، المطر البارد لفصول الشتاء القاسية يقلص أوراقها كظهر القنفذ . إنها تبدو إلى

---

* للطقس ستة مكونات: درجة الحرارة، الضغط الجوي، الريح، الرطوبة، الهواطل والتّغيم . تصف هذه المكونات مجتمعة الطقس في أي وقت من الأوقات.

– يؤثر الطقس علينا بطرق عدة، فتغيرات الطقس من يوم إلى يوم، تؤثر على حالتنا النفسية وعلى الطريقة التي ننظر بها إلى العالم . (ش. بدران . أطلس العالم . أطلس جغرافي مصور . مطبعة الأرز . بيروت – لبنان . 01 / 08 / 1996) .

[1] . Ibid : P 17 .

[2] . Ibid : P 118 .

[3] . Ibid : P 126 . 127 .

الشعب الذي غرسها مثلها، إنه حزين لكن صلب ربما بقي على قيد الحياة ... " [1] ؛ فقد استثمر صورة هذه النخلة المسعفة على أن شعبها الذي أصابه السقم، لا يقل عنها شأنا، نظرا لعجزه وتردي الأوضاع من حوله بما لا يدل على امتثاله للشفاء .

أو على قبيل ذكره لشجرة الزيتون المباركة " نحن عِشْنَاهُ في الظل نتكئ على جذوع الشجر، ممددين على العشب القصير ونتحدث عن الذكريات القديمة ناظرين من حولنا سقوط ثمار الزيتون البريّ التي حرّك ريح الربيع أغصانها ؛ بإمكاننا أيضا هذه اللحظة الحلم في بعض الشيء من الجدّيّ والكبير في ظل هذه الأشجار الجميلة المثقلة بالسنوات ... " [2]، وهنا أشاد فرومنتان بشجرة الزيتون المتجذرة في التربة والتي تعمر طويلا، بما توحيه من صمود أمام تقلبات الزمن في تحد وكبرياء من أجل البقاء وإثبات الذات .

4- 2 منطقة السهل :

ومن المواقع التي خصها الكاتب بحديثه منطقة « السهل » وما ضمت من مناطق ريفية وأودية معروفة، " أنظر السهل ! الأفق رائع الامتداد، من العظمة ومن الاتزان، المسافر يبقى متعلقا به، حتى بعد مشاهدة أكثر من صورة نادرة ." [3]

والظاهر " أن أول ما واجه التوسع الاستعماري في الجزائر بعد احتلال مدينة الجزائر مباشرة هو سهل « متيجة » والذي عرف أيضا بفحص الجزائر " [4]، سعيا منه إلى السيطرة عليه بإحراز التقدم في استغلال الأرض خارج مدينة الجزائر قصد التصدي لحركات المقاومة وتضييق الخناق عليها بقطع الإمدادات عنها لإخماد نيرانها من جهة، وبلوغ المناطق الداخلية تدريجيا من جهة أخرى .

---

[1] . Ibid : P 44 . 45 .
[2] . Ibid : P 188 .
[3] . Ibid : P 154 .
[4] . إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر . ص 71 .

كما أن فرومنتان تحدث عن مدينة « قصر البخاري » في إيجاز، والتي عدّها مركز عبور وإقامة للأشخاص والقوافل، حيث أنها تضم فندقا ومقهى ومرافق أُخر لاستراحة الوافدين إليها من كل اتجاه ؛ والتي على قرب منها تظهر قلعة « بوغار » العسكرية الحصينة والمعدة أساسا لغزو الصحراء .

وعلى خط سير الكاتب يلاحظ أنه مر بـــ « الجلفة » موطن « أولاد نائل » وقضى بها عدة أيام متمتعا بجمال مناظرها، مرتبطا بكل المناطق التي زارها عاطفيا، مدافعا عنها في كتاباته كأرض يراها ملكا له، مخلصا في ذكر التفاصيل عنها بكل دقة " إن كل أماكن لحظات عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها من الوحدة والتي استمتعنا بها ورغبنا فيها وتآلفنا مع الوحدة فيها تظل راسخة في داخلنا، لأننا نرغب في أن تبقى كذلك ؛ الإنسان يعلم غريزيا أن المكان المرتبط بوحدته مكان خلاق ؛ يحدث هذا حتى حين تختفي هذه الأماكن من الحاضر ... " [1]

وعن مدينة « الأغواط » فهي تقع في الجنوب من مدينة الجزائر، وتعتبر همزة وصل بين الشمال والصحراء " وقد كانت ملتقى العلماء ورجال الدين ومقصد التجار مما جعل الميزابيين واليهود يحطون بها الرّحال منذ القديم ليحترفوا بها التجارة ويشتغلوا في الصناعات المختلفة . وقد كانوا يعيشون جنبا إلى جنب مع الأغواطيين تجمعهم مدينة واحدة وعلاقات مشتركة مبنية على حسن الجوار وتبادل المصالح والمنافع . " [2] وكان من بين الأهداف العسكرية من احتلال الأغواط، هو التوغل في الصحراء وإخضاع مدنها إتباعا إلى نهاية القرن التاسع عشر . في حين أن زيارة الكاتب لهذه المدينة الإستراتيجية هو اكتشاف الصحراء بعد تيقنه أن الأغواط أصبحت تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي نهائيا سنة 1853 .

---

[1] . غاستون باشلار . جمالايات المكان ؛ ترجمة : غالب هلسا . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2 . 1984؛ ص 40 .

[2] . عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا. 2005 . ص 66

4 - 3 الصحراء :

وعلى نقيض البحر نجد الصحراء " استمعت إلى هذا الاسم العجيب « الأغواط » وإعادة تكراره لي المرة الأولى من عربي ينطق أمامي مع هذه اللهجة الناعمة والفخورة الخالصة من رجل يتحدث عن بلده إلى الغرباء؛ سألته عدد أيام السفر . فقال لي عشرة أيام إلى « بوغار » ويومين من « بوغار » إلى « المدية » – وكيف هي الطريق ؟ – أدْلى بالإشارة التفضيلية (اللافتة) عند العرب، يبيِّنُ لي الطريق الوحيد التي تمر بالقرب من المخيم، يبسطُ ذراعه بلا نهاية لتوضيح المسافة الغامضة لمسير عظيم، وقال لي : انظر هذه الصحراء* – كما لو كان لا يوجد في العالم أكثر جمالا في عين رجل إلى فراغ فسيح لأفق مستو " [1] . وفي تجسيد الحلم إلى حقيقة زار الصحراء ليستقر في الأغواط التي خصها بمذكرة تحت عنوان : « صيف في الصحراء Un été dans le Sahara »، هنالك أحس بالظمأ القاتل والحرارة الشديدة وعلى أنها قفر متواصل يصعب التأقلم معه، " وعلى العموم فإن نظرة فرومنتان إلى الصحراء ووصفه لها لا يدل على أنه خلاء كامل ... حيث ينظر إليها على النحو التالي :

- قسم مكون من مناطق غير مأهولة بالسكان .
- قسم مكون من مناطق كثيرة السكان .
- قسم مكون من مناطق قابلة للسكن مؤقتا وخاصة بعد سقوط الأمطار .

والصحراء تحديدا تبدأ حسب فرومنتان من مدينة قصر البخاري وهي تضم صنفين من السكان متكاملين، الأول يتكون من السكان المقيمين في مراكز ثابتة بالمدن والقرى والبساتين المعزولة ويوجد هؤلاء السكان في الأماكن التي يتوفر فيها الماء باستمرار أما الصنف الثاني

---

* جاء في « لسان العرب » مادة « الصحراء » : الصحراء من الأرض المستوية في لين وغلظ دون القفر وقيل الصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد ليس بها شجر ولا إكام ولا جبال ملساء . وأصحر القوم إذا برزوا إلى الفضاء لا يوارهم شيء .

[1] . Une année dans le Sahel . P 233 .

فيتكون من البدو والرّحل الذين يعيشون تحت الخيام، الأول يعيش من الفلاحة والثاني من الرعي، وأن هذين الصنفين من السكان يكوّنان مجتمعا متآلفا متوافقا على المصلحة المشتركة " [1] الأمر الذي دفعه إلى التوجه إلى الشمال مجددا هروبا على حد تعبيره من الصيف وحرارته اللاذعة " وعلى صرخة رجل متعطش مدّة ثلاثة أشهر تقريبا من العطش المستمر ؛ عدّت منهزمًا، أستطيع قول ذلك عبر هذا الظمأ القاتل، ومدفوعًا نحو الشمال عبر لا أعرف أي رغبة من غير المعقول أن نرى المياه العذبة للشرب وللغطس " [2] .

ويُلاحظ أن فرومنتان لم يفصّل في وصفه الصحراء ومرد ذلك كما سبق التنويه به أنه خصها بمؤلف منفرد عن كتابه « سنة في السهل » بل تحدث عن وهج شمسها " توقفت من تسجيل درجة الحرارة من مغادرتي الأغواط، هذا الذي أذكره، ذلك أن درجة الحرارة سجلت 50^{o} درجة أقل من اليوم العاشر . يوم رحيلي في الوقت حيث امتطت الحصان . إنها الشهادة التي أحفظها كبرهان عن الطقس الذي أثناء الأيام الأخيرة بدا لي مرعبا " [3] .

فالشمس هي التي منحت للصحراء خصائصها الجغرافية المتميزة وكان لها الأثر العميق على الطبيعة والحياة، فالصحراء هي مملكة الشمس الخالدة " بصيفها الأبدي وفضاءاتها القاحلة المعزولة المحترقة التي يلفها صمت مطبق، ويجثم عليها جوّ خانق مميت، التي تسمى بحق بلد العطش " [4] . لذا نجد الكاتب في كتابه ردد لفظ الشمس أربعا وثمانين مرة مبديا إعجابه بها كونها مصدر اللهب والنار والحرارة ليرد ذكرها عبر صفحات الكتاب المدروس حسب الجدول التالي :

---

[1]. عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا .ص 56

[2] . Une année dans le Sahel . P 235 .

[3] . Ibid : P 236 .

[4] . Un été dans le Sahara . P 70 . 74 .

الصفحة	10	12	13	16	18	19	31	37	42	43	47	48	51	76	80
عدد المرات	01	01	01	01	01	01	01	01	01	01	01	02	01	02	01

الصفحة	81	88	98	99	121	122	125	130	136	139	140	146	171	176	179
عدد المرات	01	01	01	02	01	01	01	02	01	01	01	01	01	01	01

الصفحة	184	185	187	190	195	204	205	213	219	222	226	227	236	238	241
عدد المرات	01	01	03	01	01	01	01	01	01	01	01	01	01	01	01

الصفحة	243	246	257	258	259	267	269	271	272	280	281	282	283	286	291
عدد المرات	01	01	01	02	02	01	03	01	01	01	02	01	01	01	01

الصفحة	298	300	303	304	310	325	327	330	343	347
عدد المرات	01	02	01	01	01	01	01	01	02	01

ومن « الأغواط » شق طريقه نحو الشمال برفقة أحد أدلاء الصحراء « باش عمّار » الذي أرشده إلى منبع ماء نال إعجابه " إنَّه خزان من الماء الصافي، عميق، بارد، ظليل من خلال أشجار كبيرة ومريح كما في سلة في وسط من نبات الدفلى كلها متهللة ... وعند أول حركة من الارتشاف مخففة، قلت للصحراوي : أنت صادق، بلدك أنه الأكثر جمالا في العالم " [1] ؛ وما هذه إلا رسالة للقارئ الأوروبي يُعرفه من خلالها بمزايا الحياة بين التل والصحراء والحد الفاصل بينهما منطقة « قصر البخاري » فالصحراء فراغ شاسع على امتداد البصر وحرارتها لا تطاق وسكانها تبدو على هيئتهم آثار قسوتها " رأيت مظهرهم من

[1] . Une année dans le Sahel . P 238 . 239 .

ملبسهم ولون بشرتهم الأكثر غموضا إلى أعينهم الأكثر شراسة إنَّهم صحراويون " [1]، كما طمأنهم بالمستقبل المحتمل للإقامة في « الأغواط » والخبر اليقين عن الثائر « سي الشريف »* الذي أخضع سكان هذه المنطقة وما جاورها تحت راية فرنسا لتجعل منها بلدة آمنة حتى من سخط المناخ لصالح أهلها ومن تتوق نفسه لزيارتها وبالمقابل أشاد بالطبيعة بدءا من شمال « المدية » " الآن حينما رأيت الصيف عنده. في مملكته، لا شيء أتعلمه ولا أنتظر أيَّ انفعال جديد من طقس نسبيا متقلب حيث الشمس مثل الطيور المهاجرة، فصول للظهور وللرحيل، إنها جميلة لكن ليست كجمال الجنوب ." [2] لقد مرّ الكاتب على « المدية » واستوقفته أراضيها الفلاحية العطشى إلى ماء المطر " الحرارة كانت في أقصى حد لها، حتى في مأوى غاب الجبل، أشجار الصنوبر تفوح منها رائحة خانقة من مادة صمغية وصراخ الحشرات، في عراك على انهيار الشُعب الشائطة ... " [3] ليطيب له المقام في البليدة " ... الحياة مناسبة والطقس صحي والفصل مترفّق ... هكذا انفتحت أيامي ... إنها ليست غلطتي إذا كانت الطبيعة تغزو في هذه النقطة كل ما أكتبه لك . لقد أعطيتها هنا الجزء الأوفر الذي هو من خاصة حياتي . اشتغل في وسط المشاعر الرشيقة . أنتج في عدم انقطاع لكي أكون في صلة مشتركة مع الذين يحيطون بنا، خادم من منظار لهذه الأشياء الخارجية، لكن في طواعية ودون الخضوع لهم." [4] فمن خلال خطابه، يلاحظ أن أجواء الطبيعة وهو في شمال الجزائر قد أعادت إليه توازنه النفسي والجسدي بعد رجوعه من الصحراء، معلنا عزمه التغلغل أكثر في نسيج المجتمع الجزائري دون التأثر به أو التحلل فيه لفارق المستوى الحضاري كما يبدو من خلال حديثه .

---

[1] . Ibid : P 232 .

* يتمتع بجملة من الامتيازات ويمتلك سلطة استمدها من قوة الاستعمار الذي نصّبه على الأغواط ليؤدب أهلها الذين أصبحوا يهابونه كما فرض الرقابة على تحركات قبيلة " أولاد نايل " لما تشكله من خطورة على مصالح فرنسا بالجنوب .

[2] . Ibid : P 241 . 242 .

[3] . Ibid : P 238 .

[4] . Ibid : P 243 . 244 .

4 - 4 صورة العمران :

وعن البقاع التي شاهدها فرومنتان وكانت ضمن مجال رحلته الثالثة ؛ فإنه يذكرها على خط سيره ونظره بعد أن حصرها في ثلاثة مواقع أساسية هي : الجزائر العاصمة والبليدة والسهل ليصف فيها ما انطوت عليه من تضاريس وأمكنة متباينة، فذكر الجبال* كالأطلس وجبال القبائل وجرجرة وجبال أولاد نايل وسبع رؤوس والوانشريس والهضاب كهضبة البخاري وبوغار وقبر الرومية والسهول المترامية الأطراف كسهل متيجة والأودية كواد الجر والواد الكبير ووادي العقوم وواد غرير والصحراء الشاسعة، كما أشار إلى أسماء الأماكن المجاورة إلى العاصمة بورزيعة، الحراش، شرشال، تيبازة، الحامة، القصبة، حسين داي، باب عزون، باب الواد، باب الجديد، باب إيسلي، بير مراد رايس، نبع الماء الغزير (فوردولو) ضاحية آغا والجنينة وقصر البشوات وقلعة الإمبراطور وبرج الفنار وبرج مولاي حسان وإلى الشوارع الكبيرة بها كناحية مصطفى (أول مايو حاليا) وشارع سي محمد الشريف وشارع ريفولي ورأس ماتيفو وساحة حقل العمال إلى جانب ذلك المسجد الكبير والمحكمة ومقبرة سيدي عبد القادر وفي السوق هنالك المقاهي والحمامات والدكاكين ومحال الحلاقة إلى جانب ذلك البلدية (المعتمدية) وحديقة التجارب دون أن ننسى البيت مع حديقتيْه الذي استقر فيه وعدّه خاصته ونقطة انطلاق أتاحت له التجوال في الريف مكنته من التعرف على حياة التخييم قرب القرى والمزارع والحقول والدوّار وفي محيط البليدة تحدث عن سهلها " كان الصباح منعشا والنسيم باردا . كانت السماء ذات زرقة حادة وجميلة . استطعت أن ألمح وأقيس بنظرة واحدة محيط هذا السهل الرائع والذي كان يشكل وصقلية صومعة روما القديمة والذي سيصبح ملكنا عندما يأتيه فريق الفلاحين . كم أحب السهول، وهذا من الكبر

* مما لاشك فيه أن التلال والسلاسل الجبلية والبحيرات والأودية هي من أكثر معالم اليابسة لفتا للنظر وإثارة للإعجاب، لذا كانت " الجبال منذ البدء تسحر البشر وتفتنهم ... اعتبرت لقرون عدة إما نقاط اتصال بين الناس عوائق في وجه التبادلات التجارية . ولم تتغير نظرة البشر إلى الجبال إلا منذ أواخر القرن الثامن عشر . عندما بدأت الجبال تثير فضول العلماء وبدأ يقدرون جمالها الساحر الوحشي والأجرد في أحوال كثيرة ". (أطلس العالم . بيروت)

والاتساع ما لم أر قط في حياتي ." [1] وعن ما جاوره من بني مرّاد وواد العليق، باب السبت وسوقه ومنطقة علولة وبحيرتها الساحرة* إلى جانب ذلك الحجوط وموزاية وبني مناصر وبوفاريك ومنطقة شفّة وشنوة ومزفران وبعض الجهات كالمستنقعات والغابات والمنحدرات، ومما ذكره أيضا المدية وقصر البخاري وقلتة السطل والجلفة والشارف وبوسعادة والأغواط دون أن ينسى التذكير بقسنطينة وبسكرة وسيدي عقبة والزمالة التي زارها في رحلة سابقة .

والمطلع على رحلة فرومنتان يجده قد تكلم عن كل هذا تارة بصفة إجمالية مختصرة وتارة مفصلة حسب أهمية المنطقة وحجم المدينة وأهميتها التاريخية، وعلى العموم فإن " مدن شمال إفريقيا تأسست حول نواة مركزية يمكن تشبيهها بالخلية الأم التي تتكون غالبا من المسجد والمقبرة والسوق يحصّنها سور به أبواب يرسم حدود المدينة بكيفية دقيقة ... وبداخلها يظهر الحمَّام ببنائه المتميز وترتفع قصور جميلة يسكنها الأشراف والسادة " [2] .**

أ) الطابع العام لمدينة الجزائر :

الجزائر من أهم مدن البحر المتوسط ؛ بفضل موقعها فهي تمثل منطقة اتصال طبيعي بين أوروبا وإفريقيا ؛ عرفت عدّة حضارات منها الحضارة الرومانية (146م – 431م) والفاندالية (431م – 534م) والبيزنطية (534م – 647م) لتحظى بفتح عربيّ إسلامي كان فيه انتشار العربية بين البربر سريعا، ومن ذلك الحين أصبحت أقطار شمال إفريقيا ذات صلة وطيدة بالمشرق العربي " ولم يبق من حضارة الرومان والبيزنطيين غير خرابات عظيمة

---

[1] . Ibid : P 136 .

* بحيرة « علولة » تقع في الجهة الغربية الشمالية من البليدة وسط سهلها الفسيح . وتعد : " البحيرات من أجمل معالم الأرض الطبيعية وأكثرها فتنة وهي تربط غالبا بالمشاعر الرومانطيقية وبجو من الرضى والطمأنينة . والبحيرة بكل بساطة حوض مليء بالماء ليس له أي سبيل مباشر إلى البحر ؛ وفقا لهذا التحديد يمكن للبحيرات التي تمتلئ، إما بفعل الأنهار والجدوال التي تصب فيها وإما بفعل الهواطل، أن تتكون بطرق عدة ومنوعة ".(أطلس العالم. بيروت)

** مرفق ضروري عند المسلمين للاغتسال والوضوء من أجل تأدية الفرائض الدينية .

[2] . Roger Le Tournau " Les villes Musulmanes de L'Afrique du nord " Ma Maison des livres . Alger 1957 . P 11 .

وتذاكير للقوة الرومية " [1] ؛ ولقد ساس العرب البربر سياسة الإخاء والحرية والمساواة، ومن بلاد المغرب تمّ لهم فتح بلاد الأندلس فامتد بذلك العمران واختلطت الأجناس فتصاهروا وتساكنوا في المدن والضواحي، وعلى مرّ العقود تداعت أركان الخلافة وحلّت العصبية القومية محل العصبية الدينية من بلاد المسلمين مشرقا ومغربا لتشهد الجزائر عدة مماليك* تتناحر فيما بينها وتتوسع على حساب بعضها البعض، مما زاد في ضعفها وعجزها فكان زحف الحفصيين على المغرب الأوسط الذين رفضهم رؤساء الثعالبة " وكانت الجزائر تدعى جزائر بني مزغنة إضافة إلى أهلها من صنهاجة، قال البكري : « وهي مدينة جليلة قديمة ذات آثار وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة للأول وصحن دار الملعب فيها مفروش بحجارة ملونة صغيرة مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل لم يغيرها تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجد جامع، وكانت بها كنيسة عظيمة . بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب مفصص كثير النقوش والصور وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين » " [2] .**

عقب ذلك بدأت التحرشات الأسبانية والبرتغالية على سواحل المغرب مما استدعى الاستنجاد بالعثمانيين الذين اتخذوا مدينة الجزائر مقر خلافة ودار سلطان لهم ؛ " ... وقد ظل

---

1. مبارك بن محمد الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث . ج2 المؤسسة الوطني للكتاب . الجزائر ؛ ص 41 .

* من بينها الدولة الرستمية (776م – 909م) والدولة الادريسية (788م – 923م) والدولة الأغلبية (800م – 909م) والدولة العبيدية « الفاطمية » (909م – 972م) والدولة الزيرية « صنهاجية » (972م – 1014م) الدولة الحمادية (1014م – 1153م) الدولة المرابطين (1079م – 1145م) الدولة الموحدية (1130م – 1269م) الدولة الحفصية (1229م – 1536م) الدولة المرينية (1229م – 1393م) دولة بني عبد الواد الزيانية (1235م – 1554م) [ينظر: عبد الرحمان بن محمد الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . دار الأمة . الجزائر ؛ ج1 و ج2] .

** نسبة لعبد الرحمن الثعالبي دفين مدينة الجزائر الشهير، والذي لا يزال ضريحه إلى اليوم حجة للزائرين ولد 786 (1384) بمنطقة واد يسر بالقرب من مدينة الجزائر وهو ينتمي إلى قبيلة الثعالبة العربية التي كان لها سلطان وفروع حول ساحل مدينة الجزائر وجبالها ... تلقى العلم على مشائخ بجاية وتونس وعلماء مصر وتركيا والحجاز وافته المنية 875 (1471) ... كان عصره عصر اضطراب سياسي واجتماعي فكانت الجزائر على عهده مقسمة بين بني حفص في الشرق وبني زيان في الغرب وكانت مدينة الجزائر وما جاورها من مناطق الوسط ميدان نزاع بين الدولتين المذكورتين (ينظر : د. أبو القاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1 . دار الغرب الإسلامي بيروت 1990 ؛ ص 202)

2 . المرجع السابق . ص 444 .

الجهاد هو العامل الموحد الأساسي بينهم وبين الجزائريين " [1] " ومن ذلك الحين أصبحت الجزائر تركية " [2] ؛ لتتحول في مدة قصيرة إلى قوة بحرية صامدة قرابة ثلاثة قرون " وعلى كل فإن الفترة الأولى من الحكم العثماني للجزائر امتازت بشيوع العمران وتطور الزراعة بفحص* مدينة الجزائر، وكان ذلك نتيجة للظروف الملائمة المتمثلة في أرباح الجهاد البحري التي مكنت كثيرا من الحضر والأتراك حيازة الضياع خارج مدينة الجزائر والانتقال إليها بعد أن ضاقت المدينة بجماعات الأسرى والعبيد، كما كان من نشاط المهاجرين الأندلسيين دَخْلٌ في ازدهار فحص الجزائر في هذه الفترة، إذ يعود إليهم الفضل في استصلاح الأراضي بسهل « الحامة »، وغرس الأشجار المثمرة بنواحي « بئر الخادم » و« بئر طويلية » و« الثغريين » حيث أصبحت أغلب الأراضي الزراعية بهذه الجهات ملكا لأفراد الجالية الأندلسية ... " [3]

والمتأمل للخلافة العثمانية في الجزائر يجدها قد قامت في بدايتها على الجهاد والتعاون المتبادل لمجابهة الحملات الصليبية وصدّها عن بلاد العرب والمسلمين ففرضت بذلك سيطرتها العسكرية والسياسية والاقتصادية على البحر وسارت في طريق النمو والغنى حتى أصبحت من بين المدن الأكثر قوة والجديرة في حوض البحر المتوسط في زمن استقرارها لتنال بذلك ألقابا مختلفة " ففي نظر الأوروبيين هي مركز الرعب وقد دعوها بأسماء مختلفة مثل جلادة المسيحية وعش القرصنة وغير ذلك من الأسماء التي كانت تثير عندهم الخوف والاحترام والكراهية أيضا ... أما عند المسلمين فهي الجزائر المحمية والبيضاء والمجاهدة والمحروسة وغير ذلك من الألقاب الدينية والحربية ." [4] إلا أن ذلك لم يدم على حاله بتعاقب الزمن، لتتفجر

---

[1] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج1 ؛ ص 141 .

[2] . مبارك بن محمد الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث ؛ ص 444 .

* فحص مدينة الجزائر : يتشكل من المنطقة الشرقية لإقليم الساحل التي تؤلف في حد ذاتها حاجزا طبيعيا بين ساحل البحر وسهل متيجة الأوسط بأوديته وهضابه العديدة التي يبلغ أعلى ارتفاع لها عند قمة جبل بوزريعة 417 م . (ينظر : د. ناصر الدين سعيدوني . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ؛ ج2 . ص : 141)

[3] . د. ناصر الدين سعيدوني . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة ؛ ج2 . المؤسسة الوطني للكتاب ؛ الجزائر 1988 . ص 142، 143 .

[4] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج1 ؛ ص 169، 170 .

الأوضاع داخليا وخارجيا* مع مطلع القرن الثامن عشر " نتيجة سوء تصرف الحكام وانعدام الأمن وشيوع الاضطراب الذي ارتبط بظهور الأمراض الفتاكة والآفات الطبيعية المدمرة ... فكانت النتيجة المباشرة لهذه الكوارث الطبيعية والأمراض الخطيرة تشتت وهلاك كثير من سكان فحص الجزائر، واشتداد الضائقة الاقتصادية بفعل غلاء الأسعار وشح الأقوات وإتلاف المزروعات ... ومع هذا التقهقر العمراني والانكماش الاقتصادي الذي عرفه فحص الجزائر أواخر العهد العثماني فإن المظهر العام لفحص الجزائر عشية الاحتلال كان يتميز بمنازله الريفية التي تحيط به الأسوار العالية وتنتشر حولها البساتين والحدائق، وقد أثر هذا المنظر في بعض الكُتاب الفرنسيين المصاحبين للجيش الفرنسي الغازي 1830م، فوصفوا الفحص بأنه من أكثر جهات العالم انشراحا وبهجة " [1].

إن مدينة الجزائر هي التي سحرت الفرنسيين حتى أطلقوا عليها اسم المدينة البيضاء نظرا لأن عددا كبيرا من مبانيها قد طلي باللون الأبيض وعملوا كل ما بوسعهم للبقاء فيها ؛ حيث " أبدوا إعجابهم بتلك المنازل الريفية التي كانت تنتشر على المنحدرات المواجهة بفحص « باب عزون »، أو بأعالي « بوزريعة » وهضاب « الأبيار » و« مصطفى » و« القبة »، أو في منعرجات أودية « بئر الخادم » و« بئر مراد رايس » ... " [2]

وهذا ما لفت انتباه فرومنتان حيث رأى أن مدينة الجزائر الساحلية تقع فوق جبل وسْط بوزريعة والحراش والحامة وغيرها من التجمعات السكانية التي تظهر على البعد من

---

* كان ذلك نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر حيث عانت الجزائر الكثير من الصعوبات لتجد نفسها طرفا في الوضع الأوروبي المتفجر بسبب عوامل كثيرة منها : – نقل نابليون بونبارت حروب الثورة الفرنسية إلى الضفة الجنوبية من بحر المتوسط – دخول الجزائر الحرب مع مصر والدولة العثمانية وقطع علاقتها مع فرنسا – سياسة الحصار المفروضة على المتوسط وتحول طرق المواصلات التجارية عبر المحيط الأطلسي ورأس الرجاء الصالح بين أوروبا وآسيا – ظهور الولايات المتحدة الأمريكية في المتوسط – تنافس دول أوروبا على فرض سيطرتها في المتوسط وعلى العالم الإسلامي – التخلص من القوة البحرية الجزائرية – تراجع حركة التجارة الخارجية بسبب الوضع المتأجج في المتوسط – تردي الأوضاع الاجتماعية بسبب الكوارث الطبيعية والأمراض الخطيرة إلى جانب ذلك بروز بعض الانتفاضات المحلية بسبب قلة الأمن ... (ينظر : د. ناصر الدين سعيدوني . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ؛ ج2)

[1] . المرجع السابق . ص 143، 144 .

[2] . المرجع نفسه . ص 144 .

البحر " رأينا الأرض أول قمّة نراها هو الأطلس الهرم، ثم يظهر جليا على مقربة منها « بوزريعة » فالجزائر مثلث مائل للبياض على هضاب خضراء على وجه التحديد عند الظهر ألقيت المرساة تحت وقع مدافع البحرية وفي غمرة المياه الهادئة " [1]

وهي مدينة تحيط بها التلال الخضراء والغابات الكثيفة والمنازل ذات الطراز التركي المائلة بلطف نحو حوض الخليج بجُدُرِها البيضاء وسُقُفِها الحمراء على امتداد البصر، وفي الأفق الفسيح " فضاء كبير حيث تبدأ زرقة السماء حيث الهواء يهتز باستمرار إنه مدخل « متيجة » على كل حال معد إلى أقصى الشرق، السلسلة المسننة دائما زرقاء من جبال القبائل الراسخة عبر رسم عنيف، هذا الأفق الرائع من أربعين وحدة مكانية * " [2]

إنها مدينة مقوسة على طرف ساحلها تحيط بها أسوار وقلاع تركية لأجل حمايتها من الغزاة " إن أسهل طريق لزيارة الجزائر هو الطريق البحري وجميع الرحالة متفقون على أن المدينة تبدو في منظر عظيم من المكان الواقع خارج الرصيف البحري ... الذي شيده « خير الدين » لجعل أسطوله في مرفأ آمن ... ووراء هذا الرصيف البحري تقف أسوار المدينة الغاصة أيضا بالمدافع بالإضافة إلى وجود قلاع هنا وهناك لتعاون في الدفاع ضد المغيرين ." [3] فهي مستهدفة بسبب موقعها وجمالها الفاتن " مبسوطة الواجهة ومائلة على درجة شديدة الانحدار ... صديقي العزيز ! العرب يدعونها « البهجة » البيضاء وكما أنها أيضا اسم على مسمى والحق يقال أنها فقدت قيمتها إذ أنها فرنسية . السياج شامخ من أسوارها التركية هذا النطاق العتيق ملتهب وأسمر ومحطم من كل جهة وحاليا لا يحتويها على الأكثر كاملة " [4]

---

[1] . Une année dans le Sahel . P 04 .

* وحدة مكانية ما مقداره : 4 كلم .

[2] . Ibid : P 11 .

[3] . جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ترجمة أبي القاسم سعد الله تحت عنوان : الجزائر وأوروبا 1500 – 1830 . . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986 . ص 149 .

[4] . Une année dans le Sahel . P 11 .

فالكاتب لم يشك في نصاعة المدينة حين شاهدها من البحر وحتى عندما وطئت قدماه مرفأها المزين بالأعلام " جميع دول أوروبا والعالم يأتون اليوم عن طريق كل الرياح ربطوا سفنهم الحربية والتجارية في محط المسجد الكبير « برج الفنّار »* لا تفزع أحدا، ومزيّن بالأعلام من العلم ثلاثي الألوان شعار الانضمام لأيٍّ كان ." [1] وحتى يوم جاب شوارعها مشيا، لم يقلل من شأنها بل تأسف لكونها فرنسية بدأت تخضع لعملية البناء على الطراز الأوروبي الذي ازداد توسعا على حساب طابعها التراثي ونمط عمرانها التركي الشرقي " لا تزال الجزائر العاصمة والملكة الحقيقة للمغاربة لها على الدوام قصبتها كالتاج مع السرو، آخر معلم شبيه للحدائق الداخلية « لحسن داي » ... حتى لو فعلنا ما يمكن فعله فإنها لا تزال ولوقت طويل في توقعي « البهجة » بمعنى المدينة الأكثر بياضا في المشرق كله . " [2]**

ولابد من الملاحظة هنا أن « القصبة » تعدّ من الآثار الفنية الأصيلة التي وقف أمام أسوارها العالية الفنانون الفرنسيون يتزاحمون لاقتحام أسرارها وأزقتها معبرين عنها في لوحاتهم ومؤلفاتهم مظهرين دفائن كنوزها وجمالها كمنطقة من مدينة الجزائر العريقة، وقد أضفى المنظر الطبيعي عليها مهابة وجاذبية منقطعة النظير، وهذا ما يقع على نقيض ما أورده الكاتب الأمريكي وولف بقوله : " إن المدينة تعطي انطباعا يثير الإعجاب إذا نظر إليها المرء من جهة البحر، ... وتبدو المنازل متصاعدة على سفح الجبل وهي تشكل مدرجا ؛ وتظهر الأسوار والمنازل ناصعة البياض وسط أشعة الشمس الإفريقية، ... ولكن عندما يدخل المرء إلى الشوارع الضيقة فإنه يبدو واضحا أن مدينة الجزائر تَعِدُ ناظرها إذا شاهدها من بعيد أكثر

---

* حصن « البنيون » بناه الأسبان على جزر صغيرة بالقرب من أسوار مدينة الجزائر لمحاصرتها تمهيدا لاقتحامها، ولما طرد الأسبان منه تم توصيل تلك الجزيرة بمدينة الجزائر برصيف وبنيت منارة (فنار) البحرية التي لا تزال إلى اليوم تعرف ببرج الفنار .

[1] . Ibid : P 12 .

** حي القصبة العتيق يُعد النواة التاريخية بالجزائر العاصمة وهو يمثل المظهر الحضري القديم الزاخر بالقصور الأثرية والمناطق السياحية والأسواق الشعبية والذي يضم مسجد الجامع الكبير الذي يمثل إحدى روائع العمارة الإسلامية ومنارة العلم والدّين إلى اليوم .

[2] . Ibid : P 12 .

مما تعده إذا كان قريبا منها " [1] غير أن فرومنتان من الوهلة الأولى عند نزوله في مدينة الجزائر صرح قائلا : " كان الجوُّ حارًا وامتنعت الريح عن الهبوب . البحر كان أزرق داكنا والسماء صافية زاهية اللون لم أستطع تحديد رائحة الجاوي المنبعثة في الهواء، لقد دخلنا مناخا جديدا، بإمكاني معرفة هذه المدينة الفاتنة من رائحتها الزكية " [2] .

لقد أثرت الجزائر كثيرا في فرومنتان حتى أنه بعد أن رجع إلى الجزائر (العاصمة) وسكن قصرا بناحية مصطفى باشا، بدأ بالتعريف بالبيت والمحيط الذي يسكنه " المنزل الذي أسكنه رائع لقد وضع كمرصد بين التلال والشاطئ ويشرف على أفق مذهل : على اليسار الجزائر وعلى اليمين حوض الخليج بأكمله إلى حدّ رأس « ما تيفو » الذي يظهر عبر نقطة ضاربة إلى اللون الرمادي بين السماء والماء، وأمامي البحر . " [3] وبالمنزل إسطبل به خيول وحَمَامٌ وكلب حراسة، وتحيط به حديقتان، إحداهما صغيرة مشجرة والثانية روضة مروج للرّعي فسيحة ملك للكاتب وخادم عربي وجار بولوني .

ولعل فرومنتان حينما تحدث عن خاصته، البيت الذي يقطنه إنما يلوّح من بعيد عن الكنز الذي عثر عليه هنا سعيا منه إلى دعوة غيره في الهجرة إلى الجزائر وأن يحذوا حذوه في امتلاك البيوت والضياع وسط هذا الأفق المفتوح والطبيعة الساحرة .

لقد أحدثت السلطة الاستعمارية تغييرا كبيرا في الطابع المعماري لمدينة الجزائر " هنالك مدينتان في الجزائر : المدينة الفرنسية أو من الأفضل قوله : أوروبية التي تشغل المناطق المنخفضة وتمتد اليوم دون توقف إلى غاية ضاحية « آغا » والمدينة العربية التي لم تتعد حدود الأسوار التركية، ومكبّسة (مضغوطة) كما كانت من قبل حول « القصبة » ... فرنسا أخذت من القديمة المطوّقة جميع ما يناسبها، كل ما يمت بصلة للبحرية أو يتحكم في الأبواب كل ما هو تقريبا أفقي، ... ورمّمت الحصون مستبدلة حاجز الأمواج موسعة الميناء، لقد

---

[1] . جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ترجمة أبي القاسم سعد الله . ص 150 .

[2] . Une année dans le Sahel . P 04 .

[3] . Ibid : P 10 .

ابتكرت شارعا صغيرا « ريفولي » مع شوارع « باب عزون » و« باب الواد » وعمّرته ما بوسعها على الطريقة التقليدية الباريسية " [1]

ففي القسم الحديث من العاصمة تلتقي فيه مختلف ألوان العمارة الحديثة التي يغلب عليها الطابع الأوروبي في تناسق محكم بعماراته الشاهقة التي تتخللها الشوارع الواسعة والحدائق الغناء التي صممها مهندسون فرنسيون أكفاء وربطوا هذا القسم المستوي والمنخفض بالقسم المرتفع الذي تمثله الجزائر العربية بواسطة سلالم (أدراج) ؛ كما يلاحظ في الحدود القديمة بمجرد اجتيازها أن البناء يتواصل ناحية الشرق في حين أن البحر كان عائقا له من الغرب ؛ وانطلاقا من « باب الجديد » " من هنا بالضبط، من حيث دخل جيش 1830 ؛ رحل بضع مئات من الأمتار على مسافة بعيدة سميت اليوم « باب إيسلي »[*]، وتمثال المارشال مهندس الزراعة قد وضع هنا مثل رمز قطعي عن الانتصار والامتلاك . هكذا فيما يخص المدينة الفرنسية ." [2]

أما فيما يتعلق بالجهة التي يقطنها قدامى القراصنة فقد بقيت مهمشة متروكة لعامل النسيان ومعول الزمن " لا يمكن إزالة الناس الذين يعيشون فيها . نحن تركنا لهم بالضبط أين يقطنون بمعنى آخر الشرفة تحتضن قدامى القراصنة، لقد تضاءلوا من تلقاء أنفسهم، متمسكون مرّة أخرى بطريقة غريزية ضد جَزر عديم الجدوى وينظرون مع أسف لا يمكن مواساته ؛ البحر الذي لم يصبح ملكا لهم . " [3]

أما عن المدينة العلوية والتي مركزها « القصبة » والتي يقطنها العرب في شوارع عجيبة وسلالم مذهلة والتي تقود إلى الصمت في هذه الأحياء المتأملة ؛ فقد انفلتت من مشاريع

---

[1] . Une année dans le Sahel . P 20 .

[*] الدوق ديزلي، أو ديسلي هو لقب الجنرال بيجو الذي حصل عليه وعلى رتبة ماريشال بعد انتصار جيشه على جيش سلطان المغرب في موقعة « إيسلي » بتاريخ 14 أوت 1844 . [ينظر إلى الهامش : د. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي ؛ ص 37 .]

[2] . Ibid : P 22 .

[3] . Ibid : P 22 .

الهندسة المعمارية التي تجعلها فرنسية الطابع، ومع ذلك فهي " لم تهدم لاعتبار الأشياء من منظور الأصالة ؛ هذا هو الأفضل لدينا عمله، إنّه احترام هذا النصب الأخير من الهندسة المعمارية والوجود العربي، الوحيد ربما مع قسنطينة الذي لا يزال قائما في الجزائر دون أن يمس ولكن سهل المعرفة . إنه الباب القديمة « باب الجديد » التي تسجل على مقربة بطريقة متجلية نقطة الفصل بين المدينتين . " [1]

لقد استوقفت فرومنتان هذه المنازل المنغلقة والمحترسة من الدخلاء ليعبر عن ذلك بقوله : " مدنهم ضمن البناء بالذات الأكثر رمزية وذات معنى، « مدنهم البيضاء » يلجأونها، تقريبا تشبه البرنوس القومي الذي يكسيهم، على شكل غطاء (غلاف) ضمن نمط واحد وخشن ؛ شوارع على شكل شُعب مظلمة غالبا مقوسة، منازل دون نوافذ، أبواب منخفضة، دكاكين في مظهرها الأكثر فقرا، حيث السلع مكدسة ومبعثرة فوق بعضها البعض كما لو أن البائع يخشى عليها من الظهور، صناعات تقريبا بلا أدوات ؛ أكيد التجارة الصغيرة مضحكة، أحيانا بعض الثراء في عمق خفي، لا حدائق لا اخضرار مجرد قدم ميّتة لشجرة عنب أو تين غارقة في الردم، ملتقيات للطرق، جوامع لا يمكننا رؤيتها، حمامات أين يترددون عليها باستمرار غريب، كتلة واحدة متماسكة في غموض من العمارة مشيدة كالضريح أين الحياة تتكتم، أين المرح يخشى أن يسمع ... " [2]

تحديدا من هذه الفقرة من كتاب فرومنتان حرص الكاتب إلى التعمق أكثر في البيئة الجزائرية رغبة منه في فك ألغازها مستخدما جميع حواسه، محاولا النفاذ إلى تركيبتها الطبيعية والأخلاقية بعد تيقّنه من الإلمام بمحيط مدينة الجزائر معيبا عنها خضوعها لحكم الأتراك، مقرّا على حدّ قوله : " المدينة العربية أعطتنا على القرب العادات والتقاليد الخارجية أو المترلية مرات عدة . إنها تقريبا الجزائر التركية اختزالا ... بمقدورنا عند الاقتضاء إعادة تنشئة جزائر « عمر » و« حسين داي » . الجزائر السياسية صعبة للغاية من تأليفها ثانية، إنها شبح تركي

---

[1] . Ibid : P 26 . 27 .
[2] . Ibid : P 31 . 32 .

الذي تلاشى مع الأتراك وضمن التواجد الواقعي بإفراط مع ذلك، تبدو غير محتمل كذلك من إحيائهم . " [1] وعلى وجه المقارنة نجد الكاتب يشيد بالمدينة المنخفضة ذات العمارة الفرنسية " بعيدا بعض الشيء بدأت ضاحية ثابتة أو من أحسن قوله : الجزائر الحديثة . شوارع كبيرة مستقيمة مع منازل من ست طوابق، بعض الشيء مثل قطعة من شارع « باتينول » . " [2]

ففي الظاهر أن فرومنتان أبدى إعجابه بعمارة مدينة الجزائر وطبيعتها الساحرة والتي بدأت هذه الأخيرة تخضع لعملية تجميل على طراز الهندسة المعمارية التي تشهدها كبرى مدن فرنسا وأوروبا عامة مع المحافظة على بعض المعالم التراثية العربية العريقة من قبيل الذكرى التاريخية لهذه المدينة المشرفة على زوال أهلها، أولئك الذين نظر إليهم فرومنتان على وجه العموم نظرة كراهية واستصغار شأنهم حين رآهم ملتفين حول أنفسهم خشية الذوبان والاندماج مع غيرهم والصمت يطوق بيوتهم ؛ غير أنه وجد فضاءات أُخر أكثر انفتاحا بإمكانها البوح بأسرارها والتزود من أخبارها بما لم يألفه من ذي قبل .

ب) الطابع العام لمدينة البليدة :

" الأجنبي يسميك المدينة الصغيرة (البليدة)، وأنا البليدي أسمّيك الوردة الصغيرة « وريدة » " [3] كلمة أطلقها الكاتب على مدينة البليدة ؛ والتي قدم إليها من الجزائر على متن عربة تجرها الخيول، ليستغرق مدة خمس ساعات من السفر الشاق عبر طريق ترابية ملتوية، استجابة لدعوة صديقه لويس فوندال « بوجعبة » للإقامة معه في هذه المدينة المفتوحة على سهل « متيجة » .

---

1 . Ibid : P 38 .
2 . Ibid : P 44 .
3 . Ibid : P 150 .

ومدينة البليدة يرجع تاريخ تأسيسها إلى مطلع القرن السادس عشر، وهي واقعة في الجنوب الغربي من الجزائر العاصمة وتبعد عنها بنحو خمسين كيلو متر (50 كلم)، تقع في سفح شمال « الأطلس التلّي »، تتمركز وسط سهل « متيجة » الواسع والممتد عنها ناحية الشرق إلى جبال القبائل ومن الغرب إلى حدود « الحجوط » وفي الشمال « القليعة »، خاضعة لتأثير المناخ بسبب الجبال المطلة عليها ومناخ البحر الأبيض المتوسط ليجعل منها منطقة دائمة الاخضرار، رعوية فلاحية دافئة نظرا لتهاطل الأمطار عليها وخصوبة أراضيها ووفرة منابع المياه بها ومن أشهر أحيائها سوقها الشهير « باب السبت » .

تعرضت البليدة للنهب من القوات الفرنسية الغازية في 25 جويلية 1830 إلا أن ذلك لم يدم بسبب استماتة أهلها في الدفاع عنها، وقد " خضع أهلها للأمير عبد القادر واعترفوا له بالطاعة إلى يوم 29 أفريل 1837، حيث ألحقت معاهدة « تافنة » مدينة البليدة بالأملاك الفرنسية نهائيا " [1]

ومنذ ذلك التاريخ بدأت تهيئتها على الطراز المعماري الأوروبي بإقامة الثكنات والعمارات والفنادق والمطاحن والمصانع ومشاريع شق الطرق، ... يأتونها رجال الحرب الفرنسيين للاسترخاء بها، كما أصبحت قبلة للمستوطنين والوافدين إليها من كل حدب وصوب، مما كلف الكثير من أهلها الأصليين بالنزوح عنها إلى المناطق المحاذية لها والاستقرار في المناطق الجبلية، حين تغيرت ملامحها العربية بملامح غربية " المرابطون ضمن هذا ليس لهم مكان . يسكنون في عزلة في الجبل، المساجد لا تنقش إلا لأجل التذكير (الذاكرة) ومثل سبحة في يد فاسق، البليدة تشبه اليوم، سمةً بِسمةٍ إلى الموريسكية التي رأيتها تتجول في المدينة، التي كانت جميلة، والتي ما أصبحت كذلك، مرتدية كالفرنسية قبعة سيئة الذوق وفستانا قبيح الهيئة وقفزات قديمة، ليس لها ظل في الطرقات، لا وجود للمقاهي ثلاثة أرباع المنازل محطمة واستبدلت من خلال عمارات أوروبية، ثكنات ضخمة، طرق للمعمرين، في

[1] . عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام .ج5 ؛ دار الأمة . الجزائر . ص : 22

مكان من الحياة العربية، هذا الذي الحرب قد بدأته، السلم قضى عليه . اليوم أين البليدة لا يكون لها شيء عربي، تغدو مدينة جميلة للغاية، البليدة الحديثة ربما تنسى القديمة اليوم أين هؤلاء يتأسفون عنها هم أنفسهم يختفون " [1] .

ج) المرافق العامة :

ج–1 المحكمة :

وعن المحكمة في مدينة الجزائر، فهي تقع في شارع البحرية في ساحة المسجد، نفس الباب يؤدي إلى قاعة المحكمة وإلى الكنيسة، وهي تحت رعاية من الإدارة الفرنسية ؛ لها باب كبير ذو مصراعين، وقاعة صفت بها المقاعد، ومناضد ومنصة وخزائن صغيرة وبعض الكتب والأوراق " وأخيرا إلى الأعلى من الجدار،خلف كرسي القاضي أسطورة مكتوبة بالبند العريض ومأخوذة من آية من القرآن . " [2] وتضم حاجبا وكتّابا (عدولا) وقاضيا ومفتيا .

ج–2 السوق :

صعودا إلى القصبة يقع ملتقى الطرق المعروف بـــ « سي محمد الشريف » وهو عبارة عن مساحة ضمت سوقا مفتوحة أين يتواجد بها القصابة مع حيواناتهم من بائعي اللحم من « بني ميزاب » " لأن الصحراء زوّدتهم بالمرة بأحسن أنواع الغنم وأحسن اللّحم " [3] إلى جانب ذلك قطعان من الغنم والجمال المحملة بالمؤن والحمر لحمل الرمال وانتشار لافت للمقاهي الشعبية والحمامات ومحال الحلاقة وينابيع الماء للشرب والوضوء وباعة الألبسة بالمزاد العلني . " ضرب من تاجر ألبسة مستعملة مقوّم الذي يبيع في المزاد تشكلة متنوعة من

---

1 . Une année dans le Sahel . P 151 .
2 . Ibid : P 113 .
3 . Ibid : P 45 .

الأشياء المناسبة ... هذه الجبال من الأسمال لا شيء متحرر إلا الوجه، ... الصارخ بشدة ... إنه صوت التّجار مناداة للجمهور الذي يكرر حسابه الدائم : « ثلاثة دورو، ربعة دورو، خمسة دورو » ... " [1]

وعن « سوق السبت » بالبليدة التي يأتونها من كل حدب وصوب " الجزّارون هنا مع ملازمهم المجهزة باللّحم النازف، البياطرة والأسكافيون وأصحاب المقاهي والطهاة مع أوانيهم ومعداتهم، أناس الجنوب مع أصوافهم وتمرهم، الذين في السهل مع حبوبهم، الجبليون مع زيتهم . وحطبهم وفحمهم . البستانيون من البليدة يجلبون الفواكه وجميع الخضار المجنية ابتداءً من البرتقال والأرز إلى غاية الحمص المحمص ... والعدس ضمن صنعه وجبة طعام حمراء ... الباعة الجوّالون من اليهود أو العرب يبيعون لوازم الخياطة، والعقاقير، والتوابل، والعطور والمجوهرات الغليظة، والأقمشة القطنية من جميع البلاد والأنسجة ومن كل مصنع، وما إلى ذلك، لكل واحد له طريقة عرضه للبضائع في الهواء الطلق أو مغطى، وفي كلا الحالتين، الترتيبات هي في غاية البَسَاطة، صندوق أو صندوقين أو سلال لتشمل السلع، حصير لعرضها، قماش مربع على طريقة مظلّة، هو ذاك، اعتقد الأمتعة الوحيدة الضرورية للبائع المتنقل " [2] .

يرى فرومنتان أن السوق العربية شبيهة بتلك المعارض التي تقام في أرياف فرنسا، والتي يحضرها القرويون للتزود منها بالسلع الضرورية ؛ مبديا تأسفه على هذه لخلوها من البضائع الفرنسية " تصوّر سلع غذائية أفريقية بدلا من المواد الغذائية الفرنسية ! " [3]، وهنا إشارة إلى افتقار السوق العربية للمنتوجات الفرنسية أو إلى عزوف التجار المتجولين والباعة في اقتنائها، وليس غريبا اشتغال إدارة الاحتلال بتحويل خيرات الجزائر على أنواعها وتصديرها إلى فرنسا، وبالمقابل يلاحظ انتشار واسع للسلع الإفريقية والشرقية التي تفد إليها من أقاصي

---

1 . Ibid : P 49 . 50 . 51 .
2 . Ibid : P 310 . 311 .
3 . Ibid : P 309 .

الصحراء والتي من جملتها الثياب والأدوات والأواني والبقول والحبوب والتمور والجلود والملح والحلي والحرير وغيرها من البضائع ؛ كما هنالك تلميح إلى اختلاط الأجناس في السوق وبناء الخيام وكثرة الجمال والمواشي دلالة إلى هذا الوسط البدوي المتشرد والمتنقل، غير المنتظم، بما يمثل شعارا معبرا عن آداب مجتمع بدائي سخيف لا يتوافق مع الحياة الحديثة في أوروبا .

ج–3 مقهى « بوجمعة » :

كانت بحق تمثل لدى الكاتب نقطة الانطلاق في زيارة الصحراء، بما استوحاه عن صاحبه « فوندال » من عزم مفاجئ في ارتياد الطريق بحثا عن الجديد المتواري عن الأنظار .

" إنه مقهى صغير ريفي يقع خارج المدينة (البليدة)، وبين العرب تقريبا، في وسط شجر البرتقال وكله محاط بالينابيع مثل جزيرة صغيرة ؛ لم يكن هنالك أحد، « بوجمعة » ينام إلى جانب أفرانه، تحت سيراجه، شبه المنطفئ، لم أعمد إلى إيقاظه بالمرة وجلست أمام الباب ؛ من مسافة إلى مسافة أنظر ظهور واختفاء نقاط إضاءة في الجبل . ومن بعيد إلى بعيد كلاب تنبح، ثمَّ تحت السماء حيث تلمع جميع النجوم من الصيف . ذكرى الصحراويين عوضا عن الوهن لم تُفارقني أبدا، وبدأت دون قصد في السفر، الآن آه ! عندما أسافر . سواء في الحقيقة سواء في الحلم ؛ دائما في نفس الاتجاه « رأس الجنوب » وفي منتصف الليل لم أصمم شيئا، لكن بالإمكان أن أنهض غدًا مثل فوندال إنه استيقظ بالأمس مع عزيمة مفاجئة من ارتياد الطريق "[1] .

ج–4 الأعياد :

وفي كل سنة من شهر أبريل يقام حفل زنجي معروف باسم « عيد الفول » الذي يتزامن مع جني أولى خضار الفول، حيث يتجمع الرجال والنساء والأطفال في ثياب جديدة

---

[1] . Ibid : P 334 .

زاهية يحضرون مراسيم ذبح الثور المزين بالأقمشة المزخرفة والزهور والأجراس المجلجلة، وهو حفل تحتشد فيه النساء اللواتي يتزعمن الحدث ويقمن بتوزيع دم الأضحية وإعداد الطعام والتباهي أمام الملأ بزينتهن، أما الرجال فيؤدون الرقص على وقع الطبول والمزامير طوال اليوم وهم يحتشدون في مجموعات متفرقة قرب الخيام ومنابع المياه على مساحة واسعة أعدت لهذا العرض " اسمح لي تولي هذه القصّة بحسب ما رأيت . إنّها صورة جد متأصلة وأكثر إشراقا . ولست أفكر لحظة واحدة اليوم على أن هذا الحفلة الإفريقية اختلطت بأبهة مأساوية وترويح عن النفس من فرق راقصة ومن مأدبات فاخرة أي شيء كان مثل مشهد كبير متصوَّر من أناس سعداء ليكونوا مبهورين بأنفسهم، يمرحون كثيرا ويتصالحون مرة في السنة في سرور متناغم في أناقة، بشاشة تجيز، ومن إسراف . " [1]

وفي هذا المكان الذي جمع اليابسة بالبحر وحشود الزنوج ذوي البشرة السوداء مع الأرض المخضرة والملابس المتلألئة بأشعة الشمس وزرقة السماء ما أعطى للكاتب فرومنتان مشهدا لصورة نادرة مسجلا تفاصيلها بين الانبهار بالحدث وإبداء الانطباع حول منظميه إلى أن شارف الحفل نهايته " انتظرت بجرأة إلى غاية المساء، رأيت الشمس تنزل خلف الهضاب، وكنت في وسط الحشد والموسيقى إلى أن دخلت إلى منزلي مهشما من السآمة، بالعا الألوان، لكن جد مرتاح بيومي هذا لأنني تخيلت امتلكت ذخيرة من الضوء لأجل الأيام المظلمة وكثيرة الوقوع حيث الذهن ليس له إلا مناظر حزينة . " [2]

والمعروف عن الأفارقة، أنهم يميلون إلى الرقص والموسيقى تنفسيا عن أحزانهم، وإحياء لطقوس جبلوا عليها من رفع للأعلام الخفاقة ذات الألوان البيضاء والحمراء والخضراء والسوداء، يجوبون الشوارع بالطبول والمزامير بنية طرد الأرواح الشريرة من البيوت والتي يستحسنها الكثير من الناس ضعاف النفوس ويتجاوبون معها بعواطفهم وأموالهم " كما

---

1 . Ibid : P 217 .
2 . Ibid : P 227 .

كانت للزنوج موسيقاهم التي يعزفون فيها آلاتهم يوم العيد وكانوا يجيبون الشوارع ويضربون الدفوف بطريقة تصدع الآذان ... " [1]

وهنالك عيد الفروسية السنوي، الذي يقام في الإقليم الحجوطي، والمتزامن مع « سوق السبت » أواخر شهر أكتوبر ؛ وهو نوع من اللقاء الجواري المنتظم الذي يجمع العديد من الدواوير المترامية على امتداد سهل « متيجة » الفسيح، حيث تضرب الخيام قصد الترفيه عن النفوس ولـــمّ الشمل من جديد، وذلك بركوب الخيل والعدو وإطلاق البارود وأكل الوليمة « الضيفة » وسماع همس الحشود، ورؤية الملابس البيضاء الخفاقة، وإشعال النار للإضاءة والتدفئة، وذلك للرقص ليلا تحت إيقاع ضرب الدف وأصوات المزامير وتوزيع القطع والأوراق النقدية على الفرقة الموسيقية والمدّاحين والراقصين من طرف الحضور مدعوما بزغاريد النسوة وطلقات البارود " « الضيفة » طبخت في خيمة مغلقة ...، رائحة قوية من طبخ مختلط مع دخان الحطب الأخضر . المقياس بطيء ورتيب من رقص وطني (ضئيل قليل جدا من رقصة « النحلة » المصرية) كان ملاحظا عبر أغان ذات إيقاع وتصفيق بالأيدي والانفجارات ... المخيم امتلأ بالناس في لباس الحرب ... الليل كان رائعا منجما، لكن برطوبة مفرطة وباردة إلى غاية الصباح ؛ بقينا جالسين على العشب مرتعدين تحت الندى ... الأغاني تعبت وتوقفت، والنيران واصلت وحدها تبرق في منتصف السكوت التام ؛ هناك تجمُّع بعض الناس جالسين القرفصاء، فيما يبدو ثلاثة أرباع منهم على الأقل تغفوا . " [2]

ج–5 المقبرة :

أما عن المقبرة التي كانت على قرب من الكاتب، والتي ضمت قبة المرابط المشهور « سي عبد القادر »، المدهونة باللون الأخضر، والمضاءة بالشموع، أين تتوسط القبور ذات

[1] . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج5 . ص : 438 .

[2] . Une année dans le Sahel . P : 318 . 339

الرخام البالي، شاهد الكاتب تسلل الحجاج إليها لتكريم موتاهم في كل يوم جمعة، أطفالا ونساءً يدهسن باستخفاف حفر الموتى المليئة بقشور البرتقال وبقايا صنوف الطعام وتراكم الأوساخ .

حارس المقبرة يتفحص حال جدرانها بفرشاة الجير من حين لآخر مبقيا نصاعة بياضها، لتبدو من الخارج بيضاء كبيوت الموريسكيين ؛ وهو رجل مسن نصف حفار ونصف مقدس، دعا له الكاتب بالحفظ والتوفيق لإشرافه على هذا الجو الشاعري من الحياة والموت، وهذه القبور المهملة وسط نمو كثيف للأعشاب المختلفة مما جعلها مرعى لصنوف الحيوان والحشرات والطير " القبور العربية هي في غاية البساطة حتى لأكثرهم غنى والجميع على حد سواء ... بلاطة الحجر أو الرخام مغطاة ببعض النقوش العربية : اسم الميت وتذكير من القرآن . " [1] ؛ وجريا على العادة توضع البذور المزهرة أو فنجانا أو إناء أو بلاطة محفورة أو غيرها على قبر الميت كقدح مأتمي يمتلئ من ماء المطر لسقي طيور السماء . وهذا ما أوحى للكاتب بالحكم على العرب بقوله : " هنالك في العبقرية للمجتمع العربي خليط من الأوهام الجميلة من الحقيقة السخيفة، من الادخار ومخالفة الآداب، ووداعة وفظاظة التي تجعله من الصعب جدا معرفا بطريقة تامة " [2] .

ج–6 قبر الرومية :

ضريح المسيحية أو ما يسميه أهل المنطقة بـــ« قبر الرومية » الواقع بالقرب من بحيرة « علولة » والكتلة المسطحة لـــ« شنوة » ونهر المياه الصفراء « مزفران » الذي ينفذ عابرا السهل عبر فتحة ضيقة حيث يبدو البحر باتجاه « القليعة » ؛ جمال رائع مثله الكاتب كمن شاهد لأول مرة أرضا عربية شرقية قائلا عنها " يا (ويْ) فلسطين ! "[3] ؛ إنها تشبه الهرم المنتصب على امتداد هذه الأرض البائرة لسهل « متيجة » الواسع " نراها في مسافات

---

[1] . Ibid : P 84 .
[2] . Ibid : P 85 .
[3] . Ibid : P 155 .

متساوية من الأرض ومن البحر، منذ خمسة عشر قرنا . العلامة القديمة تؤدي دليلا للبحارة والقوافل وبغموض تدعوهم للتوقف . قليلا مستوية في شكل دائري ؛ باستمرار مدروسة، ومداسة بالخيل، محفورة بأوتاد الخيم، محروقة بنيران المخيمات، من الأرمدة، من الحطام، من القمامات القديمة، يعني كل هذا الذي يتركه المسافرون (الرحالة) من ورائهم في لحظة ؛ ينبوع ماء عذب على نحو خطوتين من البحيرة . حيث الماء الأجاج ليس صالحًا للشرب، أشجار الزيتون الكبيرة معاصرة ربما لمملكة مشكوكة تنام هناك تحت كومة حجارتها – هذا الذي ضمَّه المخيم . " [1]

ج–7 الخيمة :

وعلى ضوء ما ذكره الكاتب، فإن المسافر من مدينة الجزائر متوجها إلى مناطقها الداخلية، ينبهر بجمال الطبيعة العذراء، ويجد سكانا يعيشون حياة بدائية في دواوير وخيام، وفي الجبال من عرب وقبائل يرعون جمالهم وأغنامهم وبقرهم وينتفعون بوبرها وصوفها وجلدها وحليبها ولحمها ؛ وهم في وضع شبيه بحياة الأوائل في عهد يعقوب (عليه السلام) وفي قصص الكتاب المقدس " كلاهما يرتدي قميصًا ضيقا وقصيرا من الرعاة، السترة ملتصقة بالقامة، الطاقية من اللّبد المبروم (المفتول)، النعل من أشرطة مقطوعة من جلد خروف ؛ الرجل العجوز كانت عيناه جدُّ رامشة (غامزة) حتى اعتقدت أنه أعمى والشاب كان وسيمًا، لما مرّ بالقرب منه فوندال قال له في شكل رفيع من التحية العربية : مرحبا بك « يعقوب بن إسحاق » ومرحبا بأبيك ! – أنا من الممكن أن أكون مخطئا يا صديقي إذا صرحت بأن الكتاب المقدس المفقود لا يزال حيًّا ." [2]

---

[1] . Ibid : P 298 .
[2] . Ibid : P 291 .

ج–8 الحرث :

ومن جملة ما ورد في كلامه، قوله : " جلست ونظرت هذا الحقل المخطط من أخاديد بنية (داكنة) أين شاهدت شيئين نادريْن كفاية في هذا البلد المستهتر ؛ محراث عربي في العمل، أولاد أهليون يتقاسمون مع والدهم الرعاية المعطاة في الحرث ... " [1] بما يدل على غضبه الشديد على أولئك العرب الذين انتهكوا حرمة أرض لم تعد ملكا لهم، مبديا تأسفه على شقاء البقرتين الهزيلتين في الحرث .

5 - صورة الزمان :

مما لا شك فيه أن الكاتب استنفذ لحظات زمانه، مدفوعا نحو المستقبل بتأثير من سبقه، على أنهم مثله الأعلى، بالإضافة إلى الحوادث الطارئة في حدود حياته اليومية، إلى جانب تغيرات مزاجه بين متفائل أو متشائم . ولعل أبسط تعريف للزمن قول أحد الباحثين " بأنه شيء أقل جزء منه يحتوي على جميع المدركات " [2] وقد كان للدراسات الحديثة فضل الإبانة عن حقيقة الزمن، فخرجت به " عما كان منحبسا فيه من ارتباط مستمر بالمعتقدات الدينية وقضية الموت لتقيم الدليل على أن الزمن ليس فقط الأبد أو الخلود الذي بشرت به الأديان، ولا هو حركة توالي الليل والنهار والفصول المنظمة لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية فحسب . فهو يشمل كذلك ميادين كثيرة أخرى من الوجود البشري وكل ميدان منها يوازيه ويختص به نوع من الزمن " [3]

لم يفوت الكاتب لحظة من ووقته في تدوين كل ما يحيط به من وقائع وأخبار، وكأنه في عراك مع الزمن، مخافة نسيانها أو تداخل تفاصيلها مع بعضها البعض، فيكون من الصعوبة

---

[1] . Ibid : P 119 .

[2] . إبراهيم العاني . الزمان في الفكر الإسلامي، ط1 . دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع ؛ بيروت 1993 . ص 147 .

[3] . عبد الصمد زايد . مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس – ليبيـــا 1988 . ص 07 .

بمكان التعرف على ترابطها وسيرورتها، ما لم تكن منتظمة في خيط الزمان مرحلة تلوى أخرى " وهذا التقويم الذي يكون دائما جيد أن تأخذه معك، حتى عند السفر، لقد تذكرت فجأة أن الوقت فرّ بالكل، بالجميع، وبالنسبة لي أنا . بدلا من التأرجح مفعما بالنسيان الذي أشعره هذه الأيام الأخيرة، أحسست أنني حُملت بواسطة مياه جارية، عندئذ قلت لنفسي أنه من الحكمة أبدا أن تترك تسرّب الأشهر دون تتممتها ... والتي غالبا ما علامة سيئة عندما يمكنك أن تقول في السنة : « كم كانت قصيرة » ." [1]

وأزمنة رحلة فرومنتان في كتابه : « سنة في السهل » وردت اتّباعا على النحو التالي :

في مصطفى الجزائر		في البليدة		في السهل	
الشهر	الصفحة	الشهر	الصفحة	الشهر	الصفحة
27 أكتوبر 1852	01	08 فيفري	135	أوت (البليدة)	235
05 نوفمبر	07	فيفري	140		
08 نوفمبر	18	فيفري	150	أوت (البليدة)	239
10 نوفمبر	20	24 فيفري	156		
11 نوفمبر	50	26 فيفري	162	سبتمبر	247
15 نوفمبر	60	في نفس التاريخ، مساءً	175	أكتوبر	274
16 نوفمبر	65	28 فيفري	181	أكتوبر (في مخيم من بحيرة حلولة)	280
ديسمبر	72	مارس (اليوم 12)	185		
في نفس التاريخ، مساءً	89	مارس	193	الساعة 11 ليلا	294
نهاية ديسمبر	92	أفريل	198		
04 جانفي	97	أفريل (مصطفى الجزائر)	216	في مخيم البحيرة، الثلاثاء مساءً من نفس الشهر	299
جانفي	100				

[1] . Une année dans le Sahel . P 97 .

جانفي	112	أفريل (مصطفى الجزائر)	227	في مخيم البحيرة، الأربعاء مساءً من نفس الشهر	304
12 جانفي	118				
في نفس التاريخ، مساءً	121	ماي (اليوم 15)	230	نهاية أكتوبر (البليدة)	306
13 جانفي	122	في نفس التاريخ، ليلا	232		
18 جانفي	124	جوان وجويلية قضاهما فرومنتان في الصحراء « الأغواط » وقد خص هذه الرحلة بكتاب عنوانه : « صيف في الصحراء »		نهاية أكتوبر (البليدة)	340
نهاية جانفي	125				
04 فيفري	126			نهاية السنة	
07 فيفري	132				

حرص الكاتب على دراسة المجتمع الجزائري، والتعرف على ما يتميز به، من خلال خلفية تاريخية، وتركيبة اجتماعية، ومستوى فكري وثقافي، طيلة رحلته الثالثة إلى الجزائر، مركزا في بحثه المفصل ووصفه المكثف لها على عامل الزمن، حيث أشار إلى قصر المسافة التي اجتازها على متن مركب في ظرف " ست وأربعين (46) ساعة تقريبا بتمايل قوي ومسار طويل إلى حد كبير من أجل أن نجد المتعة ؛ قصيرة جدا أعطتنا الوقت الكافي للتأقلم في البحر والتثبت والنظر إلى تغير المناظر ." [1] ؛ وهي مدة يراها جد وجيزة للربط بين ضفتي البحر المتوسط، من ساحل فرنسا إلى سواحل شمال إفريقيا، مبديا ضجره من ركوب البحر، وصخب أمواجه في ظلام الليل، الذي يشعره دائما بالوحدة .

ومما زاده لحظة وصوله الجزائر ابتهاجا، أنه نزل أرضا شرقية، طالما راودته نفسه إلى زيارتها، بالإضافة إلى قرب المسير بين منزله ومدينة الجزائر " منذ أول يوم لهذا يجب أن تعرف أني أسكن على بعد خمس وثلاثين دقيقة من الجزائر بعيدة كفاية عن المدينة، ولكن ليس تماما في الحقول المفتوحة " [2] .

[1] . Ibid : P 02 .
[2] . Ibid : P 09 .

5 -1 الفترات القصيرة :

وفي حديثه إلى صاحبه الغائب عنه الذي خصه بجميع أخباره ورسائله، ألح عليه بضرورة إيقاظ الضمير بالذكريات المدونة زمانا ومكانا " لنصنع مثل « بوسي الصغير » الذي زرع الحجارة من باب منزله إلى غاية الغابة، مسجلين آثارنا من خلال العادات، مقدمينها لأنفسنا لأجل إطالة وجودنا ...! إنها الطريقة من التواجد في كل مكان ومن عدم التضييع في الطريق الأكثر فائدة والأكثر قيمة من الأمتعة ؛ إنني أعني الشعور الذي نحن عليه " [1]، مبديا في ذلك انبهاره بجمال الطبيعة حيث الروعة والاستقرار لحظة النظر إليها " إنها الساعة التاسعة صباحا، إنني في ناحية جميلة في منتصف منحدر التلال أنظر إلى البحر ؛ إنه محيط عظيم ضمن هذا المشهد الطبيعي الصباحي " [2]، منهيا يومه المشمس متجولا بين الأشجار ناظرا إلى المنازل الرائعة والمحاطة بالرياض .

إن الكاتب يرى في لحظة تأمله للطبيعة والطقس أن استعداده النفسي للقيام بعمله على ما يرام مرهون بالوقت الجميل وذلك هو الحدث الحقيقي ليومه " اليوم يرتفع بين أربع أو خمس ساعات، اضطرارا أستيقظ فورا قبل بدئه في البزوغ، آخر عُرفٍ حملته من بلد (يقصد الصحراء) حيث النوم ليس له ساعات محددة وما مضى من الوقت لم نستطع النوم فيه كفاية ؛ غرفتي (وهو في البليدة) امتلأت بغموض من سطوع مبيَّض ومن ضجيج مبهم ؛ رأيت الفجر الذي أبهجَ في أعلاه الخط الأخضر لأفق مشجر، أتنصّت ؛ ها هي « نوبة الصباح »، الهواء الذي خفَق القلب لأجله منذ شهرين (جوان وجويلية)، هواء ليس له مثيل ؛ خيول تحمحم، جِمَال ترغي ؛ أسمع مرورها تحت نافذتي، ومن الناس الذين يأتون وأرجلهم عارية ويمشون بخطى متثاقلة ؛ نسمة متنقلة تسبق الشمس تهز بلطف أشجار البرتقال للجيرة . " [3]

---

[1] . Ibid : P 75 .
[2] . Ibid : P 77 .
[3] . Ibid : P 242 .

وفي البليدة وحفاظا على الوقت، اهتدى الكاتب إلى صنع ساعة من شجرة سرو كبيرة حادة، من ساق وحيدة تتلقى الشمس اليوم بأكمله " ظلّها الذي تكوَّن، يحيط بالساق دورته الكاملة ترسم على الأرض المستوية قرصا مدرجًا مضبوطا بإحكام، سجلت فيه التقسيمات عبر حجارة، وهذه ستكون ساعتي " [1]

والكاتب لا يستهويه سهر الليل منفردا إلا إذا كان رفقة غيره، يستمتع باسترجاع الذكريات وتبادل الآراء في شؤون الحياة " اللّيلة كانت رائعة، أمضيتها تقريبا بأكملها مستمعًا إليه – انظر ! قائلا لي (فوندال) هذا البلد ملكي ... " [2]

وبعد هدوء الأجواء في البليدة، تم الاستعداد إلى مغادرتها، في حدود الساعة السادسة مساء، في رحلة صيد تدوم ثلاثة أو أربعة أيام نحو السهل " وصلنا ؛ أنا حيث كنت أرغب في الإتيان هنا. الصيد يبدأ غدا بينما رفاقنا يستعدون، أحدثك منذ هذه الليلة عن مشينا في السّهل الذي لم يكن غير نزهة فحسب قصيرة جعلت مع بطء " [3] . في هذه الرحلة تم رصد تفاصيلها لحظة بلحظة، الاستيقاظ باكرا، ترصّد الطرائد، زيارة الآثار القديمة، المرور بالقرى والجِمَال، والتعرف على شابين راعيين رفقة والدهم المسن وعلى البحيرة التي سمع بها وأحب رؤيتها " هكذا وبفضل الصمت المطلق لهذه الأمسية سمعت ارتفاع ضوضاء غريبة جدا ... من تنهدات، مختلطة مع أجنحة ترفرف إلى صخب الماء المتحرك ... إنَّه ضجة البحيرة، قال لي « فوندال » ؛ في مثل هذا الوقت نستمع إليها عشر دقائق على الأقل قبل رؤيتها . " [4]

قضى الكاتب رحلة صيد ممتعة مسجلا تفاصيلها في كل ساعة ليلا ونهارا، مسرورا بما تم قنصه من طيور وأرانب مبديا ضجره من أحد الصيادين العرب الذي وجده ارتكب مجزرة في قتل الكثير من الطيور من بينها طائر الإوز " لقد قتل ملك البحيرة، قُلْتُ

---

1 . Ibid : P 139 .
2 . Ibid : P 144 .
3 . Ibid : P 281 .
4 . Ibid : P 192 .

لـــ: « فوندال »، ننظر الطائر الجميل، مضروب صَوْبَ القلب من جرح لا يزال يترف دمًا . الذي رده أكثر جمالا " [1] .

وبحثا عن أسباب الفرح توجه الكاتب بعد رحلة الصيد إلى حضور حفل الفروسية بسوق « باب السبت » بالبليدة الذي يقيمه وينشطه أهل الحجوط " اليوم كان الاحتفال جد خاص لتسلية قدامى المحاربين الذين لا يزاولونها أبدا أو الشباب الذين لم يسبق لهم القيام بها ... كانت الساعة الرابعة، التحضيرات يبدو قد انتهت ... المساء اقترب، الحفلة أتت على نهايتها وتفاجأت على أن « القايد » كان قد بقي وقتا طويلا دون أخذ شطر من المشاركة في السباق ... الحفل كان قد انتهى، الليل نزل فوق هذا الحداد الختامي ... خلال ساعة أو ساعتين، لم أسمع إلا الهمس من الحشود جالسين إلى المائدة فوق العشب ... بقية شمعة انطفأت ... ها أنا ذا وحيدا ! صديقي فوندال تركني ... " [2]

بالرغم من أن اليوم كان خريفيا رائعا إلا أن الكاتب تأسف عن موت المرأة « حوة » ومما زاده حزنا في نهاية أكتوبر وفي حدود الساعة الرابعة مساء فراق « فوندال » له الذي ودعه على أمل اللقاء به مستقبلا ... وفي ليلة موالية على الساعة العاشرة موعد حظر التجوال استرجع الكاتب أمل حلمه بالعودة إلى بلده ولقاء صاحبه في فرنسا الذي خصه بجميع رسائله .

لقد أحس الكاتب وهو بالجزائر ثقل الزمن على كاهله، ومردّ ذلك يكمن في عدم انسجام فرومنتان مع نفسه – بداية حلوله بها – باحثا عن إحداثيات تواجده في هذه البيئة التي سحرته ؛ مظهرا عجزه في البحث عن الطرائق التي تسهّل عليه الانطلاق في الحياة وتحفزه على العمل الذي ينشده ؛ بالإضافة إلى تأثير عامل المناخ على كينونته، فهو ينفر من الريح واضطراب أمواج البحر والسحاب الماطر والدروب المبللة وقد كان الوقت شتاء قارسا في هذه المدينة الساحلية ؛ وفوق هذا كله كان يعيش وحيدا وليس له أصدقاء يثق بهم

---

[1] . Ibid : P 303 .
[2] . Ibid : P 308 . 317 . 334 . 338 . 340 .

ويحدثهم بطلاقة لسانه، إلا نادرا ممن ادعى أنهم أصدقاؤه من سكان الجزائر، ليقضي جل وقته متأملا مهموما بين تذكره لما مضى وتفاعله مع ما يحل به حاضرا وترقبه لما هو آت .

في حين تواجده بالبليدة، فقد ازدادت معنوياته وتفتحت نفسه ومواهبه، ومرجع ذلك، تعلقه بصاحبه الطوّاف « فوندال » الذي شجّعه على العمل في حقل الكتابة والرسم والبحث عن شتى المسائل الفريدة في هذا البلد، التي تجعل من المرء فردا مميزا ؛ فساوره الطموح إلى اكتشاف الصحراء في أوج حر فصل الصيف ؛ ويكون برحلته هذه، قد أحب مدينة الورود، التي عاش فيها فصلي الاعتدال، الربيع والخريف، لتتاح له منها فرصة الذهاب إلى سهل متيجة في رحلة صيد، كانت أيامها الأربعة من أجمل ما أدخل البهجة إلى صدره .

5 -2 الفترات الطويلة :

ففي أثناء إقامته في منزله وتردده على ناحية مصطفى الجزائر راقه فصل الخريف الذي تجلى مظهره في اخضرار الأرض واعتدال مناخه " الصيف مستمر بالرغم أننا في نوفمبر، رطوبة الليل تلطف الأرض في انتظار المطر ؛ لا شيء ينبئ بذلك ؛ السنة تنقضي بلا حزن، الشتاء يأتي دون أن نلحظه أو أن نخشاه ؛ لماذا حياة الإنسان لا تنتهي مثل فصول الخريف الإفريقية . عبر سماء صافية مع رياح دافئة دون هرم ولا هواجس ؟ " [1] .

وجمال فصل الخريف لم يفارق خاطره، لاشتغال الكاتب في هذه الأثناء بوصف الطبيعة الجزائرية، التي أحسها بكل كيانه الروحي والجسدي، مستكشفا صورها الرومانسية النادرة ومعبرا بها عن طاقته الإبداعية والمعيشية " دائما الطقس جميل، لا تتصور أبدا أن السنة انتهت، أنا الذي أعيش الهواء الطلق ؛ استيقظ مع اليوم، لا دخول إلا في الليل أنا الذي أشاهد دقيقة بدقيقة زوال هذه الفصل المبتسم، إنه من الصعب أن أدرك يوما أخر، لذلك لا

[1] . Ibid : P 17 .

أعرف التواريخ ولا أبحث قط إلى استرداد أيضا الشعور من الزمن الذي فقدته، تفضيلا عن الأوهام الجد نادرة " [1] .

وقد أبدى الكاتب استياءه من فصل الشتاء وبرده القارس إلى حد انعدام الحياة فيه، فهو بالنسبة إليه بمثابة السجن " تحت ليلة دون قمر ... النيران أطفئت منذ زمن طويل في كل مكان حتى الجزء من الضواحي التي أشاهدها من نافذتي ... المطر مستمر، الريح التي لم تفعل غير أنها ازدادت ساعة بعد ساعة، وثبتت على نقطتها الشتوية بدأت في الحرث بعمق المياه من الخليج . الساحل اختفى في الحوض ولم يعد ملاحظا ... الرذاذ في كل لحظة، الوابل المفاجئ الذي تكرر ضيق الأفق ... الريف كذلك مهجور كالبحر وكان غارقا ؛ لأن الأرض فوجئت بهذا، لحد الارتواء ... نرى الطيور مذعورة ... أما بالنسبة للزيتون، كما هي الحال يرثى لها تحت هذا المطر الذي يجعلها تشبه الأشجار من الشمال وتحت الريح الجليدية التي تمزق أوراقها الشاحبة، وتضربها كما هو الحال بالسياط، كل حركة تشبه قاطعا، لم يظهر أحد إلى الآن على الطرقات كل واحد ينتظر، لأجل استئناف عاداته إن العاصفة قد هدأت . أو أن الفصل سيتم بذل المزيد فيه اعترافا بقسوة حاسمة " [2] .

ومما أثر في نفسه إيجابا فصل الربيع وروعة أيامه " الربيع قدم ونحن هنا في الفصل المتغير، مع الشمس سلفًا ساخنة، أيام رائعة ومن وقت لآخر من أمطار قوية التي أتت من خلال الأعاصير والتي أبدا لم تدم إلا بِضعَ ساعات، الرِّيح لم تثبت في أي مكان، إنَّها متأرجحة بين درجتها في الشتاء والتي في الصيف " [3]

---

1 . Ibid : P 72 .
2 . Ibid : P 122 . 123 .
3 . Ibid : P 185 .

وفي هذه الفترة بالذات قضى الكاتب أياما مسلية في ضيافة المرأة « حوة » بالبليدة كما أتاحت له الظروف حضور حفل عيد الفول للزنوج الموافق لشهر أفريل بالجزائر " يمرحون كثيرا ويتصالحون مرة في السنة في سرور متناغم في أناقة وإسراف " [1]

ولم يؤسفه في مدينة الجزائر إلا أمران :

الأمر الأول إبداء الشفقة على موت نعمان " عرفته، إنه هذا المسكين الشقي من النصف الميت منذ زمن طويل ؛ الذي كان معدا سلفا للموت " [2] .

الأمر الثاني تفقده لمترله الموحش والذي وصفه بقوله : " وجدت، مع انفعال، مترلي سجني في الشتاء " [3] .

وفي منتصف ماي بالبليدة أكد الكاتب على دخول فصل الحر " نحن الآن في « 15 ماي » بمعنى في الصيف، الأيام إنها طويلة، منتصف النهار ثقيل، كي تعيش مع وفاق مع الطقس يجب الاستمتاع بالفترات الصباحية والأمسيات التي لا تزال عذبة وحاليا تخصيص منتصف النهار إلى النوم " [4] أين أحس بالملل ورتابة عمله وضيق أمله خاصة بعد أن فارقه صاحبه « فوندال » فعزم التوجه إلى الصحراء منبهرا بقسوتها وروعة شمسها التي لم يعهد مثلها في شمال الجزائر ولا حتى في بلده الأم ؛ ولدى رجوعه من الأغواط بعد أن قضى فيها شهري جوان وجويلية بالإضافة إلى بعض الأيام الأخيرة من شهر ماي وبعضا من بداية شهر أوت، عاد مجددا إلى البليدة ليقضي عدة الأيام المتبقية من هذا الشهر الأخير إلى الاسترخاء في بيته من فندق « بوضياف » وفي هذه الأثناء اغتنم وقته في الاطلاع على كتاب القنصل الأمريكي « والتر شالير » ؛ كما ناقش صاحبه مبديا آراءه في قضايا الأدب وفن الرسم

---

1 . Ibid : P 217 .
2 . Ibid : P 228 .
3 . Ibid : P 229 .
4 . Ibid : P 230 .

تحديدا، ليرى نفسه أنه من الصنف الأول على حد تعبيره " هنالك المسافر الذي يرسم وهنالك الرَّسام الذي يسافر " [1] .

ومع بداية شهر سبتمبر الذي يسميه سكان البليدة « الصيف الثاني » نظرا لهبوب الريح المهلكة، المسماة بـــ« الخمسين » " البليديون يلعنونها، إنهم يتألمون، إنهم يتقونها، ما استطاعوا، بالبقاء في منازلهم وغلق النوافذ، لا يتنفسون أبدا، الحرارة كانت شديدة ودون تلطيف، لا في الصباح ولا في المساء، الليلة ثلاثون درجة مئوية، درجة حرارة فوق العادية في هذا الوقت الاستثنائي وفي هذا الفصل ؛ حاولت تصوير هذه الأشجار، بإمكانها التألم منها نراها في التواء وتحطم في هذه المعركة من المستحيل رَسْمُها . " [2]

ويبدو واضحا أن الكاتب غاضب في هذه الفترة على هبوب الريح، وأيضا استنكاره لتصرفات العرب في استغلال الأرض وتهيئتها للحرث " أنا الذي أكره الريح، وأسامح هذه ... التي تحملني من جديد مباشرة إلى الصحراء ... خاصية أخرى من السبب، التي تعطي للبلد، لا أعرف أي مظهر مهدد ؛ في كل ليلة نرى على البعد حريقا يرتفع في أقصى السهل ؛ إنهم العرب الذين يحرقون الأدغال متتبعين طريقتهم السريعة لتعمير الأرض واستصلاحها وفي أسرع وقت ممكن " [3]

---

[1] . Ibid : P 255 .
[2] . Ibid : P 278 .
[3] . Ibid : P 279 . 280 .

الفصل الثالث

صورة الإنسان

1- صورة المجتمع

2- صورة الفرد

2 - 1 الجزائري العربي

1-1 الرجل

2-1 المرأة

3-1 الطفل

2 - 2 الجزائري من أصول أفريقية (الأَسود)

2 - 3 اليهودي

3- الكاتب واللغة العربية

4- الكاتب وأسماء العلم والأمثال

5- الكاتب واهتمامه بصغائر الأمور

6- الكاتب والطيور

7- الكاتب والحيوان

8- الجزائر والتواجد الأوروبي

1- صورة المجتمع

لا شك أن الاستقرار النسبي الذي عرفه سكان مدينة الجزائر وما جاورها بعد ضعف المقاومات الشعبية، هدف الاستعمار من خلاله إلى ربح الوقت في إحصاء مكتسباته الميدانية وتجديد مخططاته في التغلغل أكثر في نسيج المجتمع الجزائري ؛ وأيضا إتاحة الفرصة لمن يرغب من الجزائريين في الانضمام إلى صفه طواعية مع إعلانه الحرب على كل من يعارضه ؛ وهذا ما ألزم الجزائريين التعامل مع الوجود الفرنسي وقبول هذا الواقع الجديد المفروض عليهم تحت طائل الإغراء والتهديد رغبة في التعايش السلمي .

لقد حرص الكاتب في كتابه على إعطاء صورة عن المجتمع الجزائري للقارئ الأوروبي، بيّن في بعض منها سعي فئة من الشعب الجزائري إلى طلب الاندماج في فرنسا، مؤكدا هذا التوجّه عبر من ادعى أنهم أصدقاؤه من العرب في الجزائر ؛ والحقيقة أن الشعب الجزائري على طيبته لم يقبل يوما بوجودها على أرضه، ولم يغفل عن نواياها الخبيثة، متخذا ضدها كل وسائل الرفض من مقاومة والتزام بالدين واللغة والعادات وبقاء على عهد الأجداد وتحذير الأجيال وتعبئة نفوسهم وإحياء ضمائرهم بالوعي والروح الوطنية .

ولا شك أن من بين أهداف الاستعمار المعلنة، هو إلحاق أرض الجزائر بفرنسا، وترسيخ هذه الفكرة لدى الرأي العام العالمي والأجيال الجزائرية الصاعدة عن طريق توثيق المعلومات وجرد الأشياء وإحصاء السكان بمنحهم الامتيازات التي تجعل منهم مواطنين مخلصين للدولة الفرنسية، وهذا لا يمنع طبعها بالمقابل من إثارة الفتن وانتهاج سياسة المغالطة في محاولة لتغطية جرائمها الفظيعة وتمزيق وحدة الجزائريين وصفهم وبث الشقاق بين السكان بتقسيمهم إلى بربر وعرب وأفارقة وأصليين ودخلاء، ليخلو لها الجو في تحقيق مآربها من تزييف الحقائق والتاريخ لتبرر وجودها في الجزائر على أنها سليلة الإمبراطورية الرومانية وأن لها الحق في بسط سيطرتها على الشمال الإفريقي، لكن ذلك كله لم يدفع الجزائريين إلى المساومة في حقوقهم، ولم يمنعهم من الاستمرار في المقاومة لإثبات هويتهم كشعب متكامل ناضج التكوين، وأن

لحمته الاجتماعية موحدة بفضل الدين الإسلامي واللغة العربية ؛ " وذهب بعض المستعمرين يبحث للقبائل عن أصل آري، وقالوا إنهم من أصل جرماني، وإنهم عرفوا المسيحية قديما . " [1]

والصورة التي يقدمها الكاتب للمجتمع الجزائري موقوفة على أعراق ثلاثة، وهي : الأمازيغي والعربي والإفريقي ؛ مبينا تمايزها، وما تضمره كل طائفة للأخرى من كراهية ونفور، ليعد تفرقها مكسبا في فنائها، كحدود فاصلة بينها تخدم مصالح إدارة الاحتلال الفرنسي .

غير أن الحقيقة عكس ذلك، فقد كانت الأمة الجزائرية موحدة بفضل تعاليم دينها الإسلامي الحنيف، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ *، إلى جانب تاريخها المشترك بين جميع الجزائريين والذي " تكون عبر العصور المختلفة، وتقاطع في كثير من فتراته مع تاريخ جيرانهم وإخوانهم في بلاد المغرب والمشرق ... وبكفاحهم الطويل ضد كل الغزاة والمحتلين الذين نزلوا بأرضهم، ولأجل ذلك أطلقوا على أنفسهم اسم الأمازيغ، أي الأحرار " [2] .

وما وجود هذا الاختلاف في اللهجة واللون والعرق إلا على قبيل التعارف والتنافس بين الناس في عملية التأثير والتأثر من أجل إنشاء عوامل حضارية كفيلة بتثقيفهم على التفاهم في الحياة وترقيتهم إلى الفضائل الإنسانية التي يحكمها الخير والحق والجمال، وفي الحديث النبوي الشريف : [... كونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا

---

[1] . أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه .ص 79 .

* الحجرات الآية 13

[2] . المرجع نفسه . ص 24 .

يكذبه، ولا يحقره. التقوى هاهنا ... بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام : دمه، وماله، وعرضه]*.

لقد عرف المجتمع الجزائري النظام القبلي منذ القديم، نظرا لتنوع مناخ الجزائر وتضاريسها التي تضم منطقة التل والصحراء مما جعل سكانها يحترفون مهنة الرعي – وهذا لم يمنع فئة منهم إلى مزاولة التجارة، والصيد البحري بالنسبة لسكان السواحل – وينتشرون في البوادي في شكل عشائر بربرية عربية تعيش تحت حكم كبار شيوخها . والقبيلة حسب أحد الباحثين في علم الاجتماع " تؤلف وحدة اجتماعية وسياسية واقتصادية متكاملة بل إنها تكاد تكون مجتمعا مغلقا على نفسه لا يتصل اتصالا ثقافيا بالعالم الخارجي، ولا حتى بالقبائل المجاورة إلا في أضيق الحدود ." [1] ؛ كما يعد الفرد وحدة أساسية في العائلة والتي بدورها تخضع للنظام العشائري، مما توجب على " الفرد أن يظل منذ ولادته حبيس الجماعة التي هو واحد منها، ترفض عليه ليس فقط عاداتها ومعتقداتها وطريقة معيشتها، وإنما تجبره أيضا على أن يتزوج ويعمل ويمتلك ويمارس عباداته طبقا لنظم وطقوس معينة ." [2]

ومن الصور التي قدمها فرومنتان عن المجتمع الجزائري، تمسكه الشديد بالدين الإسلامي وشعوره بوجود الله، وقد تمثل عنده ذلك، في تواجد نوافير الماء للوضوء، وإقبال الناس على المساجد، وإقامة فريضة الصلاة، والتسبيح بواسطة السبحة، ومجاهدة النفس عن اقتراف الذنوب، كاجتناب التدخين مثلا ؛ " ومن ثمّ كان الطابع الذي يميز ثقافة الشرق إنما يتمثل في الدين، فمنه انبثقت نظرة الشرقي إلى الحياة، ولعلي لا أخطئ إذا قلت

---

* رواه مسلم

[1] . سعد صناوي . مدخل إلى علم اجتماع الأدب ؛ دار الفكر العربي ط1. بيروت . 1994 . ص189. 191

[2] . صلاح مصطفى الفوال. علم الاجتماع البدوي ؛ سلسلة علم الاجتماع والتنمية . ط1، مصر 1974 ص 145

– بعد ذلك – إن جوهر الشرقي هو أن يحيى حياته الدنيا بكل أفراحها، وهو ينظر إليها من منظور ديني " [1] .

وفي نفس الوقت أشار إلى وجود الكثير من الطقوس التعبدية البالية المرتبطة بانتشار القباب والتوسل بالموتى والمرابطين والدراويش ؛ " ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه علماء أوروبا ينادون بالحرية العقلية لتحرير العامة من ربقة الخرافات ويبدعون علوما وفنونا للنهوض بالإنسان، كان مرابطو الجزائر يلبسون على العامة ويستغلونهم أشنع استغلال ويغرقون العقول في ظلام دامس . " [2]

وهذا ما جعل فرومنتان يحكم على العربي بأنه يعيش ماضيه الحزين والمشرق في حاضره العقيم، وهنا يظهر عجزه في انسداد أفق المستقبل لديه " ولذلك فلا مجال إلى صنع التاريخ لأن التاريخ يفترض الإيمان بالمستقبل وقدرة الإنسان على صنعه " [3] وهنا مكمن الفرق بين الشرق الأسطوري والغرب الذي لا يؤمن إلا بالزمن التاريخي، متطلع دوما إلى تأملات، يراوده حلم تحقيقها في آجال مستقبلية محددة .

وفي نظرةِ مُوَازَنَةٍ، رأى الكاتب أن العيش عند الأوروبيين يعني التغيير باستمرار، بينما عند العرب يعني لهم التواجد والتحمل، وهذا ما عده أحد الأسباب الرئيسية التي تمنعهم من الاندماج .

وقد وصف الكاتب العرب بأنهم أناس لا عهد لهم بالموسيقى ولا يتذوقون أنغامها، وقد فسر « فوندال » ذلك بالطموح الذي يراود العرب المبني أساسا على التفاخر مما در عليهم بالقليل وأفقدهم الكثير من سبل الحياة، على خلاف الزنوج وميلهم إلى الحفلات والأهازيج .

---

[1] . منى أحمد أبو زيد، الفكر الديني عند زكي نجيب محمود . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ط1 . بيروت ، لبنان ؛ ص 73

[2] . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي .ج6 .ج8 .ج10 . ص 482 . 483

[3] . عبد الصمد زايد . مفهوم الزمن ودلالته . ص 14

كما حرص الكاتب أن يقدم للقارئ الأوروبي صورة عن العنف الذي نسبه إلى الجزائريين، وفي ارتكابهم الفعل العدواني ؛ وأن ما تقوم به فرنسا، هو مجرد رد فعل تال يراد منه إقامة النظام وتسيير شؤون العامة ودعوتهم إلى الانضباط، وأنه ليس هنالك أفعال سلبية فرنسية ؛ فيكفي الجزائري بوجود فرنسا أنه يعيش في أمن وأمان لم يعهدهما من ذي قبل ؛ " هنالك بعض السنوات أيضا، البليديون لا يخرجون دون امتلاك بندقية صيد معبأة على الكتف، ويعتقدون بحذر أن يكونوا في جماعة وكلها مسلحة . لأجل إتمام هذه النزهة الصغيرة على بعد كيلو مترين فما فوق من مدينتهم . اليوم بطبيعة الحال، كل واحد يذهب بمفرده إلى ينابيع الوادي، مدخنا سيجارته معه الكثير من الأمان إلى الحديقة العامة من « السّجاد الأخضر » والكثير أكثر استحبابا (ترحيبا) . " [1]

وفي سرد قصة عن « عمار بن عريف » المدان في قضية قتل ابن عمه دون أن تثبت عليه الأدلة، تلميح إلى الضغائن الأسرية في المجتمع الجزائري، وحبّ الانتقام الذي ندد به الكاتب، معربا عن نوايا فرنسا في إقامة قوانينها التنظيمية للحدّ من هذه الآفات الخطيرة التي لا تتماشى مع القيم الإنسانية وروح التقدم ؛ وعن خبر تلك الحادثة يروي « فوندال » " في ليلة عندما دخل الدُّوار مع ابن عمه كان له على حد قوله، متأسفا عليه ؛ كلا الحصانين عَبرا الدروب الضّيقة ؛ ترك مرافقه مارًا أمامه، رفع مسدسه وأفرغ حمولته في كليته ... إنها مخاصمة عائلية، حقد (غل) من الحسد (الغيرة) على ما اعتقد، حَدَثُ طلقات المسدس ثابتة، إنها لـــ : عمار بن عريف هو ذاته الذي قصّها عليّ ." [2]

وسعيا منه إلى ربط أحداث الماضي بالحاضر، قام الكاتب بتدوين ما من شأنه أن يغدو مرآة عاكسة للبيئة والإنسان الجزائري، مثمنا أهداف رحلاته الثلاث الاستكشافية إلى الجزائر مظهرا مدى تباين الظروف التي تكون أحيانا في خدمة الدولة الفرنسية، وأحيانا أخرى تكون ضد مصالحها ؛ ففي رأي الكاتب أنه في المجتمع الجزائري هنالك المؤتمن الخدوم

---

[1] . Une année dans le Sahel . P 193 .
[2] . Ibid : P 173 . 174 .

وهنالك من يجب الاحتراس منه ومقاومته بشتى الطرق " ... في إحدى الحدائق . حصائر على الأرض عند أسفل شجرة تين . فوق رؤوسنا، قماش من خيمة علّقت من خلال حبال في ثلاث أشجار نخيل شكلت مثلثا ؛ القائد الذي بإمكاني رسمه خدمنا ؛ خيولنا كانت متعبة ... بسبب مشي الصباح . كان منتصف النهار، ... تحديدا في **15** مارس **1848** . غادرنا « الزمالة » مع ابن أخ شيخ العرب، « بن قنّاح » غنيّ ووسيم مثل جميع تعداد هذه العائلة الرائعة ؛ لما كنا في الطريق وفي وسطها بالقرب من دوار القرية، مراسل عربي الذي يبحث عنّا منذ الصباح أسرع نحونا في ركض (على ظهر حصان)، كان بحوزته تذكرة تخصّنا والصحيفة الأولى من القائد العام ، قائلا لنا ذلك، هذه التذكرة والصحيفة التي تحمل في مقدمتها : « الجمهورية الفرنسية » جلبت لنا الجديد غير المتوقع والخطير جدا ... قرأت ثانية هذا وذاك وبانتباه بعد وجبة الغذاء في الحديقة نفسها، في وسط دائرة من الناس أين لا أحد يتحدث لغتي . لكن جدّ مثير للريبة مثل العرب . أنت تعرف كيف أن الأخبار تذاع في هذا البلد، إنها الريح التي تنقلها ... " [1] ؛ وهنا تأكيد أن جل الجزائريين يحبون التباهي بنسبهم وجمع المال وادخاره وأنهم مفشون للأسرار وأنه بالإمكان إخضاعهم لصالح إدارة الاحتلال الفرنسية مع ضرورة إبقائهم من درجة ثانية إلى غاية اضمحلالهم تلقائيا مع مر الزمن بسبب تعصبهم وعدوانيتهم الجدّ مفرطة في نظر الكاتب .

2- صورة الفرد :

2 - 1 الجزائري العربي :

ومن زاوية أخرى رأى فرومنتان أنه لا يمكن إزالة الناس الذين يعيشون في مدينة الجزائر على تعدد أجناسهم والذين تجمعهم لهجة دولية وبربرية معروفة باسم « سابير »

[1] . Ibid : P 213 . 214 .

يتخذونها للتفاهم بالرغم من روح الاحتراس والنفور في تحد وكراهية والتي سرت فيهم ؛ وفي هذا ما يكفي للفصل بينهم، كما أنه عامل مهم لفنائهم .

واللافت للانتباه أنه وصف العرب بأنهم جيران متميزون، بإمكانهم الاندماج مع الفرنسيين، إلا أن ما يطلبون تحقيقه يعد ضربا من المستحيل في نظر الكاتب، كونهم " يتصرفون وفقا لأهوائهم، يفعلون كل ما قام به آباؤهم، يتملكون الأرض دون عملية المسح التي تقوم بها إدارتنا الفرنسية، يبنون دون مراعاة تخطيطنا لشوارعهم، يسافرون دون تقفٍّ لتحركاتهم، ينشؤون دون تقييدهم في سجلات الميلاد، يكبرون دون خضوعهم للتطعيم، ويفارقون الحياة ثم يقبرون دون اتخاذ الإجراءات المعمول بها عند الدفن تعويضا عما علّمتهم المدنية، يطالبون القانون أن يكون مكشوفا ؛ أن يعيشوا محتاجين، متسولين عند الأبواب، ينامون تحت النجوم الجميلة، يخلون الأسواق، ويتركون الحقول بورا، إنهم يحتقرون حتى التراب الذي انتزع منهم عنوة ويهربون من الأرض التي لم يصونوها، ما يمتلكونه يخفونه ويكنزونه والذين لا شيء عندهم يختبئون في بؤسهم وجميع الحقوق التي فقدوها ."[1] ليحكم عليهم بأنهم أناس أشقياء مبعدون يضمرون الكراهية للغرب عامة وللفرنسيين خاصة، في عدلهم وديانتهم وتجارتهم وصناعتهم وقوتهم وعبقريتهم ؛ مبديا حنقه منهم لعدم تجاوبهم مع هذا الرقي لصغر عقولهم مثل أطفال، بما يفسره الكاتب بقوله : " القوة لا تعجبهم أبدا ... هذا الذي يكرهونه، إنه جيرتنا وهذا يعني أنفسنا، إنها مظاهرنا، عاداتنا، طبعنا، عبقريتنا، يخافون حتى منافعنا ليس بمقدورنا إبادتهم لقد خضعوا لنا . لا يمكننا الهروب، إنهم يجنبوننا مبادئهم، حكمهم منهجهم في السكون والاختفاء قدر الإمكان بنفس تصرف النسيان . " [2]

وعلى قبيل التمثيل وإعراض العرب عن المدنية التي تنشدها فرنسا خوفا من اضمحلال مقوماتهم الشخصية في مشروعها الاستيطاني ؛ حصل وأن التقى الكاتب وهو في البليدة، عربيا هرما بائسا بيده عصا، وعلى ظهره حقيبة، أراد المبيت في الشارع، فأشار إليه الكاتب

---

1 . Ibid : P 24 . 25 .
2 . Ibid : P 25 .

بالتوجه إلى الفندق ؛ إلا أن الشيخ أعرض عن نصيحة محدثه وآثر الرحيل في صمت إلى وجهة أخرى " ناديته ولكن دون جدوى . لقد امتنع حسن الضيافة التي عرضت عليه في جدراننا وعن شفقتي التي قابلها بالفرار"[1] وهنا ليس غريبا أن يكون الرجل بدويا أمضى حياته في هدوء العراء يضطره المبيت خارج خيمته في الأسواق مثلا ؛ ليس له سابق عهد بالفندق ؛ الذي أسسه القناصلة الأوروبيون في الجزائر مقدما خدمات منظمة بشكل مناسب للمسافرين المنقطعين عن ديارهم والذي لا يخص بالضرورة زوار أهل البلد في السلم والاستقرار .

وفي أحد أجمل الأماكن بين المدينة الأوروبية وحي « القصبة » شاهد الكاتب تجمع العرب الموريسكيين أين يلعب أطفالهم مع الأطفال الفرنسيين مما تبين للكاتب أن أهواهم المواطنية قريبة إلى روح الفرنسيين إلا أنهم يلوذون بالفرار مخافة أن يوصفوا بالانتماء إليها، إنهم على الطبيعة غير مثقفين لكن لهم مواهب خارجية تجعل من الواحد منهم نموذجا كاملا من الجمال الإنساني، إلا أنه متحفظ شديد التدين، وعلى حد رأي الكاتب، قوله : " يمكننا أن نحكم هنا حيث إصراره لم ينخفض أكثر من ذي قبل على الرغم من امتلاكه جميع الأسباب الممكنة كي يكون متحضرا رغم نفسه، كونه بال من خلال الاتصال والاختفاء ... الذي أكرره، إنه يتلاشى قبل الامتزاج معنا . "[2] معيبا عليهم السكن في بيوت بيضاء شبيهة بالبرنوس القومي الذي يكسيهم ولكنها في حقيقة أمرها لمثل هؤلاء المنغلقين على أنفسهم بمثابة القبور وهم فيها كالأموات، لأنه لا أحد يمكنه اختراق هذه المنازل " كل شيء مظلل في هذه المباني المتفردة بخصوصيتها المثيرة للإعجاب شريك في التكتم لسيدها. النوافذ لها شباك والكل نوع من الاحتراس ضد كل إفشاء للأسرار ... هنالك الأشياء التي نجهلها ؛ هنالك لغزان كبيران لهذا البلد الثروة المنقولة والنساء " [3]

---

[1] . Ibid : P 25 .
[2] . Ibid : P 30 .
[3] . Ibid : P 31 . 32 .

وفي حديثه إلى صاحبه الذي يراسله بفرنسا، أكد له أنه لم يقدم له الصورة العامة لكل الجزائريين عدا حديثه عن الموريسكيين في الارتداء واللغة والعادات، فهم أشبه في عاداتهم بمن كانوا منحدرين من الريف، وسبب ذلك ارتباطهم بماضيهم التليد، بخلاف الزائر الجديد القادم من بلاد أوروبا حيث مزاياه الخارجية تظهر مدى تحضره ورقيه ؛ وفي هذا الصدد يؤكد أن الموريسكيين في مدينة الجزائر " يشكلون ثلاثة أرباع على الأقل من سكانها الأهليين . الباقي خليط من زنوج، من رحالة بسكريين ومن بني ميزاب، من اليهود، يتكلمون اللغة المشتركة وظلوا دائما كما هم منذ نقلهم تحت سلطة « تيتو و أدريان »، وأخيرا بعض العرب لكن بعدد قليل يمكننا القول مع يقين أنه لا يوجد عرب في الجزائر، هذه المدينة لم تكن على الأرجح عاصمتهم وحصنهم إلا عن طريق التّخيل ... " [1] مبديا حقده على العرب الذين يراهم سبب تأخر الموريسكيين في بلوغ الحضارة بما جلبوه من ثقافة وعادات في نظره حدت من نشاطهم ونشاط من حولهم " انظر العرب، انظر إلى الأوروبيين الذين يتصرفون مثل العرب، لأجل امتلاك وسيلة بطيئة ومريحة وتحويلها إلى انجازه في الحياة عبر انتحار مثير للحواس . " [2] مشيرا في ذات الوقت إلى أنه بالرغم من تقارب أصول الموريسكيين إلى العرب إلا أنه يوجد بينهما رباط مشترك من الكراهية والحقد الأخوي، ربما تحول هذا العداء إلى حرب لو لم تكن فرنسا موجودة بأرض الجزائر .

والفرق بين الموريسكي والعربي يراه الكاتب يتجلى بما يقوم به الأول من أعمال وارتداء لأجود اللباس في حين أن نساءهم موقرات في بيوتهن ؛ بخلاف ما هو معلوم عند العرب، حيث الشقاء للنساء والكسل للذكور ؛ بالإضافة إلى أن الموريسكيين يميلون إلى التجارة والموسيقى والاعتناء بالزهور وتربية الطيور وصنع العطور وأنهم لا يحبون ركوب الخيل وهذا مما جعلهم أقل شأنا في نظر العرب الذين تستهويهم الفروسية والذين يجمعون المال باحتراف نسخ التمائم " « الطُلْبَة » الذين نراهم يكتبون مع قلم من قصب على حروز

---

1 . Ibid : P 101 .
2 . Ibid : P 99 .

صغيرة مربعة من الورق وضعت دون تقديم مزيد من الدعم في اليد اليسرى وضمن الدواة (المحبرة) الطويلة من النحاس تغمد في طيّ من أحزمتهم، في هذه المنطقة تحت القلب أين الناس أصحاب الحرب يحملون الخنجر " [1] .

والنتيجة المؤكدة التي توصل إليها فرومنتان أن " بيت العربي هو سجن بقفل متين مغلق مثل صندوق قوي، ربُّ البيت بخيل لديه المفتاح يعمد على غفل كافة الأسرار ولا أحد يعرفها ولا أحد يستطيع أن يحصي ما لديه وكم يملك أو ما ثمن ذلك ... " [2] وهذا من داخل البيت أما في خارجه فهنالك عالم مخالف وحركة نشطة، فقد ظهر للكاتب صنف من رجال الصحراء بخلاف بني ميزاب الممتهنين بالجزارة ؛ إنهم البسكرييون الذين يشتغلون بواسطة قطعان الحمير في نقل الرمال، مميزون بلباسهم حيث القلنسوة الصوفية والسترة الخفاقة ومئزر الجلد ...، وكذلك صراخهم الحاد على بهائمهم التي تعمل فوق طاقتها لحمل أكوام الرمل وفي رجوعها يمتطونها والأرجل متدلية معيبا عنهم ذلك في استخفاف جزاء رفقهم بالحيوان " إنها ترتاح الآن في سحق تحت قاماتهم " [3] .

وفي ملتقى الطرق « سي محمد الشريف » أين يمضي الكاتب صباحه العربي لاحظ أنه لا يوجد جديد في حياة العربي إلا في ثلاثة أماكن المسجد للتعبد والحلاق للتزين والمقهى للتزود بالأخبار ووسيلة لأجل إهدار الوقت ؛ وحقيقة الأمر أنه في زمن لا أمن يصبح الناس كالسجناء من فرط فقدهم الأمل من هاجس الرقابة المفروضة عليهم من الاستعمار وسعيه في تضييق الخناق عليهم مما يشعرهم بالموت البطيء ويجبرهم على التقوقع في بعض من مجال الحياة دفاعا عن آخر ما يملكون .

وقد لاحظ الكاتب أن كثيرا من الناس يرتدون ألبسة مهملة، كوصفه لأحد العرب، قائلا : " كان عربيا من السهل، قصيرا قليلا وضخما قليلا، ملتح، جدّ مسمر مرتديا بَرنُوسًا،

---

[1] . Ibid : P 108 .
[2] . Ibid : P 35 .
[3] . Ibid : P 47 .

وعباءة، وتحت ملابسه مثل الفرسان من قميص وسترة واقية مطرزة من الحرير، خيط رقيق من الحرير الرمادي من قلنسوة ذهبية مرفوقة حول رأسه « بشريط » من حبل وبر الجمل الأسود، سبحة معلقة إلى الرقبة وحرزين أو ثلاثة حروز كانت مربوطة في تصفيفه شعره " [1].

واللباس لا تكمن قيمته في حماية الإنسان من قرِّ الشتاء وحر الصيف، بل له قيمة اجتماعية وثقافية أيضا ويضفي على صاحبه لونا حضاريا مميزا ويؤثر إلى حد بعيد في تكوين وتهذيب ذوقه الجمالي . " ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية كبيرة إذا ما اعتبرناه المنبع الذي تنبع منه الأفكار وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد والمجتمع " [2]

1-1 صورة الرجل :

أول شخصية حظيت باهتمام الكاتب، هو : « سليمان »، رآه خدوما محابيا متجاوبا بكل عفوية مع التغيرات الحاصلة في واقع الجزائر " بدأ يتحضر ؛ يتكلم الفرنسية ينظر بجرأة الغرباء ويتوقف عند الحانات من أجل شرب النبيذ ؛ كان غض الحلاقة، نشيطا، مرحا، مهندما ألوانا من شروق، سروالا أبيض، قميصا رماديا مائلا إلى بياض اللؤلؤ ووشاحا ورديا ومرتديا مثل امرأة في حفلة عرس ؛ زهرة من شجرة رمان مثبتة بالقرب من الأذن، جالبا اللجام في يد وفي الأخرى يدخن سيجارة وفي كل مرة يفتح فيها فمه لقاء تحريضه بهائمه، نفخات معطرة يخرجها من شفتيه " [3] مؤكدا أصله الموريسكي وهو اللقب الذي عرف به العربي المسلم الذي حكم بلاد الأندلس فلما غلب على أمره في إسبانيا نزح إلى بلاد المغرب

---

[1] . Une année dans le Sahel . P 165 .

[2] . مالك بن نبي، شروط النهضة . ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر ط3 . لبنان 1969 . ص 138 . 139 .

[3] . Une année dans le Sahel . P 41 .

ليستقر فيها ويتكاثر خاصة في المدن الساحلية " وقد كانوا يتميزون برقة الذوق والملبس والمتاع وبالتفنن في العمارة والنحت والموسيقى والغناء ... "[1].

كما شد انتباه الكاتب وهو في ملتقى الطرق « سي الشريف » أحد الشيوخ الموريسكيين الذي يبدو عليه الوقار وهو يدخل حديقة بيته وفي يده قفة من القش مملوءة بالبصل والبرتقال إشارة إلى الرخاء الذي ينعم به أمثاله من بني جنسه، وبالمقابل زنجي ملطخ بالجير الحديث مما كانت صورته مدعاة للتفكه والمراقبة في فضول " يتمايل من رجاج العجلات، ضاحك من أفكار مبهجة، التي صعدت إليه من جميع مقاصد ذهنية " [2] ؛ وفي عمق هذا الفضاء لاحظ ثلاث موريسكيات في مظهر طائش يثرثرن تحت أقنعتهن البيضاء ويستنشقن المسك ويعركنه عليه، وحياكهم تتملص عبر النوافذ مثل قطعة كتان خفيفة ؛ وهذا ينم عن استياء الكاتب لهذه الهيئة المنفرة لحواسه .

وفي مكان آخر على حدود المدينة أبصر الكاتب راعيا مرتديا لباسا أبيض، رآه وسيم الوجه يضع على رأسه قبعة " « شيشية » براقة على البعد بين نبات الصّبار مثل زهرة فريدة ذات لون أرجواني (قرمزي) " [3] وهنا ملمح لرسم فني تم التركيز فيه على خلفية الصورة وما ضمت من ألوان زاهية، بينما مظهر الراعي وثيابه يمثل المشهد الغريب فيه، بما يدعو جمهوره إلى تأمل هذه الصورة وإفرادها عن غيرها بسبب بيئتها التي انتزعت منها .

أ – معلم القرآن :

وعن معلم الكتّاب، لاحظ الكاتب أنه قد شاخ وانقطع عنه الأطفال كبار السن، بينما المتمدرسون فقد صففوا في وضعيات مختلفة، منهم من يجلس أرضا، ومنهم من يتكئ على الحائط، وآخرون يجلسون على مقاعد كرفوف " مستودع لأجل الضجيج والمرح من ساكنيه

---

[1] . نصر الدين سعيدوني . الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب . ص : 99 .

[2] . Une année dans le Sahel . P 41 .

[3] . Ibid : P 15 .

وكأنه قفص دواجن . المعلم دائما في وسط القسم يدير، يثقف، يحرس، يضع من ثلاث إلى خمس سنوات من التدريس وذلك بتعلم ثلاثة أشياء : القرآن، قليل من الكتابة ومن الآداب، العينين تتبع آي الكتاب، اليد موضوعة على عصا طويلة مرنة مثل السوط التي تمكنه دون مغادرة مكانه من المحافظة على النظام من الزوايا الأربع للقسم " [1]

وفي الكتّاب شاهد الكاتب جلوس الأولاد حول معلم القرآن يحفظون سور الكتاب ويتلقون بعض مبادئ الحساب وآداب المعاملة، وحين يكبرون ينصرفون إلى أمور الدنيا، ولعل ذلك نقله من انطباعات « شو » " إن حياة العرب البدوية وغير المستقرة والمظالم التي لا نهاية لها التي يرتكبها الأتراك ضد الحضر (السكان)، لن تسمح لأيهم بالتمتع بالحرية والهدوء والأمن التي أنجبت المعرفة في كل الأزمنة وشجعت عليها . " [2]

والمعرفة تعمل على تنوير العقول، وتهذيب الطباع وبها يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل من الحياة، ومن خلالها كيف تحفظ الحقوق والطرق المؤدية إليها، بما يبعث الضمائر إلى الثورة على الظلم وإزالته " لأن المعرفة تسمح دائما بالمناورة لمن يملكها في مواجهة الآخرين . وسيد المعرفة سوف يصبح وحده باختصار هو السيد " [3]

والغريب في الأمر أن معظم الملاحظين قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر لهم نفس الانطباعات على أن العربي لا عهد له بالمعرفة وليس له الوقت للدراسة والتفكير، وهذا ما صرح به « دولاكروا الابن » خلال الستينيات من القرن الثامن عشر، سيرا على منهج « شو »، قائلا : " إن شعب المغرب العربي جهّال وليس لهم ذوق في العلم أو الفن وهم بخلاء وغلاظ ومزدرون وشكاكون وحقودون ... " [4]

---

[1] . Ibid : P 53 .

[2] . جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ص 155 .

[3] . أحمد درويش . الاستشراق الفرنسي والأدب العربي . الهيئة المصرية للكتاب 1997 . ص 21

[4] . جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ص 155 .

وفي أثناء الاحتلال عملت الإدارة الفرنسية في الجزائر على إصدار التقارير الدالة على همجية المجتمع الجزائري وجهله، وتقهقر اللغة العربية أمام اللهجات المحلية، مما استدعى منها كدولة متحضرة، تنفيذ مشروعها التعليمي الرامي إلى إنقاذ الجزائريين من آفة الجهل، وأن تبصرهم بمتعة المعرفة والعيش في الحياة .

والظاهر أن التعليم في عهد الاحتلال ترتبت عليه نتائج وخيمة على سكان الجزائر، منها " انخفاض مستوى الدخل والمعيشة للغالبية العظمى من الجزائريين بحيث أن أعدادا ضخمة منهم حرمت من التمتع بالخدمات العامة كالصحة والتعليم والتي كانت تتوفر للوافدين المستوطنين " [1] ولعل فكرة إنشاء المدارس وتثقيف الجزائريين، غرض سياسي يراد منه التأثير على عقولهم وقلوبهم، لترسيخ فكرة التعايش مع المستعمرين، وتغليب اللغة الفرنسية لتحل محل اللغة العربية، " وهذا ما أعلنه « دوروفيكو »، قائلا : إن المعجزة الحقيقية التي علينا أن نصنعها هي أن نحل اللغة الفرنسية شيئا فشيئا محل العربية، بحيث نتمكن عن طريق هذا الإجراء من نشر لغتنا بين الأهالي، خاصة إذا أقبلت الأجيال الجديدة جماعات على التعلم في مدارسنا " [2] وهذا ما كان يرجوه فرومنتان في مناشدته حكومته الفرنسية في الإسراع بإقامة هذه المدارس وازدرائه الكتّاب الذي يمثل لديه طريقة التعليم غير المنتظم ؛ وهذا ما يقود إلى حقيقة مفادها " أن المدرسة القرآنية كانت لا تتمتع بأي دعم من السلطات الاستعمارية، وأنها كانت محاربة، ومضيقا عليها من الأجهزة الإدارية والأمنية، في حين أن المدرسة الفرنسية كانت إحدى أسلحة الاستعمار، ووسيلته للتغلغل داخل أوساط الأهالي، ولذلك كانت تعطى لها كل المساعدة ." [3] غير أن الجزائري من وازعه الديني وخوفا على أبنائهم من الاندماج في الاستعمار، قاطع المدارس الفرنسية الحديثة التي رأت في امتناعه عن

---

[1]. إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر . ص 155 .

[2]. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه . ص 60 .

[3] . المرجع نفسه : ص 234 .

التعلم والتحضر، بقاءه على الجهل والانطواء، ما يجعله سهل الانقياد والاضمحلال من تلقاء نفسه .

ب– الخادم :

كما أظهر الكاتب تنكره للشخص الذي يخدمه أي التابع وتعامل معه بمنطق الاستعلاء والهيمنة " وهو كل من تحوّل إلى الاستعمار الفرنسي واتصل به من الجزائريين البسطاء، ليخدمه ويكون له تابعا وخادما ذليلا لدواعي أسباب مختلفة، يمكن أن نرجعها إلى الجهل وقلة الوعي، وإلى الدعاية التضليلية المشوهة للمقاومات الشعبية، وإلى سياسة الترغيب والترهيب، في ظل وضع اجتماعي مأساوي " [1] ؛

وقد اتخذ فرومنتان لنفسه خادما عربيا اسمه " « أحمد » " [2] والذي ظل في رفقته طيلة رحلته الثالثة للجزائر دون أن يخصه بموقف معه إلا في موضعين من كتابه بقوله : " خادمي الذي لا يعرف عنه شيئا سوى اسمه (يقصد جاره البولوني) " [3] وقوله : " – سي بوجعبة ذهب ؟ قال لي وهو ممسك بي الركاب، العربي الذي يرافقني – نعم قلت له – وأنت إلى أين تذهب ؟ – أنا سأذهب إلى البليدة وفي ثلاثة أيام سأكون في فرنسا . " [4] وهذا ما يؤكد نظرته العنصرية حتى لمن هو في خدمته .

ج– القاضي :

وفي أحوال كثيرة تكون الأحكام الصادرة غير خاضعة للقرائن المادية والمعنوية مما يكثر الاجتهاد الذي أغلبه تغليب طرف على طرف آخر، وهذا دليل على فساد منهج العدالة مما يضطر الناس إلى تفويض أمرهم لله " سُلْطَنَا القضاء مرهقتان كل لم ينته لتلك التي أثارت

---

[1] . عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا. ص 53 .

[2] . Un été dans le Sahara . P 144 .

[3] . Une année dans le Sahel . P 19 .

[4] . Ibid : P 349 .

غضب القانون الإنساني، يبقى الملاذ الأخير هو أن نستدعي العدالة الإلهية والذهاب إلى المسجد لتقديم نقضٍ أمام الله " [1] .

ومن المشاهد التي كانت في دائرة اهتمامه بمدينة البليدة، صورة القاضي الذي لا يفارق أصابعه ثلاثة أشياء : غليونه من الياسمين وسبحته ومنديله التونسي، كمظهر للتباهي والتميز بالمكانة المرموقة التي حظي بها هذا الرجل وسط مجتمعه .

د- صاحب المقهى :

أما عن المقهى فقد شاهد صاحبها ذي الوجه الوسيم، واضعا يده على حصالة نقود، ويخدم زبائنه طفلان ضعيفا البنية، أحدهما أعور عاجز والأخر وسيم في هيئة فتاة ؛ مما يبدو أن الكاتب يلح في ذكر النقائص والسلبيات بما يجعل هذا المجتمع كله في انحطاط وتخلف في نظر الناظر إليه .

هـ- القهواجي :

والقهواجي الذي يرش زبائنه بماء الياسمين أو الفل، مغازلا زبائنه كعربون شكر عن أموالهم المتهاطلة عليه . وفي هذا ملمح عن صورة انتهازية سارية في عامة الناس بحثا عن الثراء والربح السريع .

ويبهج الكاتب أنه معروف في هذه المنطقة من ملتقى الطرق لا أحد يجرؤ أن يسبقه إلى الجلوس في مقعده المعتاد من جانب المقهى، مما أتاح له الامتزاج مع الناس " أتعلم بالمرة دروسا في اللغة وآداب السلوك " [2] والتعرف أكثر على حياة بعض الجزائريين الذين وصفهم بأنهم أصدقاؤه المقربون، منهم :

---

[1] . Une année dans le Sahel . P 117 .
[2] . Ibid : P 55 .

« سي إبراهيم التونسي » : موريسكي قليل الولد، يدير دكانا لطرز المحافظ الجلدية، ذو عقل راجح، أحسن ذات يوم ضيافة الكاتب، مهديا إليه زهرة كعربون صداقة، معبرا عن موقف رجولي وإنساني من رجل متفتح نال إعجاب الكاتب وقد تأسف عليه يوم أن سمع بوفاته ليتحول دكانه إلى خراطة لصنع الغليون .

أما عن « نعمان » : العاجز عن الحركة والممتنع عن تناول الطعام بسبب إدمانه على تدخين الحشيش أو ما يسمى بـــ« الكييف » إنه الراحة التامة والذي يؤدي إلى السُّكر ؛ وحتما كل من يتعاطاه سواء في قسنطينة أو الجزائر برأي الكاتب، يكون مالكا لطائر البلبل المغرد " جميع لحيته قد سقطت، وجهه كأنه وجه طفل يموت، الثابت أن المدخنين يقدرون المسافة التي لديهم لاجتيازها عقب زمن سيجارة . يمكننا الآن حساب كم من سجائر نعمان التي تقربه من المقبرة ..." [1] والذي مات في أثناء رجوع الكاتب من البليدة إلى الجزائر لحضور « عيد الفول » للزنوج ؛ حيث ألقى عليه نظرة الوداع من بعيد، وهم ينقلونه إلى مثواه الأخير محتفظا له بذكرى الغليون الذي أودى بحياته . وهذا نموذج في رأي الكاتب عن حياة المجتمع الجزائري المخدر، الذي يراه يحمل بذور فنائه بداخله، بسبب إصراره على البقاء في حال واحدة .

« سي عبد الله » : شيخ تاجر، لا يبرح محله، يمثل البرجوازية الجزائرية الصغيرة، يفتخر بشجرة عائلته التي تنتسب إلى الأصل المرابطي، من خلال الوثائق التي بحوزته، والتي عدّها الكاتب من صغائر الأمور التي تشغل سلوك العرب ؛ مداوم على إقام الصلاة بالمسجد، أدى فريضة الحج شابا، وتزوج من ثلاث نساء، " ومن التّزمّت يكره ويحتقر كل ما هو قبائلي ويهودي، يستخدم هذه الأسماء على حد سواء من العبارات البذيئة، « قبايلي ويهودي – قبايلي بن قبايلي » يعني قبائلي بن قبائلي يضعها في نبرة عجيبة منفّرة . وهذه تعادل تقريبا إلى الشكل « الكلب بن الكلب » " [2]، من خلال ما أبداه من غيض دفين على إحدى

---

[1] . Ibid : P 59 .
[2] . Ibid : P 71 .

النساء المتحجبات التي زارته في محلّه، والتي شدّت انتباه الكاتب إلى تقصي خبرها لاحقا، " استدارت زاوية الشارع، سمعت في فترة من الزمن ضجيج خلخالها المعدني والحديث . بدأ استئناف عَدْوِه مع الطبيعة الأكثر عظما ؛ في هذه الأثناء لاحظت أن عمي عبد الله لم يغادرني لأجل الذهاب إلى الصلاة وفق العادة بدأ عاقلا في هذره " [1] ؛ ليتفاجأ الكاتب بدخول ابن سي عبد الله عليه ؛ صاحب الاثني عشر ربيعا مبتسما، مسلما عليه بيده، رآه على وشك التكلم بالفرنسية ؛ لكنه تأسف على قصور الدولة الفرنسية في التعجيل بإنشاء المدارس لتعليم الصغار من أبناء العرب الذين رأى فيهم ملامح الإقبال على تعلّم اللغة الفرنسية .

و- الحلاق :

المزين « حسّان » : " إنّه رجل بين عمرين، لا جميل ولا قبيح، دعيٌّ (مغرور) في هيئته، و جِدٌّ مألوف بالنسبة لعربي، إنها المهنة التي أرادها في الظاهر، إنه يرى ويستقبل جميع أنواع الناس . " [2]

ز- المثقف « بن حميدة » :

« بن حميدة » رجل شاب طويل القامة ذو وجه نحيف يتميز بذكاء وثقافة واسعة وأحد طلبة إحدى الزوايا، وهو مؤلف هزلي درس في ثانوية بفرنسا، يتقن التحدث بالفرنسية، " تعلّمه بدأ من بيننا، بدأ يمتلك تطوير ثوابت أهلية (مهارات)، لا نستطيع إيجادها إلا نادرا عند الأمة العربية حتى في أعلى الأقسام " [3]

---

[1] . Ibid : P 67 .
[2] . Ibid : P 162 .
[3] . Ibid : P 164 .

ح– القائد :

يشرف على « سوق السبت »، ويقوم بمهام القاضي وسط أهله الحجوطيين خلال هذه الأيام الخصبة بالمنازعات والمخاصمات على المصالح والاحتيال والقضايا الصغيرة المتصلة بجميع العلاقات، والتي تضبط في جلسات فورية .

إنه « القايد » رجل في الخامسة والأربعين من عمره، طويل القامة، نحيف ووسيم، ذو نظرة حادة نابعة من عينين رائعتين، جعلت منه شخصا مهابا ومقتدرا على قيادة غيره، وصاحب بشرة ناعمة، يرتدي الملابس البيضاء التي تعلوها « القندورة » دون وضع « البرنوس » بسبب حر الصيف ؛ دعا الكاتب وصاحبه لحضور موعد « الضيفة » ولم يخطر بباله الضجر منهما " كان ودودا لـــ« فوندال » ومهذبا لأجلي، دون أن يعيد حسابه بدقة من هذا الذي نؤديه الواحد والآخر في بلده . " [1] ليتأكد للكاتب في نفسه، صفاء نية هذا الشخص المسؤول، والذي يراه متفهما ومندمجا في سياسة فرنسا، وخدوما لمصالحها في هذه المنطقة من السهل، قصد إخضاع أهلها الحجوطيين المعروفين بالعناد وحب الحرب والفروسية .

ط– أمين السود :

إلتقاه الكاتب في الجزائر بمناسبة إشرافه على افتتاح حفل « عيد الفول » الخاص بالزنوج، والذي يقام كل سنة من شهر أبريل، قصده في جناحه المزين بالبنود الملونة الخفاقة وسط المخيم الذي أُعدَّ خصيصا لهذه الشخصية المرموقة والمعروفة باسم « أمين السود » في الجزائر .

رجل صغير نحيف وصاحب لحية جعداء، ونظر ثاقب ينم عن حنكة " رجل بمعنى الكلمة من النادر أن نجد مثله ...، يقدم القهوة إلى من يبدو عليه الرغبة في هذا الشرف، ...

---

[1] . Ibid : P 315 .

لقد مثلته دون شك شخصا مرموقا، لأنه وجه لي دعوة استضافة " [1] ؛ وهذا بيان عن الأصل المتجذر لدى السود في السعي دوما إلى خدمة الضيوف ولو كان سيد قومه .

ي– عمار بن عريف :

هو لاعب شطرنج، متحفظ الإيماءات . بارد الأقوال، قصير قليل الأناقة، صلب، ووجهه نصف مقنّع عبر طية مرتفعة من عبائته، على خديه شحوبه ملتهبة، حدَّا شنبه منتصبة " عيناه من لون الفحم في النار وملابس متواضعة في قماش داكن دون كثير من التطريز، لكن مع كل أنواع الأسلحة ممرَّرة في الحزام، تولى في فارس محنك حصانا مائلا إلى اللّون الرّمادي ... كان له سلاح فرنسي، بندقية من ماسورة مزدوجة أَيْنَ كان يلقي فيهما حفنة يد (أو أكثر) من البارود، ... لكنه دائما معروف بمظهره الغريب نوعا ما، ومن حصانه المتلألئ كله من الفولاذ المنقوش... " [2]

ك– الفرسان :

كانوا يركضون على خيلهم، منفردين أو في أزواج استعدادا للألعاب الجماعية والتسابق، ممسكين اللجام بيد وملوحين بالبنادق أو السيوف باليد الأخرى ؛ ممتطين جيادهم المزينة ذات السرج المزركشة .

وقد ذكر الكاتب أسماء هؤلاء الخيالة، كالشيخ : « قدور » الذي أعاد سباقاته مع فرسه المنحوتة مثل السّلوقي و« جلول » فوق حصانه العنابي والمزخرف بالحرير القرمزي . و« بن سعيد خليلي » الذي كان مرتديا اللباس الوردي وصاعدا على حصانه، كله أسود كالغراب و« محمد بن داود » صاحب اليد المقطوعة، الطاعن في السن، وأحد المحاربين القدامى ؛ تعطى له البندقية معبأة لأنه لا يستطيع جعلها على كتفه ويطلق نيرانها بذراع ممدودة مثل المسدس . والشيخ « بونوة » حمو « القايد » كان جبارا كبيرا جسيما أبجر

---

[1] . Ibid : P 227 .
[2] . Ibid : P 332 .

(بطين)، ملتح لحية كثيفة، ذا وجه أشقر وعينين مشرقتين ومدورتين مثل عيني نسر، مرتديا عباءة واسعة، " إيه لقد صعد حصانا من قامة طويلة، مجهّز بثقل، ذو حوافر عريضة، وعنق ضخم، الذي يعدو مع مغالاة ... كان يرتدي مع اتساع منفرد « حائكا » (عباءة) خفّاقة، ... وزن ملابسه وبدانته يمنعانه من الارتفاع عن السرج كما ينبغي، يلوح ببندقية وسيف قبائلي وكأنه في الحرب "[1] .

وهنا يظهر الكاتب مسهبا في ذكر أسماء أشخاص في لحظة ابتهاجه باحتفال الفروسية والذي يرى فيه نوعا من المبالغة الجوفاء وعيدا للتفاخر بركوب الخيل واللباس الأنيق وحضور الولائم الهوميرية لإشباع البطون والترفيه عن النفوس .

ل– المجرم :

وفي مشهد آخر، أربعة أشخاص مجرمون، مقيدو الأيدي تحت المطر، وعليهم حراسة مشددة من فصيلة قنص قِوامها ثمان وأربعون بندقية، وفرسان لحماية القانون، يتقدّمهم جوقة الموكب الجنائزي، ويمشي خلفهم حشد من الناس صوب غابة الزيتون، أين تُلي عليهم بيان حكم الإعدام الصادر في حقهم باللغة الفرنسية ثم باللغة العربية ؛ " كانوا واقفين، هادئين، مرتكزين على أرجلهم مع ثقة في النفس التي لا تنحني أبدا، كل واحد منهم هادئ أمام الموت القادم، اليد اليسرى متدلية، اليمنى مرفوعة إلى أعلى الجبهة والسَّبابة نحو السَّماء، إنّه في هذا الزّي الغريب – هذا العربي الذي يتوسل قدره – ينتظر مع هدوء لحظته الأخيرة ." [2]

وقد فسر فوندال هذا الموقف للكاتب أنهم يفكرون في أن هذا هو الذي كتب عليهم ؛ أنه لا مفر من قضاء الله وقدره . وبعد إطلاق النار عليهم تركوهم في العراء، وقبيل مغيب الشمس تم حملهم على ظهور البغال لمواراتهم التراب .

---

[1] . Ibid : P 330 .
[2] . Ibid : P 183 .

م– زائر الضريح :

وفي وقت اجتياز الكاتب وصديقه حاجز المقبرة، رأيا " عربيا جاء لتوه يريد الدخول إلى سياجها ؛ وقد ذهب بخشوع، فقبّل القبر المقدّس وركع على ركبتيه على العشب لأجل تأدية صلاته الثالثة لأنها كانت الساعة بعد منتصف النهار . " [1]

ن– البيطري :

وفي سوق « باب السبت » من مدينة البليدة شاهد الكاتب حِرفِيًا بيطريا يُلبس حوافر حديد لحصان، حيث أشعل موقده بالحطب وبعر الإبل واضعا أدواته الحديدية أمامه، يعمل متماطلا و" يطبّق كما في أوروبا . لكن مع أقل جهد، أقل حذر، أقل إتقان " [2]

س– التعامل بين البائع والشاري :

والناس بين متسوق وبائع في السوق حيث السلع المتنوعة والأنعام المختلفة والخيام المتنقلة " وفي هذا الخليط حيث المنتفعون في انفراد يدركون التعارف بينهما، إنه من الصعب جدا تمييز الناس الذين يبيعون من أولئك الذين يشترون . التجارة تعرض في صوت منخفض مع حيلة الريفي وتكتم المتاجر العربي، يدخن الغليون لأجل التداول تشرب القهوة مثل طريقة ودية من الاتفاق ؛ هنالك بالمثل في فرنسا، قبضة اليد تعبير عن تثبيت السعر المبرم، تتم عمليات الدفع بندامة (بأسف)، المال يتدفق مع بطء ومع جهد مثل دم لجرح سيء الانفتاح . بينما في عمق المنديل يسمع ترديد الأصوات طويلا، قبل أن يتقرر لها الظهور، هذا الشيء الغامض، جدّ محروس (محفوظ) جدّ مدافع عنه، جِدُّ مختبئ، الذي يُسمى هنا « الدورو » " [3]

---

[1] . Ibid : P 197 .
[2] . Ibid : P 312 .
[3] . Ibid : P 313 .

2-1 صورة المرأة :

ويلاحظ أن موضوع المرأة عند الكاتب قد أخذ حيزا كبيرا من كتابه، حيث عبر عن انطباعات جلها خارجية، تجلت في جمال القد والعيون واللباس والحلي ؛ ممن أتيح لهن الخروج من البيت،كاليهوديات والزنجيات ؛ في حين أن النساء العربيات لا يخرجن إلا نادرا ومتحجبات وكأنهن محبوسات الحائك والبيت، ومثل هذا التفسير مرده إلى عدم فهمه بالتقاليد الاجتماعية والتعاليم الإسلامية، " والمرأة في نظرهم قدرية غارقة في الخرافات وهي ضحية التخلف والأمية، وهي لعبة الرجل الذي كان يشتريها بنقوده، كما يشتري البهائم والبضائع ... إنها آلة نسل وخادمة بيت وحاضنة أطفال وجالبة حطب وماء " [1]

أ- المرأة « حوة » :

لم يغفل الكاتب الإشادة بهذه المرأة، مما تطلب منه ذكرها **59** مرة بين لفظ « المرأة » و« حوة » و قد خصص لأجلها فقرات كاملة متحدثا عنها ؛ وقد تجلى ذلك في صفحات كتابه وفق الجدول التالي :

الصفحة	60	61	62	63	64	65	66	71	72	161
عدد المرات	01	01	02	02	02	01	01	01	01	01

الصفحة	162	174	175	176	177	179	180	181	198	199
عدد المرات	01	03	01	01	01	02	03	01	01	01

الصفحة	200	201	202	204	205	207	209	210	215	229
عدد المرات	05	02	02	03	03	01	02	01	01	01

[1] . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج6. ص 337 .

الصفحة	239	318	319	320	321	322	336	340
عدد المرات	01	01	01	01	03	01	01	01

ففي إحدى زيارات الكاتب إلى « سي عبد الله » في دكانه، تفاجأ بدخول امرأة على صاحبه دون سابق موعد بينهما، مما أثار فضوله إلى تقصي حقيقتها ؛ لافتا عناية قرائه بقوله : " أسجل بين قوسين هذه الحادثة قليلة القيمة المتبقية و التي تخرج عن إطارها المألوف من أفكاري و من قصصي، إنه متمثل في لقاء مع امرأة عربية، و المغامرة كونها كذلك بسيطة وهي مؤلفة فقط من انطباع متناغم " [1] .

رآها امرأة عاطلة ومعتنية بنفسها، وقد وصفها « سي عبد الله » بـــ" القبايلية " احتقارا لشأنها ؛ كانت ترتدي « حائكا » وتضع على وجهها قناعا وفي ساقيها خلاخل مجلجلة ؛ استفسر الكاتب عن أمرها في البليدة فوجدها عربية من أصول صحراوية تعيش مع خادمتها في بيت ضم أسرا يهودية وقد تزوجت مرتين، من زوج ورثت منه الثروة وآخر جلب لها الشقاء طامعا في مالها وهي تمقته، تقضي بعضا من وقتها مع صاحبتها عيشونة المرأة التي تشتغل راقصة حفلات .

قام الكاتب رفقة صاحبه « فوندال » بزيارتها والمبيت عندها " صوت حوّة إنّه موسيقى ... إنها تتحدث تقريبا مثل طائر مغرد ... أحب أن اسميها « عيني »، وهي تجيبني : « حبيبي » (يا صديقي) أو « روح ديالي » (يا روحي) ولا شيء أكثر تناغما وأقل حماسّا (اتقادًا) : عندليب في قفصه مثله هكذا . إنه من الصعب شرح ما نقوم به عندها . وكيف الوقت يمر هنا "[2].

---

[1] . Ibid : P 60 .
[2] . Ibid : P 204 .

كان الكاتب يتفقد مجوهراتها وصناديق ملابسها وأثاث بيتها معجبا بتزينها حريصا على محاورتها بمستجدات حياته اليومية إلى غاية استسلامها للنعاس " « حوّة » هنالك نامت مرتدية كل ملابسها، تتبع العرف العربي ولم تتأخر عن النوم " [1] .

وفي موعد احتفال أهل الحجوط بالفروسية وقعت المأساة كما وصفها الكاتب بموت « حوة » التي دهسها زوجها « عمار بن عريف » بحصانه فارا ناحية الجبال الوعرة ليبدو الكاتب متأسفا على موتها بعض الشيء، في ظرف شهد فيه انفصال صاحبه « فوندال » عنه وتطلعه في الرجوع إلى بلده بعد إتمامه فصول كتابه .

وفي هذه الصورة القصصية الرمزية، ليس بعيدا أن يكون الكاتب قد مثل الجزائر بهذه المرأة « حوة » الجميلة والغنية غير أنها في نظره غير مثقفة ولا متحضرة، سعى الكاتب إلى الأخذ بيدها إلى التقدم الذي ينشده، إلا أنها لقيت مصرعها من زوجها « عمار بن عريف »، الذي لم تقبل به شريكا لها ؛ تاركة خلفها مجوهراتها وملابسها الفاخرة التي تبدو كأنها ورثتها عن سلطان، وزوجا ملاحقا من العدالة، إشارة إلى القانون الفرنسي في ملاحقة الجزائريين وتصفيتهم جسديا كمجرمين لصرف نظرهم عن خيرات بلادهم، والتي تراها فرنسا في وضع مهان وتحلم يوما من تجريدها منهم وفرض السيطرة في امتلاك أرضهم كخارجين عن القانون .

والكاتب لا يروقه النظر إلى المرأة المتحجبة، فهو يرى أن « الحائك » عامل تخلف لها، وعدم ارتدائه دليل تحضرها، مستمدا هذه الفكرة من بيئته لسيطرة المرأة في المجتمع الأوروبي دون مراعاة الوازع الأخلاقي ؛ كما استنكر نظرة الرجل العربي في احتقاره المرأة السافرة، وتبجيله للمتحجبة ؛ وقد تجلى ذلك، في دفاعه عن المرأة التي يعرفها " ... لكن واحدة أظهرت خدودها (يقصد حوّة)، الأخريات بقين محجبات . واحدة تفتح إراديا مزلها . الأخريات يغلقنها : هذه ليست نُقطة في مسألة شعورية إنها مسألة من انضباط . كل الفرق

---

[1] . Ibid : P 210 .

يكمن في الستار (الحائك) : يخفض المرأة التي تكون نزيهة . ويرفع المرأة التي ليست كذلك . إنه كما ترى، جد ظاهري، جد مخالف للصواب وفي أثناء ذلك مقدس مثل أساسي ومحترم مثل الواجب وعلاوة على ذلك يضيف « فوندال » دعونا نفعل ما قبل الحكم إنه منافق، قاس، جعل ضحايا ويختار الشر، ذبحهم دون أن يكون له الحق، في العمق (الصميم) كان مفيدا . عدم التسامح (التعصب) كان نفاقا من الفضيلة حسنا، لكنه هو أيضا الثّناء الأخير أعيد إلى القانون الأخلاقي من قبل أناس، الذين ليس لهم كثير من الآداب " [1]

والنّساء لا يدخلن قاعة المداولة مطلقا، بل يتجمعن في غرفة مجاورة ذات نافذة بشباك، يعرضن من خلالها قضاياهن ولا يسمع إلا أصواتهن " المرأة التي تبقى مغطاة والتي تتوسل عبر الفتحة الضيقة، باستطاعتها على الأكثر تمرير أصابعها عبر شباك الأقضبة التربيعية وتساعد على إيمائية قصيرة لأجل تنشيط عرض قضيتها . "[2]

ب- حارسة الضريح :

في أرض مسورة مليئة بالعشب ومغطاة بالمقابر، بها عدد من الأضرحة لشخصيات مشهورة من المرابطين تحت قبة مسننة، تحرسها امرأة ترتدي معطفا مخططا بالأزرق والأصفر ومن الأحمر المشرق، سيء المسك على كتفيها، الأذرع والأقدام عارية والرأس محاط بوشاح أسود والوجه نصف مستتر بشعر كله رمادي، تمسك في يدها عصا طويلة ورقيقة من القصب .

ويؤكد الكاتب أن المقبرة عند العرب فضاء للتواعد والمتعة خاصة لدى النساء المتزوجات، واللواتي يجدن في زيارتها فرصة للخروج والالتقاء والتجمع في حلق قصد إظهار مفاتنهن هروبا من صرامة البيوت المغلقة " من يدري ما يقلنَهُ من نميمة، من حكايات الحي، من ثرثرة من أسرار مترلية ومغامرات غرامية من خدع صغيرة ؟ أكثر حرية هنا مما لهن في

---

[1] . Ibid . P 321 .
[2] . Ibid . P 116 .

الحمّام، إنه ليس لهن من كاتمين وشاهدين إلا أناس بالغي الحكم الذين هم ينامون تحت أرجلهن ... (والذين) لا يهدأ لهم بال إلا حينما يترل عليهم الليل من جديد . " [1]

3-1 صورة الطفل :

باعتراف الكاتب متحدثا عن حياة العرب " أما بالنسبة للحياة الخاصة (يقصد العربي الموريسكي)، إنما كما في جميع الشرق محمية بالجدران، لا يمكن اختراقها لهم منازل مستقلة مثل الدكاكين، نفس التشابه غريبة الأطوار وحتى مهملة من الخارج ..."[2] ؛ لينفذ بسمعه عبر النوافذ، مسترقا أحاديث النسوة وهن في بيوتهن وأصوات البلابل في أقفاصها، أو من حين لآخر أنغام آلة موسيقية أو الضرب على « الدربوكة » و أحيانا الإصغاء إلى " أنين طفل ينوح في لسان فريد من نوعه، وضمن تمتمة مختلطة بالبكاء ليس لها وصف لأجل أذن غريبة " [3] .

وعند صاحب مقهى ملتقى الطرق بالجزائر، شاهد الكاتب غلامين يخدمان الزبائن، أحدهما أعور ضعيف البنية، والآخر أنيق يرتدي لباسا مثل فستان " وفي عالمنا حيث يتم التعرف أفضل بين الجنسين، بإمكانه الانتقال إلى فتاة جميلة . " [4]

وفي البليدة، حضر الكاتب وصاحبه فوندال حفل مولود جديد للزوجيين الزنجيين « سعيد » و« يسرى » خادما « حوة » ؛ وقد تعجبا من كون الطفل ليس تقريبا أسود، ومع ذلك أخبرهما والده أنه " شيئا فشيئا سيصبح زنجيا في الانتظار " [5] .

وفي حفل الفروسية عند الحجوطيين، شاهد الكاتب طفلين جميلين، واحد من ست سنوات والآخر من عشر سنوات " الأكبر مرتديا قميصا ؛ مزينا شعره ؛ ومنتعلا مثل جندي

---

1 . Ibid : P 87 . 88 .
2 . Ibid : P 33 .
3 . Ibid : P 34 .
4 . Ibid : P 55 .
5 . Ibid : P 175 .

شاب، ... وكأن الاحتفال قد أقيم على شرفه ؛ ... كانا نائمين في استلقاء على البطن بطريقة تقدم إليهما الوسائد . " [1]

وفي نفس مخيم الفروسية، تخلت الراقصة « عيشونة » عن الحفل بسبب الموت المفاجئ لزميلتها « حوة » ليخلفها " شاب في السادسة عشر من عمره كان قد اختير لأجل أن يحل محل « عيشونة » . التي كانت الأكثر مأسوفًا عليها من الغائبتين " [2] ؛ فتأدية الرقص من الشاب لم يكن مرحبا به، ومع ذلك بدأ الرقص وسط الحشد المتحلّق مع التصفيق بالأيدي دون اكتراث بأمر الميتة .

كما لاحظ الكاتب أن أفضل الأطفال تأقلما مع الفرنسيين واليهود هم أبناء الموريسكيين كونهم شبه متحضريين .

وفي بيت قرب مقبرة ضمت ضريحا، تسكن عائلة بأكملها قرب الأموات، أين " هؤلاء الأطفال الذين يولدون و يكبرون فوق هذه الطبقة من الرماد الإنساني، هذا الجوار المهجور من الحياة ومن الموت . "[3]

وفي الشتاء، لاحظ الكاتب بؤس هذا الفصل الذي تجلت آثاره على الضعفاء، حيث الماشية تثغوا من المعاناة والسعال و" الأطفال يموتون من البرد ولا يستطيعون النوم، مضايقون تحت المأوى للأسر الفقيرة . " [4]

وفي صورة أخرى ملتقطة من ساحة السوق بالبليدة رأى الكاتب فرقة أطفال من الأهالي يمارسون تمارين مهارة وخفة وسط المدارس الفرنسية الحديثة المقامة هنا ؛ " اللعبة تشتمل من رمي الكرة أو العصا، أو أيّ شيء آخر خفيف، الذي يمكن أخذه بسرعة ورميه بعيدًا، كل لاعب مسلّح بعصا، والذي يصل الأول ينتزع الكرة ويرميها من جديد .

---

1 . Ibid : P 324 .
2 . Ibid : P 338 .
3 . Ibid : P 83 .
4 . Ibid : P 96 .

اللاعبون كانوا حديثي السن من ثمانٍ إلى اثنتى عشرة سنة . مستحب الوجه ونحيل الهيئة، مثل باقي صغار الموريسكيين مع سحنة نقية، العيون كبيرة وجميلة، لون البشرة أيضا صافية مثل النساء . كانت أذرعهم عارية، أعناقهم مستدقة، تخرج من صدرية جدُّ مفتوحة، سراويلهم فضفاضة، كانت مرفوعة إلى أعلى الركبة كي تساعدهم أكثر للجري، و« شيشية » قبعة صغيرة حمراء، شبيهة بطاقية أطفال الجوقة الموسيقية، مزخرفة بصعوبة تعلو رؤوسهم الجميلة الصلعة . في كل مرّة الكرة كانت تتوقف تنطلق، جميعهم يندفعون إلى تتبعها جنبا إلى جنب في مجموعات مرصوصة، مثل الغزلان ... "[1]

وفي مخيم مهرجان الفروسية، شاهد الكاتب نوافذ الخيم تعج بالنسوة، والتي لم تكن كفاية واسعة لمشاهدتهن ميدان عدو الخيل ؛ وإلى الجانب لفت انتباهه " مجموعة من الأطفال يمرحون في جميع النواحي مثل الكتاكيت في حدود الحظيرة، وكلبان أو ثلاثة كلاب من أحسن الحراس تَحْرسُ القادمين . " [2]

2 - 2 الجزائري من أصول أفريقية :

والملاحظ أن فرومنتان حرص على تقديم الجزائري من أصول إفريقية، في هيئة تابع من الدرجة الأخيرة من السلم الاجتماعي الجزائري، مظهرا تفانيه في خدمة سيده العربي، مما ترسخ على ما يبدو في ذهنه من تصورات عن سلوك العبيد اتجاه أسيادهم، ذلك أن " الكيان النفسي للعبد يختلف عن الكيان النفسي للحر، لا لأنه من عرق آخر ولكن لأن حياته في ظل العبودية الدائمة جعلت أجهزته النفسية تتكيف بهذه الملابسات، فتنمو أجهزة الطاعة إلى أقصى حد وتضمر أجهزة المسؤولية واحتمال التبعات إلى أقصى حد . فالعبد

---

[1] . Ibid : P 256 .
[2] . Ibid : P 317 .

يحسن القيام بكثير من الأمور حين يأمره بها سيده فلا يكون عليه إلا الطاعة أو التنفيذ، ولكنه لا يحسن شيئا تقع مسؤوليته على نفسه ." [1]

ولم ينكر الكاتب المعاملة الحسنة التي يتلقاها الجزائري الزنجي مع أفراد عائلته العربية، وإخلاصه لهم ؛ وهذا ما عبر عنه فرومنتان رفقة صاحبه فوندال وهما في ضيافة « حوّة » " تناولنا وجبة العشاء على السّجاد، ... وتقديمه كان من خلال الزنجيتين (يسرى وياسمين)، وكان زوج يسرى – الذي لهذه المناسبة – قدّم لنا إبريقا ومنشفة مطرزة من الحرير الملون ." [2]

2 - 3 اليهودي :

والمتمعن لكتاب فرومنتان يجده يفاضل بين الميزابي والبسكري العربي والأمازيغي والموريسكي والجزائري من أصول إفريقية، كما تحدث عن اليهود كلاجئين إلى الجزائر حرفيين وتجار ؛ يعيشون في أحياء قذرة ويرتدون الثياب المميزة ويحتكرون أسواق المال .

ويلاحظ أن هنالك اتفاق بين الثقافتين المسيحية والإسلامية على أن اليهود أناس خبثاء وغير أمناء وذوي سمعة سيئة في أوروبا والعالم العربي والإسلامي ؛ فقد بدأت اليهودية محرضة على اضطهاد المسيحية الأولى لتصبح بعد اعتناق أوروبا الدين المسيحي، ديانة مجموعات مضطهدة، لم يتسن لها الاستقرار في أوروبا إلا في بداية القرن التاسع عشر ؛ ونيل حق المواطنة الفرنسية بعد أن رأت فرنسا في اليهود خير وسيلة لتحقيق مصالحها في الجزائر، مفسحة المجال أمامهم إلى التطور الديمغرافي والنشاط الاقتصادي " وأدى النجاح الاقتصادي الذي حققه اليهود في ظل الحماية الاستعمارية إلى إثارة مخاوف المعمرين الفرنسيين الذين كانوا يرون أنهم وحدهم الجديرون بحكم الجزائر واستغلال خيراتها وقد أدى هذا التخوف إلى

---

[1] . عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا . ص 72

[2] . Une année dans le Sahel . P 208 .

ظهور نزعة معادية لليهود بين جماعات المعمرين الذين لاحظوا أن الوضع الاجتماعي المميز والثقل السياسي الذي بدأ يمارسه بعض اليهود قد أضر بمكانتهم ونفوذهم " [1]

وقد لاحظ فرومنتان تقوقع اليهود في تجمعات سكنية، تكثر بها المشاحنات الكلامية البذيئة مع صراخ الأطفال، وإبداء الحقد على الزائرين عليهم " مثلما اجتزت الفناء لأجل مغادرة المنزل ؛ أحد الأطفال اليهود، الأصغر سنا، بَصَقَ (بَزَقَ) إلى جنب، مديرا رأسه ؛ هذا الذي أنت تعرفه، إنها علامة الازدراء . " [2]

3 - الكاتب واللغة العربية :

وقد استعمل الكاتب على لسانه، عددا من الكلمات العربية الفصيحة والدارجة في العامية الجزائرية، تناولت بعضا من مظاهر الحياة اليومية للإنسان الجزائري، تمّ رصدها من كتابه في الجدول التالي :

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
شيشية (قبعة)	256	سابير (لهجة)	23	فندق	237	برنوس	144
دربوكة	35	كوغيكولو (عربة تجرها الدابة)	40	الغزالة (عربة نقل)	41	الحايك	324
المسك	42			قندورة	315	سروال	50
تلاثة دورو ربعة دورو خمسة دورو	52	مسك الرومي	57	حشيش	58	سلام (تحية)	173
		واش أنت (كيف حالك)	62	لا،لا (لا للرفض)	62	اسبت (أحزمة)	64
حاج	57			الكيف	69	سيدي	71
قبايلي بن قبايلي	72	تكروري (حشيش)	109	القفطان	117	تليس (كيس للسفر)	129
اجبيرة (كيس	144	وريدة (زهرة)	150	بَالاَك (خذ حذرك)	156		

[1] . نصر الدين سعيدوني . دراسات وأبحاث الجزائر في التاريخ الفترة الحديثة والمعاصرة، ج2 ؛ ص : 291

[2] . Une année dans le Sahel . P 181 .

للنقود)		شريط	165	با، با، با (لإبداء التعجب)	168	جراد	168
السلام عليكم	173	وعليكم السلام	17			شوية شوية	175
من هو ؟	176	آش كون (من الطارق)	176	يا يسرى	176	حلّ الباب	176
واش اسمك	179			واش ! أتكيّف ؟	179	فوطة	178
حناء (خضاب)	178	شوف البرارج	191	شوفتوشي ؟ !	191	قيام، قيام، قيام، (صوت اللقلق)	192
سلطان	101	عيني	204	حبيبي	204		
روح ديالي	204	كسكسو	205	جربي (غطاء خشن)	210	القايد	308
عيد الفول	216	الخلخال	222	الأمين	227	البيتة	204
ريح الخمسين	280	احبارى	286	الضيفة	307	« إن شاء الله »	348
يو يو ... (زغرودة)	323	ارْرًا (صوت)	323	يا (أداة للنداء)	176		

وإذا كان هذا القاموس يعبر للكاتب عن الثقافة التي اكتسبها في رحلته ومدى معايشته وتغلغله في الوسط الجزائري، فإنه من جهة أخرى يعد مظهرا رومانسيا حرص الكتّاب قبله إلى إبرازه في كتاباتهم، باعتبار الألفاظ التي يدخلها ضمن ما يسطره قلمه هي وسيلة أيضا لإبراز تفوقه وإبهار القارئ الفرنسي وإدخاله في جهة " الاغتراب L'exotisme " [1] .

يرى فرومنتان أن اللغة العربية عسيرة الفهم والتواصل، تكاد تكون محصورة فقط عند العرب ؛ والظاهر لديه أن بعض المستوطنين يعرفون المستعملة منها، في حين أن باقي سكان مدينة الجزائر يستعملون خليطا لغويا يعرف بـــ« سابير » وهو مزج من بعض اللغات الأوروبية كالاسبانية والبرتغالية والايطالية والفرنسية عند التخاطب مع الأجناس الأخرى " هنا نحن نتكلم جميع لغات أوروبا. ثمة نحن لا نتكلم إلا لغة صعبة من المشرق . من حين لآخر وفيما يتعلق بمنتصف الطريق بين المدينتين، تدور لهجة دولية وبربرية معروفة باسم

[1] . عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا. ص 111

« سابير Sabir » الذي نفسه هو رمزي ويعني : « تفاهم / الفهم » سوف نفهم ؟ لن نتفاهم أبدا لا أعتقد ذلك . هنالك تجاذبات –من المستحيل– في الأخلاق مثلما هي في الكيمياء، وجميع سياسة القرون المنصرمة، لن تغير في قانون المحبة قانون العداوة الإنسانية . "[1]

وهنا دلالة على انسياق الكاتب مع الاستعمار الذي يهدف إلى التأكيد في عدم وجود وحدة لغوية بين الجزائريين، وهذا ما يفضي إلى عدم تماسك المجتمع الجزائري وأنه خليط من الأجناس المقيمة والمتنقلة الذين لا عهد لهم بهذه الأرض المهجورة ويحق لمن يعمرها أن يمتلكها .

والحقيقة أنه " كان للجزائريين غداة الاحتلال لغة علم وثقافة واحدة مشتركة هي اللغة العربية، التي كانت منتشرة ومتغلغلة في أوساط السكان بدرجة كبيرة، شهد بها المحتلون أنفسهم وكتبها في تقارير رسمية ضباط عسكريون، وموظفون رسميون، وقد وجد بعضهم في نفسه من الشجاعة والموضوعية ما جعله يصرح : بأن القراءة والكتابة كانت عند دخول الفرنسيين أكثر انتشارا بين العرب (الجزائريين) منها بين الفرنسيين، لأنها لم تكن بالنسبة إليهم مجرد لغة تواصل، أو لغة علم فحسب، ولكنها كانت فوق ذلك لغة القرآن ... " [2]

4- الكاتب وأسماء العلم والأمثال :

وقد كان شغله الشاغل وصف الطبيعة والاهتمام بالحياة الريفية والمرابطين وزيارة القبور ومراقبة النساء ونعت لباسهن وحليهن والحديث عن حياة بعض السكان ووصف سلوكهم وإبداء الانطباعات حول شخوصهم في كتابات تمثل صورا غامضة ومشوهة في الغالب الأعم بسبب عدم تعمّقه في حياة الجزائريين، وأن الذي عرفه عنهم من أحوال اجتماعية ودينية وعادات وأفكار وغيرها لا تعدو مقدار الألفاظ العربية الدارجة في العامية الجزائرية في ذهنه وعلى طرف لسانه ؛ كأسماء العَلم التي يشرحها على حسب مزاجه :

---

[1] . Une année dans le Sahel . P 23 .

[2] . د. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه . ص 23 .

" اسمه « عبد القادر »* لقب عظيم وصعب تقمصه مثل سيزار (القيصر) الذي يبدو استهزاء بحق هذه الخلقة الضعيفة أين لا يمكن له أبدا أن يخرج رجلا " [1] معتقدا أنه يوحي بمعنى العبد القادر

وفي نطقه حرف السين صادا بسبب حرف الحاء الذي يتعذر تلفظه في اللغة الفرنسية عند قوله : " « حسان » تعني حصان لكنها بالضبط هذه الكلمة تدل على أجمل الحيوانات وأروعها " [2] .

وأيضا حواره مع المرأة التي سألها عن اسمها فـــ : " ردت حالا اسمي : حوة . – أنتِ اسمك جميل . قلت لها مرددا هذه الكلمة « الهوائية » كلها مؤلفة من أحرف والتي تنطق في نفس واحد، بالضبط وكأننا نتنفس . – لأن اسمك يعني : الهواء المستنشق والمؤنس ." [3] ليتأكد أنه نطق الحاء هاءً، في حين أن هذا الاسم واسع الانتشار عند العرب لتسمية الإناث على أمهم حواء .

وربما وقع الاسم على المسمى " « بوضياف » هو سيد دار الضيافة العربية من « شارع الكراغلة » ... اسمه يدل على علامة طيبة . لأنه يعني « أبو الضيف » ... " [4]

وأحيانا يترجم الأسماء العربية بما يوافق المعجم الفرنسي " سوق « السبت » يدار في أسفل السهل على الإقليم الحجوطي، الأرض الكبيرة البائرة التي تمتد بين « موزاية » والبحيرة . مثل اسمه الذي يوحي بذلك فإنه يأخذ مكانا في اليوم السابع من أيام

---

* "القادر" : اسم من أسماء الله ومعناه المتمكن من الفعل بلا معالجة ولا واسطة الذي لا يلحقه عجز فيما يريده، ومن عرف أنه القادر رجع إليه . (حسن المسعودي . شرح أسماء رب العالمين . مصر 1949 ص 25). و« عبد القادر » اسم عظيم لرجل قاد أقوى مقاومة مسلحة ضد الاحتلال الفرنسي لبلاده الجزائر. فاعترف له الفرنسيون بسياسته وشجاعته في تسيير جيشه وتنظيم شؤون دولته (الزمالة في الغرب الجزائري).

[1] . Ibid : P 54 .
[2] . Ibid : P 162 .
[3] . Ibid : P 179 .
[4] . Ibid : P 231 .

الأسبوع ..." [1] فالكاتب يرى أن « السبت »* قد اشتق معناه من « Septième » المأخوذ من لفظ الرتبة السابعة في التعداد الفرنسي .

حرص فرومنتان على نقل الأمثال الشعبية المتداولة بين الناس وعدّها من ضروب الحكمة عند العرب فنالت بذلك إعجابه وأسرع في تدوينها لأنها تمثل خلاصة تجربة في الحياة موافقة لمزاجهم العقلي " العرب عندهم كتاب الحكمة في عرفهم وجميع السياسة (اللباقة) الزوجية مضبوطة على هذه التعاليم، إذا فهو محكم متفق عليه ... " [2] .

ولقد شاعت بين العامة لقولها الموجز ومقاصدها المعبرة، ومن سهولتها أنها تحفظ على طرف كل لسان، وتستخدم في الأحوال التي توافقها عفويا، وهي لا تتطلب علما ولا خيالا ولا بحثا عميقا، إنما هي تجربة محلية اقترنت بشأن من شؤون الحياة وبحادثة واقعية أو خيالية وهي : " لا تتجاوز مرحلة الثقافة المحكية، أي مرحلة التعايش المباشر لحياة الناس اليومية والتعبير الشفهي غير المدون عن هذا التعايش، هي ثقافة تجد في الأمثال أبسط أشكالها وأيسر أدواتها للشمولية والسيرورة " [3]

ومن ضمن ما دوّنه من الأمثال المرتبطة بالواقع الذي صوّره : [الكلام من فضة والسكوت من ذهب][4] خاصية عُرف بها العربي لتجعل منه إنسانا محايدا متحفظا وقورا، إلا أن ذلك في نظر فرومنتان تجعل منه شخصا مُبعدا منطو على ذاته وهذا يمنعه من التأقلم والامتزاج مع الآخرين .

---

[1] . Ibid : P 308 . 309 .

* يبدأ اليوم عند العرب من غروب الشمس ويمتد إلى غروبها التالي، فليله سابق نهاره . ويبدأ اليوم عند الأوروبيين من نصف الليل ويمتد إلى نصف الليل التالي وأيام الأسبوع السبعة لا تستند لأي ظاهرة سماوية أو طبيعية عند العرب أو غيرهم فيوم الجمعة يوم راحة لدى المسلمين ثم يبدؤون أسبوعهم بالسبت أما النصارى فيومهم المقدس هو الأحد واليهود يتخذون يوم راحتهم في السبت وقد وصف على أنه يوم مكر وخديعة عندهم ؛ ولم يرد في القرآن ذكر لأيام الأسبوع سوى يومي الجمعة والسبت

[2] . Ibid : P 35 .

[3] . د. حسين مروة، النزاعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية دار الفرابي ؛ 2008، ص 74 .

[4] . Une année dans le Sahel . P : 29 .

وقوله : " هنالك حكمة عربية التي تقول : [متى المرأة رأت الضيف، فهي لم تعد تريد زوجها] ."[1] إشارة إلى هشاشة العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة غير المؤسسة في نظره على الانسجام والتفاهم، وأنه متى أعرضت الزوجة عن زوجها ولم ترده حنت إلى غيره ؛ ولعل هذه النظرة غريبة عن واقع مجتمع مسلم وإنما هي نظرة ورثها الكاتب في خلده من مشاهد الانحلال الخلقي في أوروبا وما عليه المرأة الفرنسية بالخصوص من تحرر واختلاط مع الرجال.

وفي وضعية أخرى، متحدث عن النساء الزنجيات " الطبيعة قدّرت لهن ازدواجية العمل من كونهن مربيات ودواب للامتطاء . [أتان في اليوم، امرأة في الليل] يقول المثل المحلي الذي ينطبق على الزنجيات ... " [2] فبإمكان هذا المثل أن يترجم سلوك قوم وأن يحكم عليهم بالسلبية ويجردهم من إنسانيتهم إلى البهائمية التي تقرها العنصرية الحاقدة على العبيد بسبب لون بشرتهم وتحمّلهم المشقة خدمة للآخرين .

ومن الجائز أن يرفع مكانتهم بحسب الحالة التي استخدم فيها، كتعبير الكاتب عن سلوك أحد الأشخاص عند قوله : " في اللحظة حيث دخلنا ؛ رجل شاب طويل القامة ذو وجه نحيف ؛ أكمل شوطا من لعبة « الداما »* وقال لخصمه دافعا له قطعته الأخيرة [إذا كان كل الذي نطلبه نحصل عليه، الشحاذ يصبح بايا] إنه مثل معروف ... "[3]

فالظاهر أن هذا المثل متداول، مستوحى من التجمعات التي تكثر فيها المشاحنات الكلامية، تحريضا على اللعب قصد الترفيه عن النفس ودفع الضجر عنها ؛ وليس في ذلك شك من إضاعة الوقت وخمول الضمائر في الحديث عن المقاومة والخوض في أمور السياسة .

---

1 . Ibid : P 35 .

2 . Ibid : P 37 .

* « الداما » : لعبة مثل الشطرنج، يتسلى بها الكبار أوقات فراغهم أين يجتمعون في الأماكن العامة تحت الجدر والشجر والساحات والمقاهي وعلى عتبات الدكاكين، وهي فرصة للهو والاطلاع على الأخبار قديمها وجديدها وتفقد أمور الجيرة من فرح وترح، وحيز ملاسنة بين هامز ولامز لإثارة الحماس وتغليب مؤيد على معارض ورابح على خاسر.

3 . Ibid : P 163 .

ومن الأمثال التي نالت إعجابه، ما ورد على لسان محدثه سي عبد الله، قوله : " رأس دون حيلة يقطينة أفضل منه "[1] لما تحمله من معنى معبر عن مستوى ثقافي نسبي لهذا الرجل المسن .

ولا عجب أن يتقبّل « فوندال »* الصديق المخلص للكاتب مثل هذه الأمثال التي يجيد استعمالها " رائع لكنه منافق (مخادع)، قائلا لي فوندال لمّا كنّا لوحدنا [رجل ذو لسان عذب بإمكانه رضع اللبؤة] "[2] ومن الجائز أن يسرد الكثير منها متى سنحت له الفرصة على حد تعبيره : " – هذا الرجل الشيطان يقاتل على طريقة « البارث » قلت، نراه على حين غفلة مبتعدا . – نعم، قال فوندال مطلق الأمثال . من المؤسف أنه أدار ظهره بسرعة، كان لي عشرة لإرسالها إليه ."[3]

---

[1] . Ibid : P 65 .

* لويس فوندال : صديق حميم للكاتب خصّه برسالة مفادها : [أُبلِغْت أنّك رجعت . أنا في البليدة منذ أيام ... أنا أنتظرك ... في ذكرى من الماضي التي قضيناها نصطحب الطريق وعَبْرَ احتراس من أجل المستقبل، أني أضمك بمودة يدي]... فكان بحق عنصرا أساسيا في تحريك أحداث كتاب فرومنتان من الصفحة : 132 إلى غاية 349 نهايته ؛ ولم يفارق الكاتب إلا في فترة ذهاب هذا الأخير إلى الأغواط ليتجدد اللقاء بينهما في شحن الهمم والتزود بالنصائح لاستئناف المغامرة قضاءً على الوحدة والرتابة المملة ... إنه شيخ في هيئة شاب رحالة باحث ومؤرخ يجيد استحضار الوقائع وسرد الأخبار وضرب الأمثال والتواضع مع الناس بلطف والتحدث إليهم باللغة العربية والتفاني في عمله والعيش سائحا لا يخشى في طريقه شيئا ، وعلى حد قوله : " ألف فارس لا يمكنهم تجريد رجل عار . " ... تعرّف عليه فرومنتان في رحلته الثانية إلى الجزائر ضمن النزهة الاستكشافية التي قادته إلى الجنوب الشرقي، حيث رآه يحمل جسيما أسطوانيا من الحديد الأبيض وجرابا من الجلد، يرتدي برنوسا وممتطيا فرسا سرّجت بلوازم عربية ؛ لقبّه سكان المناطق التي زارها والذين تقبّلوه درويشا وطبيبا بينهم بـــ: « بو جعبة » بسبب المضغاط الذي في يده وكأنها ماسورة بندقية حقيقية ؛ كان همّه جمع العينات الصخرية عن طريق تكسير الحجارة بواسطة مطرقة وإزميل والاحتفاظ بها في أماكن معلومة لديه وقياس الأبعاد بالأنبوب المعدني ورسم الخرائط في أشكال متباينة بالريشة ... وكل ما من شأنه أن يعطيه نظرة شاملة على هذه البلاد التي أحبها حبا جما وآل على نفسه عدم مفارقتها ولو ميتا ... تقاسم مع الكاتب أوقاتا ممتعة جمعتهما في مدينة البليدة خاصة في فندق « بو ضياف » وسوق « باب السبت » وعند الحلاق « حسان » وفي بيت « حوة » والخروج في رحلة صيد إلى منطقة السهل وحضور حفل فروسية موعود للحجوطيين لينسدل ستار التوادع بينهما في آخر الكتاب بين مقيم وراحل على أمل اللقاء هنا " ومدّ ذراعيه عبر إشارة كبيرة التي تشبه المحيط لحظة المرئي من هذه « الأرض الإفريقية » ضمن ممتلكاته العقلية . [« سنة في السهل » ص 346]

[2] . Ibid : P 173 .

[3] . Ibid : P 240 .

5- الكاتب واهتمامه بصغائر الأمور :

ولم يفوّت فرومنتان لحظة الاستمتاع وهو يسرد صغائر الأمور مؤكدا على تسجيله من هذه البيئة كل ما من شأنه الإيحاء بالتخلف الصارخ والمشاهد النادرة " من خلال شجرة تين فسيحة دون أوراق لكنها ...كثيرة الأغصان . جذع الشجرة نقع في بركة ماء آسنة، حيث استثار البط والدجاج مرتبط مثنى مثنى من خلال الوصلة، مثل السجناء ضمن من يتحدى، تتجوّل حول رماد جِدٌّ مرتبِكَةٍ من عقالها، كل واحدة تجذب الخيط إلى نفسها دون التمكن من المشي في انسجام ... أنا لا أُؤلِّف قط الصورة هكذا ؛ لكنني أنقل لك بالضبط ما رأيناه ."[1]

وهنا يُلاحظ أن الكاتب تعمّد رصد هذا المشهد البدائي، مبينا الأوضاع المتردية والحياة القديمة في هذه الناحية الآئلة للزوال بسبب التوسع الاستعماري في المدينة، وفرض سياسة التهميش والإقصاء على سكانها ليعشوا في فقر مدقع وجهل حالك تحت أسر الاستبداد .

وبالمقابل لم يفوت الكاتب لحظة الاستمتاع بالطيور خاصته وهو في بيته " الحمام في فناء الدواجن خاصتي يهدل وكأنه مقدم مقطوعة موسيقية من هذه اللوحة الجميلة ... " [2] وحين استوقفته جحافل دواجن فناء جاره من باب الفضول والعفوية، آثر الحديث عنها " في الصباح جميع هذه العائلة ذات الريش تتملص دفعة واحدة عبر جميع الفتحات، ... كل منها يعود إلى وكره، والشمس لم تغرب بعد على أن آخر دجاجة حازت على خمّها ." [3]

ولا شك أن الذي حفزه للتعبير عن هذه المشاهد الخاصة، هو إحساسه بالوحدة والعزلة في بيته بحثا عن نقطة انطلاق لاكتشاف هذا الفضاء الرحيب من حوله " بالنسبة لي بعد هذا السجن المطول بعد شهر رأس لرأس مع ظلي، أقل هزة للعقل تصبح مغامرة . " [4]

---

1 . Ibid : P 158 . 159 .
2 . Ibid : P 15 .
3 . Ibid : P 18 .
4 . Ibid : P 129 .

ولعل الدافع إلى هذه المواضيع على بساطتها مرده تأثر فرومنتان بالرومانسية وإخلاصه إلى فن الرسم والكتابة، ترويحا عن النفس لاستعادة النشاط في تحقيق الغرض الذي ينشده، ثم أن خوضه لمثل هذه الأمور والإقرار بها إلى الناس لم تكن وليدة الواقع الذي يصوره فحسب بل عاشها في كينونته وصادف مثلها في حياته حين عبّر عن مشقة سفره مجتازا البحر باتجاه الجزائر وسرده حكاية الطائر الصغير الجريح " هذه الرسالة يا صديقي لن تذهب وحدها لقد جئت هذه اللحظة لأبعث إليكم رسولا إنّه عصفور آويته في طريقي وقد جلبته حتى إلى هنا كمرافق لي . " [1]

6- الكاتب و الطيور :

أما عن الطيور فقد أشار إلى عدد كبير منها، كطائر العندليب والحجل والإوز والحمام والوطواط والنورس والحبارى واللقلق وغيرها ؛ وعن هذين الطائرين الأخيرين فقد خص الكاتب كلا منهما بقوله : " أريد أن أحدثك عن « الحبارى » الضخمة المسماة هنا « حبارة » وضمن العرب أنفسهم، الناس الأقل صيدا على الأرض يتقابلون مع فضول ... « الحبارى » صفراء شاحبة مزركشة بالبنّي، أجنحة سوداء مع بقع بيضاء مطوّقة بلون مائل إلى البياض، مخططة من الأسود، منقار مسطح مثل الذي عند طيور الزرزور، أرجل دون أصابع ... " [2] ملفتا انتباه قرائه إلى هذا النوع من الطيور النادرة والتي لا توجد إلا في هذه البيئة التي ضمت صنوفا متنوعة من الطير والحيوان مبديا امتعاضه من طريقة العرب في صيد الطرائد وتقفي آثارها وقنصها دون هوادة في صورة همجية تفاضلية في إحراز الكم لا الكيف ؛ في حين أن الصيد هواية ومتعة محببة للقادرين عليها تَنِمّ عن مقدار تحضر أصحابها .

واللقلق طائر أبيض بساقين طويلتين « طويلات الساق Les échassiers » وعلامات سوداء على جناحيه، غالبًا ما يبني عشه في السطوح والمداخن في مدن شمال إفريقيا،

---

[1] . Ibid : P 05 . 06 . 07 .
[2] . Ibid . P 286 . 287 . 288 .

ويهلل بقدومه الناس كعلامة بانقضاء فصل الشتاء وحلول الربيع مما سار في عرفهم أنه فأل خير عليهم " رأيت اللقلق متبوعًا من رفقته، ينزل من الجبل ويتوجه نحو « باب السبت »، ... واحد من العرب الذي رآه، مدّ ذراعه وقال واقفا نحوه مباشرة : « شوف البرارج » انظر ها هو اللقلق . إنهم شاهدوه جميعا على الفور، وكأنه مسافر أقبل عليهم " [1].

وفي هذا الصدد تتحدث الباحثة آن ماري كرستين : " أن الإنسان الجزائري كائن خرافي يخضع في حياته لأوهام، ويرتبط بعالم أسطوري متخلّف لا يمكنه التغلب على الفرنسي الذي يتقدم عليه كبديل حضاري يتصف بالقوة والعبقرية ويخضع حياته للعقل والعلم والتجربة " [2] ولكن هذه الصورة لم تكن لولا تخبط المجتمع الجزائري في اليأس والفقر والأمراض واشتغال الناس بالتصوف الذي شاع بين الفترة الممتدة " من أوائل القرن العاشر الهجري (16م) إلى أوائل القرن الثالث عشر الهجري (19م) " [3] ففي هذا الجو المشبع بالروحانية، تنامى في نفوس الناس مثل هذه الخرافات والخوارق وحتى القصص الشعبية التي يرجع أصلها إلى " قصص البطولات العربية مثل سيرة عنترة ... وقصة الجارية ودياب الهلالي وهذا النوع من القصص انتشر في الجزائر منذ الفتح العربي بواسطة الفاتحين الأوائل أو عن طريق القوافل التجارية أو الرحالة أو الحجاج أو عن طريق الهجرات المختلفة والكتب التي تعنى بالتاريخ الإسلامي والبطولات العربية . " [4] وقد اتجه العامة إلى هذه القصص الشعبية يتلهون بها ويشبعون منها عواطفهم بحثا عن كبريائهم المهانة وحريتهم الضائعة بسبب سياسة الاستعمار الفرنسي الهادفة إلى تجريد الإنسان الجزائري من كل مقوماته الشخصية .

---

1 . Ibid . P 190 .191 .

2 . Un été dans le Sahara . P 17. 18 .

3 . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 1 . ص 481

4 . د. عبد الله ركيبي . تطور النثر الجزائري الحديث 1830 - 1974 . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983 . ص 120

7- الكاتب والحيوان :

وعن الحيوانات والطيور وحتى الحشرات نجد فرومنتان يعتبرها عنصرا أساسيا من هذا الوجود مثل الكثير من الفنانين الذين " اتخذوا موضوع الحيوانات في صورهم، فنجد منها : الغزال والأسد والحصان والجمل والكلب والحمار والطيور على اختلاف أشكالها . وهم يظهرون أحيانا الألفة بين الإنسان والحيوان ." [1]، وهو في ذلك يعرف أسماءها ويستوعب أشكالها جيدا ويحرص على فهم غرائزها.

وما ذكره في كتابه من صنوف الحيوان، نجد من بينها الحصان والحمار والجمل والبقر وقد صورها بقوله : " أحيانا جملان أو ثلاثة جمال سود وجرب، تحت حراسة جحش صغير غريب الهيئة بسبب طول شعره وهنالك يلتقي مع قطيع البهائم ذات القرون (أي البقر) ؛ الحمار يستلقي وينام " [2] وفي موضع آخر " الأرض معجونة من مادة إنسانية، منمية النباتات الهائلة . الخبّاز، شجر الزان، الصبار الوحشي المزدهر بكل حرية ؛ حمار يتجوّل في سلام في هذا المرعى الغني بالأسمدة . " [3] وهنا أراد الكاتب التلميح بهذه الثروة الحيوانية الطليقة في كل مكان والتي قلما يُشرَف على رعيها، وهي ملك لأهل الريف (الدوار) والبدو، ترعى الكلأ الذي ساعدت على نموه ظروف الزمان المتعاقبة وسماد أجساد الناس على جنبات المقابر وفي معالم الآثار وفي الضياع الواسعة وحتى على مشارف المدن في مشهد غير منتظم ولا لائق.

ويواصل الكاتب وصفه للإبل، بقوله : " بعض الجِمَالِ التائهة بعيدة عن « الدوار » تقترب بدل الفرار منا ... مستقيمة واقفة معظوظمة مع ذراها الموبَّرة، ... ورؤوسها الغريبة، من شفه محركة إلى العين الوديعة، هذه الحيوانات كبيرة البنية وضعت بين الأراضي الشاحبة والسماء ذات الزرقة الناعمة . وضاعفت النسب والأحجام وأخذت مثل « فيل » شوهد

---

[1] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 8 . ص 377 .

[2] . Une année dans le Sahel . P 14 .

[3] . Ibid : P 84 .

عن قرب ... الاعتدال من هذه الحيوانات تأخذ فوق العادة مواصفات لنوعية أخلاقية لا نراها جياعًا إننا نعتقد أنها مفكرة (متأملة)" [1]

والجمل مطية الرّحل ووسيلة نقل هامة عرف باسم « سفينة الصحراء »، له قدرة فائقة في تحمل العطش والجوع والتعب والاكتفاء بالقليل من الكلأ والماء، يناسبه المناخ الجاف وينفر من المناخ الرطب، يسير لمسافات طويلة دون إحساس بالعياء، وهو بحق مثال للصبر والخلقة المميزة مصداقا لقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾*

وللجمل أيضا شأن عظيم في عمارة مدن الصحراء وتحسين ظروف المعيشة والاتصال بين أطراف الصحراء والمناطق السهبية " والجمل في مجتمع الرّحل رمز (للثروة) والجاه، عنوان للرخاء الذي يرافق النفوذ والسلطان بين العشائر والقبائل ... والجمل يمثل موردا اقتصاديا هاما للرجل الصحراوي فهو كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك، ينتفع بلبن الناقة، ويلبس ثيابا مصنوعة من وبر الجمال ... ويستعمل جلده لمختلف الأغراض " [2]

إذًا فلولا الجمل لبقي الإنسان الصحراوي في عزلة عن باقي العوالم المتاخمة لحدود الصحراء ولتقطعت سبل المواصلات بين واحاتها مما يحتّم على سكان هذه البيئة التقوقع على أنفسهم يصارعون الزوابع الرملية لإنقاذ أنفسهم من الفناء جوعا ومسغبة في هذه البقاع المجدبة وأطرافها المترامية ؛ إلا أن الجمل سهّل الطريق إليها وأحيى دروبها المضلّة، بما زوّدها من مؤنٍ بعثت الحياة في أفرادها ومن هم حولها من جديد لتتحول إلى مراكز تجارية نشطة يقصدها القاصي والداني فرادى وجماعات دون أن يخشوا على أنفسهم الهلاك المبين .

---

[1] . Ibid : P 289 .

* سورة الغاشية ؛ الآية : 17 . (جاء في التهميش من كتاب : محمد علي الصابوني . صفوة التفاسير . تفسير القرآن الكريم . ج3 ؛ دار ومكتبة الهلال ؛ بيروت : [إنما خص تعالى الإبل بالذكر لأنها أفضل دواب العرب وأكثرها نفعا، ولهذا تسمى « سفينة الصحراء » فأنظر إلى خلقها العجيب فإنها في غاية، القوة والشدة وهي مع ذلك تنقاد مع الطفل الضعيف، وهي تجلس لتضع عليها حمولتها عن قرب، ثم تقوم بما تحمله بما ينوء عنه العصبة أولو القوة، ثم صبرها على الجوع والعطش الأيام المعدودة، ثم بلوغها المسافات الطويلة، ورعيها بكل نبات في البراري وغير ذلك من عجائب الخلق والتكوين، فسبحان الحكيم العليم !])

[2] . إسماعيل العربي . الصحراء الكبرى وشواطئها . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ؛ 1983 . ص 45 .

لقد " خلق ظهور الجمل فرصا مثالية لتعمير الصحراء ولاستغلال مواردها الطبيعية ولجعل الصحراء منطقة عبور للتجارة بين البحر الأبيض والعالم الأسود " [1]

وقبل ظهوره كان الحصان هو الحيوان المستعمل للركوب ونقل الأثقال، إلا أنه أمام الصحراء يبدو حيوانا ضعيفا على تحمل قسوة طبيعتها وحاجته إلى العلف باستمرار، لذا لم تتوان السلطة الاستعمارية في استخدام حيوان الجمل ضمن قوتها لاكتساح الصحراء " والجمل يستعمل لنقل الأمتعة الثقيلة ومختلف أنواع البضائع، ولكنه يستعمل أيضا بسرج أو راحلة للركوب . وهذا النوع هو الذي يسمى « المهري » والذي استخدمه الفرنسيون بكفاءة لإخضاع الصحراء ولسلب الرجل الصحراوي حريته التي تحمّل المشاق وناضل من أجلها قرونا طويلة ." [2]

وقد خصص فرومنتان جزءا من كتابه في وصف الخيل وطقمها ؛ مبيننا فن ركوب الخيل وألعاب الفروسية عند العرب، وهي لا تقتصر على مهارة الفارس في ثباته على ظهر الحصان، بل تشمل جانبًا آخر معنويًا . يتمثّل هذا الجانب في روح الفروسية بكل ما يحمله هذا المفهوم من قيم وأخلاق . ويمثّل مشهد الفنطازيا العربية مظهرًا طبيعيًا من مظاهر حياة الفارس الجزائري منذ القِدم . نتيجة لظروف طبيعية واجتماعية واقتصادية، ونتيجة لما كان يشعر به من تحدي الآخرين، اتخذ الفروسية وسيلة لمقابلة هذه التحديات كما ارتبطت الفروسية بالحرب منذ أن وعى الإنسان دور الخيل فيها . " الرجال كانوا في ... أثواب الحرب : سروال الخفاف، الحايك (العباءة) المستديرة والمزخرفة، الأحزمة المجهزة من الخراطيش ... ذهبوا معًا وصلوا إلى الأقصى . شيء كفاية نادر للعرب... الركاب بجنب الركاب...، الأذرع ممتدة الزمام للريح ... يناورون سواء بالبنادق سواء بالسيوف ...ومن خلال الحركة التي لا يمكن وصفها، كل البنادق طائرة فوق الرؤوس،... تفريغا عامًا الذي

---

[1] . المرجع السابق : ص 44 .

[2] . المرجع نفسه : ص 45 .

نحن يغطينا من البارود ويحْجُبنا بالدخان الأبيض، النساء يصفقن ... في حدث مثل الحرب، المشهد باهر الذي يسمى فنطازيا عربية هذا المشهد ينتظر رسّامه ... " [1]

إن الخيول العربية الأصيلة تعد مثالا للجمال والقوة والرشاقة وهي مظهر اعتزاز للعربي الذي رعاها وسماها وحافظ على نسبها، فقد ورد عن النبي ﷺ : [الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة] * ؛ فحث بذلك على اقتناء الجياد وإكرامها، وكان صلى الله عليه وسلم أول من استخدمها للجهاد في الدفاع عن بيضة الإسلام امتثالا لقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾**

ومن أجمل الخيول العربية ما صغر رأسه وتناسقت فيه الرقبة مع جذعه، واستدقت أطرافه ورقّ جلده وبرز عرض صدره، وكان لونه زاه مشرق، وفي حركات مشيه وعدوه نضرة، وأصواته معبرة لا يدرك كنهها إلا من خبر أمرها .

ومما يذكر أن الجنرال « أوجين دوما*** Eugène Daumas » ألّف كتابا عن الحصان العربي سماه : « خيول الصحراء الكبرى مع تعليقات للأمير عبد القادر » نُشر وأعيد طبعه ثانية عام **1853**، لما لقيه من استحسان ونجاح وتجاوب مع القارئ الأوروبي المتطلّع إلى أخبار الشرق ؛ وكان من بين من استفاد منه الكاتب فرومنتان، الذي فتح المجال أمامه للتعبير عن ألعاب « الفنطازيا » أو « ألعاب الفروسية العربية » بعد أن تشبّع فكره بأقوال المتمرسين في هذا الميدان، يقول : " الجنرال ب. ديكاريير B. De Carriere

---

[1] . Une année dans le Sahel . 327 .

* رواه البخاري .

** سورة الأنفال ؛ الآية : 60 .

*** للجنرال أوجين دوما أربعة مؤلفات :

- « الصحراء الجزائرية 1845 Le Sahara Algrien »
- « الصحراء الكبرى 1848 Le Grand Désert »
- « آداب وعادات الجزائر 1853 Mœurs et Coutumes de L'Algérie »
- « الحياة العربية والمجتمع الإسلامي La vie et La Société Musulmane »

((إن للعرب في تربية الخيل وترويضها أفكارا ذات صحة لا يمكن إنكارها لأنها ثمرة خبرة تقليدية ... وحصانهم هو الجدير بالمعارك ... إنها خدمة إضافية لجيشنا في إفريقيا ...)) " [1]

ومثل هذا الجهد في نظر الغربي في دراسة الخيول، يقرب إلى العربي لعلاقته الوطيدة بحصانه، ومتى تمت دراسته سهل السيطرة على سيده. وما من مؤلف يحاكي هذه الدراسة إلا وقد أدى خدمة جليلة للقارئ الأوروبي وخدم مصالح دولته في فرض سيطرتها على بلاد المشرق مثلما ورد على لسان الجنرال دوما قوله : " ... يجب علينا أن ندرسه (الشعب الجزائري) كي نتعلم كيف نسيطر عليه ... لست هنا لأقول هذا جيّد وذاك سيء، أقول وبكل بساطة : جيّد وسيء هذا ما يفعله العرب " [2] .

8- الجزائر والتواجد الأوروبي :

لقد مارس الاستعمار العنف في الجزائر، وفرض وجوده بحد السيف والبندقية مظهرا قوته وجبروته لإذلال الجزائريين وإخافتهم ؛ وهي صورة قديمة راسخة في ذاكرته مرتبطة بالحروب الصليبية وسطوتها على العوالم الأخرى من المعمورة .

ويظهر فرومنتان أنه يحمل مشعل المدنية والتحضر في قاسم مشترك مع ادعاءات الاستعمار منذ الوهلة الأولى في احتلالهم الجزائر " ... نحن الفرنسيين أصدقاؤكم نتوجه إلى الجزائر لنطرد الأتراك منها ... إننا لا نغزو المدينة لنصبح سادة عليها إننا نقسم لكم على ذلك بدمائنا، فانضموا إلينا وكونوا أهلا لحمايتنا ستحكمون بلادكم كما كنتم في السابق سادة مستقلين في وطنكم ... إننا نتعهد باحترام كنوزكم وأملاككم وديانتكم المقدسة ... إننا سنعيش في السلم من أجل سعادتكم " [3] ؛ والمتصفح لكتابه « سنة في السهل » ينبهر

---

[1] . أوجين دوما . خيول الصحراء الكبرى مع تعليقات لأمير عبد القادر . عرض وتحليل : سلميان قطاية . مجلة عالم الفكر المجلد التاسع عشر (19) العدد الرابع (04) . الكويت (أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر 1988م) ؛ ص 271 .

[2] . المرجع السابق، ص : 272 .

[3] . عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام . ج3 ؛ ص : 406 . 407

بمدى عطفه على المجتمع الجزائري في حين أنه يخدم أهداف دولته بما أشار في صوره من هيمنة فرنسية وفرض للوجود وتوفير من امتيازات للمستوطنين الأوروبيين .

إن إدارة الاحتلال الفرنسي لم تقدم أي خدمات اجتماعية للجزائريين، مما يعكس أسلوب تعاملها معهم على أساس الهيمنة والاستغلال، في حين أنها ركزت جل اهتماماتها في خدمة المستوطنين، سواء كانوا فرنسيين أو أوروبيين، أغنياء أو فقراء، لتوفر لهم حياة الترف والمتعة التي لم يحلموا بها حتى في أوطانهم من أوروبا ؛ " ففي الجزائر بلغت نسبة وفيات الأطفال بين المستوطنين البيض 39 لكل ألف من المواليد الأحياء . لكن هذا الرقم يقفز إلى 170 لكل ألف من المواليد الأحياء بالنسبة للجزائريين المقيمين في المدن . ويعني ذلك، من الناحية العملية، أن الخدمات العلاجية، ورعاية الأمومة والصرف الصحي كانت موجهة لصالح المستوطنين " [1] .

كما حرص الكاتب أن يقدم الفرنسي في صورة كاملة مثالية تؤهله لأن يبرز كإنسان متشبع بالمسؤولية خبير بحياة الأهالي يدير شؤونهم بحزم وصرامة دون أن يجرده ذلك من مشاعره وعواطفه الخيّرة ؛ يعرف تاريخهم وسوابقهم وشؤونهم الداخلية وقرابتهم، وقد مثل ذلك عن طريق شخصه وشخصية صاحبه لويس فوندال « بوجعبة » ومن خلال عظمة شعبه التي يستحضرها من حين لآخر، للاستشهاد بها في موضوعات كتابه ؛ وبالمقابل لا يروقه تصرفات بعض المستوطنين*، الذين يتصرفون على شاكلة العرب .

وعن الحضور الفرنسي والأوروبي، فقد جسده فرومنتان في كتابه في نحو ثمانين موضعا، قدم من خلالها إلى قارئه الغربي صورا عن الجزائر بطريقة تصوير متتابع قائم على الموازنة بين ثقافة فرنسية أوروبية واعية، وثقافة شرقية منحطة .

---

[1] . د. والتر رودني . أوروبا والتخلف في أفريقيا . ترجمة : د . أحمد القصير مراجعة : د . إبراهيم عثمان . سلسلة عالم المعرفة . الكويت ؛ ص 269

* مثل جار الكاتب البولوني « آدم » غريب الأطوار،الذي يملك حظيرة دواجن، كثير التأملات، والسهر مع الغرباء في ظلام الليل الدامس، لم يشعل لهم نار موقده يوما، ويتصرف – في نظر الكاتب – كعربي يميت ساعات حياته ليستتر تحت التراب .

نوع التفوق	الصفحة	موضوعه
فرنسي (أو باريسي)	– 1 . 5 .6 . 48 .59 . 214 .229 .252 . 267. 275. 347. 349 .	– ما يعبر عن مكانة فرنسا في نفس الكاتب، وعن مدى تمكنها في العلوم والفنون
	–11 . 151.	– التأسف على تغيير الطابع المعماري لمدينة الجزائر وملامح طبيعتها ؛ وعدم انسجام البليدة للمشاريع التطورية الحديثة .
	–14 . 77 . 94 . 113 . 119. 124 . 131. 284 . 313 .	– التشابه أو التمايز بين البلدين في الأحياء الفقيرة .وخصوصية الأرياف والمناصب وأداء بعض الأعمال
	– 20 . 22 . 26. 89 . 112. 152. 153 .	– روعة البناء والمشاريع التنموية الفرنسية في الجزائر والبليدة
	– 20 . 136 . 149 . 167. 172. 201 . 213 . 309 . 332. 346. 27–	– إحكام السيطرة والسعي إلى ملكية الأرض ؛ وتحفظ الناس في عدم الخوض في الشؤون السياسية والمصالح الفرنسية –التآلف بين الأطفال كنوع من الاندماج
	–41 . 64 . 71. 156. 160 . 163. 164. 165. 180 . 183 . 193. 240 .	– دعوة إلى الإقبال على تعلم اللغة الفرنسية وترجمة المصطلحات العربية
أوروبي	– 11 .48 .242 . 152 . 265 .	– نزوح المستوطنين من أوروبا إلى الجزائر برغم من مشقة السفر وبعد المسافة لأجل الظفر بخيرات الجزائر
	– 20 . 27. 90 . 151 .	– جمال طراز العمارة الأوروبية ونسق مدنها في الجزائر الحديثة
	– 23. 99 .100 .	– التكلم بجميع اللغات الأوروبية والتشابه والاختلاف في طرائق العيش
	– 170. 203 .218 .223 . 245 .310 . 312.	– الإشادة بالتطور الأوروبي والفرق بين الوضع الاجتماعي العربي والغربي

ومثل هذه المشاهدات تعد تصديرا للصورة المشرقة التي يريد أن يثبتها في الوعي الأوروبي ولدى الرأي العام العالمي وكأنه يريد أن ينزع من الأذهان الوجه الآخر من صورة فرنسا الذي تخفيه عن العالم . مستنكرا تخبط الجزائري في عالم خرافي وتقاليد بالية مما يدل على تخلف فكره وبدائية سلوكه .

وهنا يتضح من العرض السابق، أن فرومنتان زار الجزائر، التي دفعته إلى معايشة الحالة الروحية للشرق وتسجيل كل مظاهر السلوك والعادات والتقاليد ؛ مؤكدا في كتاباته إلى قرّائه ما استنبطه من أحكام كثيرة عن هذه البيئة التي عبّر عنها بشجاعته الأدبية وموهبته

الفنية في الرسم وعناء الالتزام بالموضوعية في نقل الواقع؛ إلا أن ذلك كان يمثل ملاحظات عامة أقرب إلى الانطباعات الشخصية التي قد يتفق معها سائحون آخرون، كما أنها أحكام خاصة تمّ تعميمها على الكل، بالإضافة إلى أنها انطباعات رجل وقع تحت تأثير مشاعر الإحباط التي انتابته بسبب تجربته العاطفية في طفولته ؛ ولملء خوائه الروحي المؤلم، ازداد نهمه في السعي إلى التألق في فن الكتابة من خلال موضوع الجزائر، رجاء التغلب على أزماته النفسية والبحث عن التوازن والصفاء لشخصيته بين الجميل والغريب من هذه البيئة الشرقية .

الخاتمـــة

يتضح لنا من العرض السابق أن اهتمام فرنسا بالجزائر جاء رغبة في التوسع والاستيلاء على ثرواتها وخيراتها والقضاء على هوية أهلها، وقد سار معظم أدبائها ومفكريها وباحثيها جنبا إلى جنب مع العسكر في ركاب الاحتلال وإدارته سعيا إلى دراسة هذه الأرض الإفريقية المشرقية والتعمق في تاريخها وحاضرها آنذاك .

ويبدو أن الحركة الأدبية والفكرية الفرنسية عملت على تلميع سياسة فرنسا بالجزائر كالعمل الذي قام به الكاتب أوجين فرومنتان في كتابه : « سنة في السهل » محددا إحداثيات تواجده في فضاء الجزائر الغريب عنه لرصد الصورة عنها وإرسالها إلى من تعذر عليه الارتماء في أحضانها من مواطنيه والتي نالت القبول والاستحسان منهم، كونها تصب في وعاء الفكر الأوروبي المتعصب في كشف الغرائبية إلى حد البدائية عن الآخر .

وقد بحثنا بالتفصيل في موضوعنا فتوصلنا إلى النتائج التالية :

– لقد أبقى الأتراك في خلافتهم حكم الجزائر على البنية الاجتماعية المحلية دون مساس بها في حين عمد الاستعمار الفرنسي في احتلال الجزائر إلى تحطيم ذاتية السكان قتلا ونفيا وتجويعا وتخويفا وتجهيلا، الأمر الذي جرَّ أسباب الانحطاط والبؤس والأمراض الفتاكة للجزائريين ؛ ومن هذا الوضع المتردي أسس فرومنتان صوره مسترقا السمع والنظر وحتى التنبؤ .

– نلمس من كتاب فرومنتان كراهيته للأتراك لأنهم يمثلون الدولة العثمانية المسلمة التي فرضت سيطرتها على البحر المتوسط وحكمت بلاد المشرق والمغرب، كما أظهر تعاطفه مع سكان الجزائر لمن يعترف بفضل فرنسا وقوتها وتفوقها العلمي والتقني .

– مجيئه إلى الجزائر ثلاث مرات، حيث مكنته رحلته الثالثة من اكتشاف منطقة السهل والصحراء كوسطين مختلفين متناقضين جمعا بين جمال الطبيعة وقسوتها، حيث الهواء العليل والمياه الصافية والسهول الخضراء والتضاريس المتنوعة والفصول المتعاقبة وكثرة القرى والأرياف في الشمال ؛ والحرارة والعطش وبعد المسير وكثبان الرمال والنخيل في الجنوب ؛ امتداد طبيعي ضم سكانا ذوي طباع بدائية وعقول خاملة لا ترغب في الرقي والتحضر .

– حكم على العرب أنهم متعصبون، يمثلون مجتمعا عبوديا، يؤمنون بالخرافات، وأنهم قدريون، أمزجتهم لا تتوافق مع المدنية والفنون .

– العرب متنقلون لا أراضي لهم وهم دخلاء على أراضي الغير، ويطمعون في ثروات الآخرين، كما يحبون التباهي بنسبهم وجمع المال وادخاره .

– العربي ثقيل الظل، مهمل اللباس، ضعيف الإنتاج، كثير التلكؤ والضجر عند العمل.

– العربي يعيش حاضره بأحداث ماضيه .

– العربي فاقد لأسباب قيادة نفسه، والتأقلم في إطار الجماعة ؛ مفش للأسرار، غير أمين، محتال، جبان، سهل الانضواء تحت لواء حكم غيره من الأجناس التي أسهمت في تشييد الحضارة الإنسانية .

– التأكيد أن التاريخ الجزائري، هو تاريخ انقسامات مستمرة وتناحر دائم .

– أراد الكاتب مخاطبة قارئه الأوروبي عامة والفرنسي خاصة بأن صورة الجزائر اليوم عكس ما كان ينظر إليها ماضيا على أنها شبح تركي مخيف، بل أرض شرقية جميلة سهل قنصها لعجز أهلها على حمايتها، والذين تقاطروا عليها من كل حدب وصوب، إشارة منه إلى أن الجزائر أرض يباب لا أهل لها .

– جل الجزائريين الذين التقى بهم الكاتب وتحدث عنهم في كتابه، خصّهم بصور ظاهرها الرضا عن أنماط سلوكاتهم المميزة لكل واحد منهم وباطنها التهكم والازدراء .

– يعرض الكاتب ضمنيا صور التقابل بين فرنسا الأوروبية والجزائر الشرقية، وأن الاستعمار نعمة جاء ليأخذ بيد الشعوب المغلوبة على أمرها إلى الحضارة الحديثة لتكون قادرة على قيادة نفسها، ليقع في التناقض حين يؤسفه ما تقوم به فرنسا من مشاريع عمرانية قضت على الطبيعة الجزائرية العذراء وأحيانا أخرى يراها رسالة تمدن وتحضر على الطراز الأوروبي ربما لا تروق للجيل الحاضر، غير أن الأجيال القادمة ستألفها وتتأقلم معها في ارتياح تام .

– يقال : " أن الهروب من حل المشاكل هو في ذاته مشكلة "، إشارة إلى ما اتسمت به حياة فرومنتان الاجتماعية والأدبية، مما أثر على مجريات الأحداث في كتابه الذي اصطبغ بطابع ذاتي أملته عليه ثقافته والظروف التاريخية في رحلته إلى الجزائر، حيث لبى بواسطته رغبة مجتمعه المتعطش للمطالعة ونداء واجبه اتجاه وطنه الأم، ملتزما بإملاءات ثقافته المحلية، مستجيبا للإدارة العسكرية في توجهها، وممتثلا لدور النشر في حيازة سبق الخبر المتميز لإثارة حفيظة النقاد وكسب ميول القراء بما تم جمعه من معلومات سابقة وأخرى حديثة عن الآخر في زمانه ومكانه حبًّا في الاستطلاع وجلب المثير ؛ ومع ذلك يظل الإنسان دائم التغير مع نمط الحياة وصورته حتما تخضع للتغير عاجلا أم آجلا .

إن الصورة التي نقلها فرومنتان عن الجزائر تبقى تمثل شهادة على قدر كبير من الأهمية في إلقاء الضوء على هذه الفترة من تاريخ الجزائر ؛ ولكن لا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن أسلوبه التهكمي وقصصه المبتكرة قد غذى بها خيال الشعوب الغربية بصور سلبية عن الجزائريين والعرب عموما، حيث أصبحت مع غيرها من النظرات التعميمية هي الأساس الحقيقي في اتصال الغرب بالشرق، ليس كما هو في الواقع، بل بالأفكار المسبقة عن أنماط سلوكاته التي بات يعتقد أنها الصفة المميزة له في حين أنها لا تمثل اهتمام الباحث ما لم تكن يمارسها عدد كبير من الناس بشكل منتظم ومستمر .

لقد أدى تعبير الأنا بالرسم والكلمة دوره في التعريف بالآخر، ونبهه بطريقة غير مباشرة إلى التخلف الصارخ الذي يعيشه، داعيا إياه – هنا – إلى ضرورة التغيير نحو الأفضل

بعيدا عن تعقيدات الحضارة وتكاليف المدنية – هناك –، وهذا ما تحقق حقيقة للكاتب فرومنتان، فقد أعادت إليه رحلته إلى الجزائر توازنه النفسي وحققت له ما كان يحلم به .

وعلى الجملة فإن الصورة التي أنجزها فرومنتان عن الجزائر وشعبها اتسمت بمظهرين واضحين من خلال القراءة الأولى لكتابه المدروس، يتجلى المظهر الأول في صورة الواقع التعيس الذي عاشه الشعب الجزائري تحت نير الاستعمار وخبث خططه في استحواذه على أرض الجزائر وإعمارها باسم : « إفريقيا الفرنسية » ؛ وتتخللها صورة انبهار بجمال البيئة التي طالما حلم بمثلها الغرب في امتلاكها، فكتاب الصحراء مثّل الصيف الإفريقي بعينه، وكتاب السهل مثّل الجزائر المخضرة الضاحكة وأضوائها الفاتنة وتضاريسها المختلفة وآفاقها اللامتناهية وهي صورة المشرق وكأنها آيات من الكتاب المقدس .

أما المظهر الثاني فقد تمثل في صورة تعبر عن نظرة ذاتية لواقع وهميّ تؤطره روح الاستعلاء والتعصب غير مبرأ من سياسة التمييز التي ينتهجها الغرب اتجاه العرب وغيرهم من الشعوب المبنية أساسا على النفعية المادية .

هذه بعض النتائج أو الملاحظات التي أمكن الوصول إليها، وبالرغم مما بذلته من جهد في استنطاق أفكار الكاتب المتشعبة، وقياسها بفرضيات تحمل البرهنة أو الرفض وصولا إلى نتائج تحليل منطقية بعيدة عن الاحتمالات والتفاسير الذهنية المجردة، يبقى عملي هذا محاولة قراءة جادة لعمل أدبي ضخم يتطلب جهودا متضافرة لكشف النقاب عن زوايا أخرى لم يتطرق إليها البحث .

الملحق

قائمة المصادر والمراجع

01. القرآن الكريم « برواية ورش عن الإمام نافع »

02. صحيح البخاري ومسلم

أولا : المصادر :

03. Eugène Fromentin . Une année dans le Sahel . Michel Lévy Frères, Libraires - Editeurs . Paris 1859 .

04. Eugène Fromentin . Un été dans le Sahara . Présentation et Notes par Anne Marie Christine . Editions Le Sycomore . Paris . 1981 .

ثانيا : المراجع العربية :

05. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي **1830– 1954** . ج**6** . ج**8** . ج**10**. دار البصائر الجزائر.

06. أبو القاسم سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . دار الغرب الإسلامي . ج**1** .

07. إبراهيم العاني . الزمان في الفكر الإسلامي، ط**1** . دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع؛ بيروت **1993** .

08. إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر **1830 – 1962** . دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر **2007** .

09. إبراهيم عبد الرحمن محمد . النظرية والتطبيق في الأدب المقارن . دار العودة، بيروت **1982** .

10. أحمد حيدوش . الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر **1990**

11. أحمد درويش . الاستشراق الفرنسي والأدب العربي . الهيئة المصرية للكتاب **1997** .

12. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه . ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007 .

13. إدوارد سعيد . الاستشراق : المعرفة، السلطة، الإنشاء . ترجمة كمال أبوديب . مؤسسة الأبحاث العربية 2001 .

14. ألفريد بيل . الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي . ترجمة عبد الرحمان بدوي . دار المغرب الإسلامي بيروت 1981 .

15. الطيب العلوي . مظاهر المقاومة الجزائرية (1830 - 1954) دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة، الجزائر 1985 .

16. إسماعيل العربي . الصحراء الكبرى وشواطئها . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983 .

17. آمال فريد . الرومانسية في الأدب الفرنسي . دار المعارف . القاهرة (ج.م.ع) 1977.

18. بهيجة المصري إدلبي . الزمن رسالة الكائن إلى ذاته . دار عبد المنعم ناشرون – 2005 .

19. جمال أمباركي . الغرب في الرواية العربية الحديثة بحث لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث . جامعة باتنة 2008 - 2009 .

20. جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ترجمة أبي القاسم سعد الله تحت عنوان : الجزائر وأوروبا 1500 – 1830 . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986 .

21. حسن المسعودي . شرح أسماء رب العالمين . مصر 1949

22. حسين محمد فهيم . أدب الرحلات سلسلة عالم المعرفة . تحت الرقم 138 الكويت، يونيو 1989

23. حسين مروة، النزاعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية دار الفرابي ؛ 2008

24. حميد لحمداني . بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي . ط 2000 .المركز الثقافي العربي .

25. دانييل هنري باجو " الأدب العام المقارن " ترجمة د. غسان السيد . من منشورات إتحاد الكتاب العرب 1997

26. زينات بيطار. الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي. سلسلة عالم المعرفة، الكويت. يناير 1992

27. زينب عصمت راشد . تاريخ أوروبا الحديث في القرن التاسع عشر . دار الفكر العربي . القاهرة .

28. سعد صناوي . مدخل إلى علم اجتماع الأدب ؛ دار الفكر العربي ط1. بيروت . 1994 .

29. صلاح مصطفى الفوال. علم الاجتماع البدوي ؛ سلسلة علم الاجتماع والتنمية . ط1، مصر 1974

30. عائشة قسول . Prestations de: Un été dans le Sahara. ENAG. Alger 2001

31. عبد الرحمان بن محمد الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . دار الأمة . الجزائر ؛ ج1 و ج2

32. عبد الجليل لهجومري . L'image du Maroc dans la littérature française (de loti a Montherlant) SNED. Alger 1973

33. عبد الصمد زايد . مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس – ليبيـــا 1988 .

34. عبد المجيد حنون . صورة الفرنسي في الرواية المغربية . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر ؛ 1986

35. عبد المالك خلف التميمي . الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي . دراسة تاريخية مقارنة ؛ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، نوفمبر 1983 .

36. عبد الله إبراهيم . الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة . المركز الثقافي العربي المغرب . لبنان، ط1 ؛ 1999 .

37. عبد الله ركيبي . تطور النثر الجزائري الحديث 1830 - 1974 . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983

38. عبد العظيم رمضان، الغزو الاستعماري للعالم العربي وحركات المقاومة، دار المعارف، القاهرة 1985

39. علي غربي . علم الاجتماع وثنائيات النظرية التقليدية – المحدثة . قسنطينة – الجزائر 2007 .

40. غاستون باشلار . جمالايات المكان ؛ ترجمة : غالب هلسا . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2 . 1984 .

41. مالك بن نبي . شروط النهضة . ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر ط3 . لبنان 1969 .

42. مبارك بن محمد الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث . ج**1** . المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر

43. مبارك بن محمد الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث . ج**2** . المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر

44. محمد بوعزة . تحليل النص السردي، تقنيات ومفاهيم ؛ الدار الأمان . الرباط **2010** .

45. محمد علي الصابوني . صفوة التفاسير . تفسير القرآن الكريم . ج**3** ؛ دار ومكتبة الهلال ؛ بيروت

46. محمد غنيمي هلال . الأدب المقارن دار العودة . بيروت ؛ **1983** . ط **3** .

47. محمود حمدي زقزوق . الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري . دار المعارف القاهرة **1997**

48. محمود رجب . فلسفة المرآة . دار المعارف مصر . ط**1** . **1994** .

49. منى أحمد أبو زيد، الفكر الديني عند زكي نجيب محمود . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ط**1** . بيروت، لبنان

50. ميخائيل إبراهيم أسعد . شخصيتي كيف أعرفها دار الأفق الجديدة . لبنان ؛ ط**3** . **1987** .

51. ناصر الدين سعيدوني . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة ؛ ج**2** . المؤسسة الوطنية للكتاب ؛ الجزائر **1988**

52. نسيب نشاوي . المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر **1984**

53. نورالدين أفاية، المتخيل والتواصل مفارقات العرب والغرب . المنتخب العربي . لبنان ؛ **1993**

54. والتر رودني . أوروبا والتخلف في أفريقيا . ترجمة : د . أحمد القصير مراجعة ود . إبراهيم عثمان . سلسلة عالم المعرفة . الكويت .

ثالثا : المراجع الفرنسية :

55. Delacroix E. Voyage au Maroc 1832 . Paris 1930 .

56. André Lagarde et Laurent Michard .Les Grands Auteurs du moyen Age Au XX e Siècle .Bordas Paris 1971 .

57. Eugène Fromentin . Dominique . Introduction et Notes par Emile Henriot . Editions Garnier Frères . Paris . 1961 .

58. Eugène Fromentin . Les Lettre de jeunesse . Paris . 1909 .

59. J-M .Moura, L'Europe Littéraire et l 'ailleurs, Presses Universitaires de France 1998.

60. Roger Le Tournau " Les villes Musulmanes de L'Afrique du nord " Ma Maison des livres . Alger 1957 .

رابعا : الرسائل الجامعية :

61. **عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا. مشروع لنيل شهادة ماجستير 2005 .**

خامسا : الدوريات باللغة العربية :

62. **مجلة عالم الفكر . الكويت ؛ 1988 .**

سادسا : المعاجم :

63. **ابن منظور . لسان العرب . دار صادر بيروت . ط4 ؛ 2005 . مجلد 8 .**

سابعا : القواميس باللغة العربية :

64 . **ش. بدران . أطلس العالم . أطلس جغرافي مصور . مطبعة الأرز . بيروت – لبنان . 01/ 08/1996**

65. **فؤاد أفرام البستاني منجد الطلاب . دار المشرق العربي، 2000 جذر الكلمة (صور)**

ثامنا : القواميس باللغة الفرنسية :

66. Dictionnaire illustré . Editions du Cerf-Volant . 1999

67.Le petit Larousse 2003 . Larousse 21run du Montparnasse 75283 Paris : cedex 06 .

68. MICHELIN (carte : [172]). Algérie - Tunisie . Pneu Michelin. 46 . Av. de Breteuil 75341. Paris : cedex 07

الفهـــرس

الصفحة

المقدَّمة ..... أ–ح

تمهيد 01

أولا : مفهوم الصورة 02

ثانيا : كتّاب الصورة 06

الفصل الأول : الكاتب وأعماله 15

1– أوجين فرومنتان الرّوائي 16

1–1 عصره 16

أ) فرنسا في عصر الكاتب 16

ب) الجزائر في عصر الكاتب 25

1–2 حياته 31

1–3 رحلاته إلى الجزائر 34

2– فرومنتان الرّسّام 37

3– العمل المدروس « سنة في السهل » 41

أ) نظرة وجيزة في كتاب « صيف في الصحراء » 41

ب) تلخيص وتعليق لكتاب « سنة في السهل » 45

ج) تأثّر فرومنتان بالقنصل والتر شالير 49

د) وجهة نظر في عنوان الكتاب 51

الفصل الثاني : صورة المكان والزمان 55
تمهيد 56
1- مفهوم المكان والزمان 56
أ) مفهوم المكان 56
ب) مفهوم الزمان 57
2- أنواع المكان والزمان 58
أ) أشكال المكان 58
ب) أشكال الزمان 59
3- أهمية دراسة المكان والزمان 60
4- صورة المكان 61
4-1 جمال الفضاء 61
أ) منظر البحر وروعة الشمس 63
ب) النبات 65
4-2 منطقة السهل 66
4-3 الصحراء 68
4-4 صورة العمران 72
أ) الطابع العام لمدينة الجزائر 73
ب) الطابع العام لمدينة البليدة 82
ج) المرافق العامة 84
ج-1 المحكمة 84
ج-2 السوق 84
ج-3 مقهى « بوجمعة » 86

ج–4 الأعياد 86
ج–5 المقبرة 88
ج–6 قبر الرومية 89
ج–7 الخيمة 90
ج–8 الحرث 91
5– صورة الزمان 91
5–1 الفترات القصيرة 94
5–2 الفترات الطويلة 97

الفصل الثالث : صورة الإنسان 101
1– صورة المجتمع 102
2– صورة الفرد 107
2–1 الجزائري العربي 107
1–1 الرجل 112
1–2 المرأة 124
1–3 الطفل 128
2–2 الجزائري من أصول أفريقية 130
2–3 اليهودي 131
3– الكاتب واللغة العربية 132
4– الكاتب وأسماء العلم والأمثال 134
5– الكاتب واهتمامه بصغائر الأمور 139

6- الكاتب والطيور 140
7- الكاتب والحيوان 142
8- الجزائر والتواجد الأوروبي 146

الخاتمة 150
الملحق 154
قائمة المصادر والمراجع 159
الفهرس 164